



يارسول الله

د. ابراهيم على أبو الخشب

دارية



يَا سِرُّكَ اللَّهُ

تأليف: د. إبراهيم علي أبو الخشب

الطبعة الثانية



الهيئة العربية العامة للكتاب

١٩٩١

دريه محمد علي

البير جورجى

تصميم الغلاف

الاخراج الفنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم
ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين ،
وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله
يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم •

(صدق الله العظيم)

مقدمة

كانت الأمانى الحلوة التى تدور بذهنى ، فى كل مناسبة دينية .
تهنئ وجدانى ، وتثير مشاعرى ، أن يكون لى حديث تسجله الاذاعة ،
أو تنشره الصحف والمجلات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أصور فيه اعجابى به . وحبى له ، وأملى فيه ، ورجائى منه ، وطالما تحقق
لى الكثير من هذا كله فكتبت وأذعت وتحدثت ، وجرى ذلك كله
بكىائى جريان الدم فى العروق . الا أنى أيقنت أن هذه كلها قد لا يذكرها
الناس الا فى حينها . وفى الوقت الذى ينتهى الى أسماعهم حديثها ، ثم
يكون نصيبها منهم بعد ذلك التغافل والنسيان ، وذلك ما لا يليق بإنسان
أرسله ربه رحمة للناس . وجعله امام الصديقين والشهداء والصالحين ،
وأنقذ به البشرية من الضلالة والخيبة ، والجهالة والشك ، والعمى والشرك ،
فصارت تنعم بنور الهداية ، وتحيا بالعلم ، وتسعد بالخير ، وتأنس
بالحب ، لا يستذلها أحد . ولا يستعبد لها انسان . ولا يصح أن يكون
جهدى من الاعتراف بفضله ، أو التسجيل لأيديه رهنا بهذا النطاق
المحدود ، وانما يكون كتابا يحرض المؤمن على اقتنائه ، ويعمل على صونه ،
ويضن به من أن يضع فى زحمة الأفكار ، أو فى خضم الاهمال والنسيان ،
والكتاب كان - ولا يزال - دخر الأديب ، وتحفة العالم ، ورأس مال
العاقل ونزهة المهووم ومفزع الحائر ، ودنيا أولئك الذين لا يحيون فى
دنيا الناس .

الا أننى حينما ابتدأت هذا العزم المصمم على إبراز تلك الفكرة الى حيز الوجود لم يتيسر لى أن أرتبط بها حتى النهاية لتكون صورة واحدة لانفعال وجدانى واحد ، تتناسب فيه المشاعر ، وتتشابه الملامح . وتتعانق الألفاظ بالمعاني . فتجىء كما تجىء الحسنة وخيالها فى المرأة . عند من يحسنون الظن بى ، ولكننى ارتبطت بالكتابة وانقطعت لها فى فترتين مختلفتين تمام الاختلاف . قد قطعت ما بينهما شواغل ، وحالت ملابسات ، جعلت الكتابة كأنها لرجلين اثنين كل منهما له خصائصه التى تميزه فى أدبه وذوقه ، ووعيه وإدراكه ، فمن أول الكتاب حتى عنوان « فى المدينة » كانت الفترة الأولى ، ثم من بعد ذلك الى نهاية الكتاب كانت الفترة الثانية وسيرى القارئ أن الطابع الذى تنفرد به الأولى القصة وخيال الشاعر ، وتصوير الرسام ، وأسلوب الأديب ، وأما الثانية فانها جاءت على نهج المؤرخ الذى يعنى بالأحداث ، ويهتم بالأعاصير ، ويجرى وراء عجلة الزمن ، متتبعا لآثارها وما تخلفه وراءها . معلقا عليها أو غير معلق وحينما انتهيت من الكتابة وعادوت النظر اليها هممت أن أهمل شأن الكتاب لأبتدئه من جديد على نسق واحد لا تختلف أشكاله ومرائيه ، غير أنى خفت - فى زحمة المشاغل - ألا يساعدنى الوقت على الكتابة على اللون الذى أريده فيترتب على ذلك الوقوف الجامد . والاعضاء التام - وشئ خير من لا شئ - فقلت ماذا يضير القارئ أن يجد هذين اللونين . ويمتغ خاطره بهاتين الصورتين . وكلتاها مما يطلبه الوجدان ، وينشده العقل . وأدع للناقد بعد ذلك كله حكمه الذى يصدره . والله أرجو أن يجعل هذا الجهد خالصا لوجهه مقبولا عنده ، مشكورا لديه . انه هو حسبى وكفى .

المؤلف

مقدمة الطبعة الثانية

رسول الله صلى الله عليه وسلم - مع اجلنا له - واعتزازنا به - لا يفقه حقه من الحديث . ولا نصيبه اللائق به من التنويه ، ولا حظه من الاعلان عن مواهبه التي كانت له في بيانه ولسانه . وحكمته وحنكته ، ولباقتة وذوقه ، وكياسته وسياسته . وحذقه وبعد نظره ، وحسن تدبيره ، وحلمه وعلمه ، وعفوم وتسامحه ، وصفحه واغضائه ، وذكاؤه وفطنته ، وطهارة قلبه ، ونقاء ضميره ، وسلامة سلوكه ، وسمو روحه . وعلو مكانته ، وحده على الضعفاء ، واحسانه الى البائسين ، وصلته لرحمه وذويه ، وعطفه على قومه وحرصه على أن تستقيم أمته على الجادة ، وتسلك السبيل السوى ، وزهده في الدنيا ، وترفعه عن حطامها الفاني ، وعرضها الزائل ، وزهرتها الذابلة ، ودفعه السيئة بالتي هي أحسن ، وعدم تعاليه على أصحابه الذين كانوا من حوله . أو الجوانب الخصبة التي كانت فيه من البر والمعروف ، والتواضع والأدب ، والحياء والعفة ، والرأى والعقل ، والوعى والفكر ، والعبقرية التي خصه الله بها دون غيره من الأنبياء والرسل ، مجلدات ضخمة ، ولابيان رائع ، وفصاحة نادرة ، وبلاغة جبارة ، وذلك لأن الذي اختاره رسولا على رأس هؤلاء الذين سبقوه بالهداية من الأنبياء والرسل . لم يشأ الا أن يجعله خلاصة الخلاصات ، وزحيق العصارات ، وسيد أهل الأرض والسموات ، والبقية الباقية من الطيبات الصالحات . وإذا كان القرآن الكريم وهو معجزته القائمة الى يوم

الدين سيظل هكذا منارة للطريق ، وانقادا للغريق ، وارشادا للضال ، وهاديا للحائر ، ومقوما للمعوج ، فان محمدا صلى الله عليه وسلم هو هذا الكتاب الثانى ، بعد ذلك الكتاب الاول الذى تتدارسه الأجيال بعد الأجيال ، وتنتفع به الشعوب ، وتستفيد منه البشرية ، على مدى الحياة دون أن ينضب له معين ، أو يجف له ماء ، أو ينتهى له عطاء ، وذلك لأن خالقه قد أراد أن يجعله المعجزة الأخرى وقد كان فيما بين العرب المثال الكامل للانسانية ، وما أنكر عليه هذا عدو ولا حاقد . وقد كتب عنه آلاف العلماء ، وأساطين الأدباء ، وسيكتب عنه ان شاء الله الأبناء والأحفاد . وسيظل هو مع هذا كله القمة الشامخة التى لا يستطيع الصعود إليها أحد ، والغريب فى حياته التى صنعها الله على عينه . تلك الشدائد التى كان يلاقيها ، والمحن التى كانت تتوالى عليه ، والخطوب التى كانت ملازمة له ، ومع ذلك لم ترده عن غايته ، أو تعوق سيره ، أو تصده بحال من الأحوال عن قصده ، ونحن نعلم أنه ارتضع أفاويقها منذ فتح عينيه على هذا الوجود ، اذ رأى نفسه يتيما فقيرا ، قد فقد العائل الذى يرعاه ، والمال الذى ينفق منه ، ثم ظل تحت رحمة من يكفله من أهله وذوى قرابته ، حتى اذا بلغ سن الشباسب كان يبحث عن يستأجره فى رعى الغنم أو التجارة رجاء أن يحصل على لقمة العيش التى لابد منها لتقييم صلبه ، وتدفع عنه غائلة الجوع . ويلقى عليه جل جلاله عبء الرسالة وهو مجرد عن الأعوان والأصدقاء أو الأهل الذين يقفون بجانبه ، ويدافعون عنه ، أو يساعدونه على تحمل المشاق ، ودفع تلك الشدائد ، وهناك يطمع فيه كل طامع ، ويتناول عليه كل متناول ، ويكذبه كل جاهل ، ولا يجد ما يسرى عنه ذلك كله الا أن يتجه الى الله ليقول له « اللهم ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى .. ويقاوم كفار مكة والمنافقين من حوله ، وهو لا يتجاوز مرحلة الا أخذ يواجه أختها أو عمته وخالتها ، وهكذا دواليك ، ونحن لا ننكر أن حياة المصلحين وأرباب المبادئ كذلك كانت ، ولكنها حينما تكون ممن يتوسمون فيهم الحذب ، ويرجون منهم النصر ، أو ينتظرون منهم المساعدة ، ثم يخيب الظن فيهم ، تكون الطامة الكبرى ، والألم الشديد ، وتحطيم القوى ، ولقد كان أول من ابتدأه بذلك كله عمه أبو لهب وهو يقول له تبت يدك ألهذا جمعتنا ، فماذا كان يخبئه له القدر بعد هذا الخذلان الا أن يقول عنه القائلون ساحر أو شاعر وأساطير الأولين اكتتبها أو مجنون ، بعض آلهتنا اعتراه ولا تزال تلك المشادة والصد والاعراض يواجهها فى الصباح وفى المساء ممن يعرف ومن لا يعرف حتى حملوه رغم أنفه على أن يترك بلده وأهله وبيته فرارا بحياته التى لم تكن له ، ولما علموا أنه قد قر قراره فى منفاه لاحقوه بالكيد ، ودبروا له عوامل الايذاء ، وجهزوا له الجيوش التى تحاربه ، عسى أن يسكتوا صوته ، أو يضمنوا

موته ، وكان المأمول أن يجد في بيته الاستقرار الا أنه كان مليئا بالمتاعب في داخله وفي خارجه ، وحسبك ما كان لحديث الافك ، وقصة « يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك » ولم يكن له من مصادر الرزق ، وأسباب الثروة ، ما يجعله في بذخ الملوك ، ولا سعة أرباب السطان ، لكن نساء أبين الا أن يجعلهن في مستوى نساء قيصر وكسرى ، ولم يكن كل هذا هيئا عليه ، ولا خفيفا لديه ، وقد رزقه الله من جاريته مارية القبطية بولده ابراهيم ففرح به فرحا شديدا ، وكان لهذا يمر كل يوم ببيت مارية - البعيد عنهن - ليرى ولده وقرّة عينه ، لكن ذلك لم يكن على هواهن ، فاهتاجت حفاظهن ، وكان يقول لعائشة وهي أقربهن الى قلبه ألا ترين ما بينه وبينى من شبه ، فتقول له ليس فيه منك شيء يا رسول الله ، وكذلك كان هذا الطفل الذي ابتهج النبي بمقدمة مثار حقدهن ، وابتجاد المشاكل منهن لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، الى درجة أن حصلت منه صلى الله عليه وسلم جفوة لهن ، وانقطع عنهن شهرا كاملا ، وظن الناس أنه طلقهن ، وكان ذلك يشبه المأثم عند المسلمين ، لولا عمر رضى الله عنه وقد جاءه ليعرف جليلة الأمر ، فأخبره صلى الله عليه وسلم أن ذلك لم يكن فخرج عمر الى الناس وأخبرهم بذلك ففرحوا فرحا شديدا ، ونزل حينئذ قوله تعالى « ترجى من تشاء منهم وتؤوى اليك من تشاء الآية » ٠٠ وعلى كل حال فان نساء صلى الله عليه وسلم لم يكن من الملائكة المقربين ، وانما هن بشر يجوز عليهن ما يجوز على الناس من الحقن أو الغضب والغيرة ، وما من واحدة منهن الا كانت تود أن يكون رسول الله لها وحدها دون أن يشاركها فيه أحد ، تملأ هي قلبه ، وتشغل باله ، وتستأثر بحبه . وقد كانت عائشة مع علمها بمكانتها عنده لا تود أن يجرى على لسانه ذكر خديجة التي فارقت الدنيا ، وصارت من غير شك لا تزاحمها عليه ، ولا تشاركها فيه ، وخلاصة القول أن حياته كلها كانت سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب والمعاناة ، ولابد للدارس لسيرته صلى الله عليه وسلم من أن يقف أمام ذلك موقف التأمل ليرى ان كان مثل ذلك قد تحمله الأبطال في تاريخ هذه الانسانية أم ان ذلك كان له وحده ليكون أهلا للسيادة والريادة ، وسيدا لأنبياء الله ورسله ، وصاحب هذا الصوت المدوى في ضمائر الناس وأفئدتهم ، واذا كان الشاعر يقول « وبحسن السبك قد انفى الدغل » فان تلك المحن ، وهذه الشدائد ، قد صهرته صلى الله عليه وسلم ، وجعلته أقوى احتمالا ، وأكثر جلدا ، وأشد ثباتا ، وأبعد عن الفضول ، وأبغض للتوافه من الأمور ، والرخص من الخلال أو الأعمال ، ولا يمكن بحال من الأحوال أن يقول فيه قائل ليته كان ، أو ليته لم يكن ، وقد كان الأجدر به كذا ، أو لم يكن من الجدير به كذا ، وهو الذي سواه ربه من الكمال ، وجملة بحسن الخصال ، وصوره من

الابداع ، وآزره بالالهام ، ووهبه السداد فى الراى ، والقوة فى العقل ،
والحنكة فى التدبير . والسلامة فى الخطا ، ليكون هو هذا الضياء الذى
يكشف لنا المعالم ، ويضىء لنا السبل ، حتى لا ينحدر الناس ، أو تغيب
عنهم حكومة القسطاس ، وكان بذلك صلى الله عليه وسلم أستاذ الأساتذة ،
وفيلسوف الدنيا ، والقرآن الثانى لهذا القرآن الذى لا يأتية الباطل ،
ولا يجحده العاقل ، وهذا هو الذى يحملنا على القول بأن مجال الكتابة فيه
سيظل متسعا لمن يريد أن يحظى بهذا الشرف ، وكلنا لا يأبى أن يكون
هو هذا الرجل .

المؤلف

يا رسول الله

ما تفقدت الانسانية خلقا كريما ، ولا ديدنا عظيما ، ولا سلوكا نبيلًا ، ولا خلة من خلال البر ، أو خصلة من خصال الخير ، ولا شيئًا وراء ذلك كله من مكارم العادات ، وجميل الصفات ، إلا كان نفحة من أدبك ، ولمحة من خيمك ، ومضة من هديك ، واشعاعًا من نورك ، وخطوة من سننك ، وسطرًا من تاريخك ، أو قبسًا كنت ترسله في الليالي الحائلة ، والمعالم المشتبهة ، والسبل الملتوية ، والساعات الدالحة ، والأوقات الحرجة ، والمحن الصارخة ، والظروف البغيضة ، والشدائد الملحة . . . وسيظل تاريخك خلدًا خلود الأبد ، باقيا بقاء الدهر ، مضيئًا أكثر من الصبح ، مدويا دوى الأذان ، يتحدى الفناء ، ويصارع الأحداث ، ويغالب الزمن ، ويحارب الطغيان . ويخضع صعر الملوك ، ويسخر من الجبابرة ، ويهز بنيان الظالمين ، ويقضي على الفساد ، ويعلم المساواة ، وينادي بالعدالة ، ويشيع المحبة . ويأمر بالمعروف ، ويقلم أظافر الاستبداد ، ويشرع الاشتراكية ، ويقصم ظهور المتكبرين في الأرض بغير الحق ، لا لأنك رسول رب الأرباب ، وملك الملوك ، وقيوم السماوات والأرض ، وأنت تحتمي ببطشه ، وتعتز بسلطانه ، وتنتصر بئاسه ، وتقاتل بسيفه ، وتنطق بلسانه ، وتدعو إلى سبيله ، وهو - لا محالة - يصونك من بغى المسلطين ، وعدوان الظالمين ، وعبث المفسدين ، وسفه الحمقى ، والله جل جلاله لا يتخلى عن أوليائه ، ولا يترك جنوده ، ولا يخذل أعوانه ، ولا يتغافل عن الملحوظين بعنايته ، المشمولين برعايته ، المحفوظين برحمته ، المغمورين برضوانه ، ولكن لأنك - مع هذا كله - كنت المثل الأعلى الذي ترتقى إليه البشرية عند نموها ، وتتطلع إليه حين تقدمها ، وتحاول أن تحتذى سلوكه كلما ثاب إليها الرشد ، أو عاودها الصواب . وتتيقظ فيها

العقل ، وتحركت لديها أسباب الفقه والمعرفة ، وألهمها الله السداد والتوفيق ..

والحديث فيك - يا رسول الله - حبيب الى النفس ، خفيف على القلب ، لذيد رجعته على السمع كأنه موسيقى أطيّار الجنة ، أو نغم من بلابل الخلود ، ترتاح له الأفئدة المكدودة ، والجوانح الملتاعة ، والأكباد الملتهبة ، والأرواح المتشوفة ، وتجد لصداه من الحنين والشوق ، والميل والاصفاء والطرب والنشوة ، والاذعان والقبول ، ما لا تجده لغيره من أحاديث ، ولا لسواه من أقوال ، ولو كانت تحكى صباية العشاق ، ولوعة المحبين ، لأن جرسه شدد ، وألفاظه نغم ، وحروفه ايقاع ، ومعانيه آمال صادقة ، وأحلام لذينة . وخيال يحلق بالمومن في سماء الخلود .. ينشده الأديب فيجد فيه الحكمة البالغة . والفصاحة النادرة ، والبلاغة الرائعة ، والأسلوب القوي . والتصوير الدقيق . والألفاظ الحلوة . والمنطق السليم . والبيان العذب ، والوجدان الصادق ، والشعور الصحيح . والنمط الذي لا يصل اليه الا الأفاضل من أساطين الكلام ، ودهاقين القول ، وجهابذة الحديث ، وأساتذة الأدب ، ويتصفحه المصلح الاجتماعي فلا يعثر فيه الا على دستور قوي ، وتهذيب واضح ، وتقويم سليم ، وتوجيه سديد ، وفانون لا غبار عليه .. وهكذا كل جوانبك - صلى الله عليه وسلم - لا يجد فيها أحد ثغرة ينفذ منها ، ولا خلا يعيبك به . ولا نقصا يحسبه عليك ، وإنما هي شامخة كالجبل ، طاهرة كماء السماء ، أهلة بالخصوبة ، عامرة باليقين ، غنية كل الغنى بالبر واليمن ، والصدق والحق ، والخير والمعروف ، والصواب والعدل ، والاصلاح والمنفعة . والسلامة والأمن ، والرضا والاطمئنان .. وأنا أجده في حديثي عنك وذكرى لك ، وصلاتي عليك ، وأدبى معك ، واجلالى اياك ، وأملى فيك . غذاء لروحي ، وضيياء لقلبي ، وشفاء لغليلي ، وارواء لظمئي ، وارضاء لضميري ، واقسم بالله الذي اصطفاك . والخالق الذي اجتباك ، وبالكبير العظيم الذي أرسلك ما أحسست أن هذا خيال شاعر . ولا أوهام فيلسوف . ولا أحلام نائم ، فإن الخليفة لم تعرف رجلا لفت جيد الزمن ، وشغل أذهان الناس ، وحير ألباب المفكرين ، وتطلعت الدنيا الى ما فيه من خلال نبيلة . وسجايا حلوة ، وأخلاق عالية ، ووجدان طاهر ، وشعور سام ، وأدب جم ، وسلوك حميد ، قبل أن تعرفك أنت ، وتعرف أنك طيبها وعلاجها ، وشفاءها ودواءها ومثلها العليا ، وأهدافها البعيدة . وغايتها التي تحمد عندها السرى ... وكأنما الدراسة التي تناولتك ، والآداب التي تؤخذ عنك . والسلوك الذي ترسمه ، والمنهج الذي بينت خطوطه ، والأخلاق التي ناديت بها ، ودعوت اليها ، كانت هي الدستور الذي كانت البشرية تبحث عنه ، والانسانية ترجو أن تصل اليه ، لينتقل بها الى حالة أفضل .

ومستقبل أكمل ، وغاية أكرم ، وسعادة أعظم ، ومجد أشمل ، وأمن أقرب ، واصلاح أعمق ، وسبيل أوضح ، وعيش أرغد ، ونفع أحسن ، وهناءة أوفر ، وبهنية أضمن ، حتى لا تظل غارقة في ابهالة ممعنة في الطيش ، واغلة في الضلال ، دائبة على الانحراف ، مبالغه في الاقتراف ، ولا سيما فيما يتصل بالعقائد التي كانوا فيها كالبحر المائج ، أو البركان الهائج ، لا هدف لهم يصح الاتجاه اليه ، ولا غاية يمكن أن ينتهوا عندها ، وهم يعبدون الكواكب ، ويؤلهون القوة ، ويعظمون الجماد ، ويخضعون للباطل ، ويعكفون على الأصنام • ويسجدون للوثن • ويتهافتون على النار ، ولا يدينون للحق ، أو يميلون للهداية ، أو يفتحون عيونهم على النور ، أو يوجهون أفئدتهم للصواب ، ولكنهم يحبون الخرافة ، ويعظمون البهتان ، ويهتمون الاهتمام كله بأخذ الثار ، ومعاقرة الخمر ، وواد البنات ، واشباع الشهوات النازلة ، والميول الساقطة ، والطباع المريضة ، والأهواء الحقيرة • وليس لهم - حينئذ - من المعارف ما يساعدهم على أن تكون لهم حضارة تجعلهم في صفوف الدول الناهضة ، أو الأمم المتوثبة ، أو الشعوب المتطلعة ، أو الجماعات التي تدفعها شهواتها الى العمران والرقى ، والتقدم والاصلاح ، أو الجرى وراء الغايات المحمودة ••

وفي الحق لقد كان أجدر بالدهر أن يطأطئ رأسه لك - يا رسول الله - اجلالا لما احتواه تاريخك ، واعجابا بما تضمنته سيرتك ، واكبارا لما كان من خلاك ، وتعظيما لما كنت عليه من خلق عظيم تجاوز حدود التقدير والاحترام ، والثناء والمديح ، ونحن لا نشك في أن أصحاب الدعاوى ، وأرباب المبادئ ، وحملة المشاعل ، وقادة الأمم ، وزعماء الاصلاح ، في كل زمان ومكان ، لا يصلون الى أهدافهم ، ولا يبلغون غايتهم ، بذراية لسانهم ، وقوة حجتهم ، وسداد رأيهم ، واستقامة مناهجهم ، وروعة بيانهم بمقدار ما كان يساعدهم على ذلك كله سلطانهم المرهوب ، وبأسهم المسلط • وقوتهم الرادعة ، ونصرة القرابة والأولياء ، أو المال الذي يغرى بالاقبال والرغبة ، ويساعد على تمكين النفوذ والجاه ••• وأنت لم تنصرك عصبية كانت الى جانبك ، ولم يساعذك مال كان في يدك ولا نفوذ أتيج لك • سوى أن سيرتك كانت قرآنا ، وحياتك كانت برهانا ، ويقينك بالله كان ايمانا ، وثقتك بربك تجاوزت الحدود والسدود ، وقد استقبلت الانسانية حديثك الطيب ، وأدبك العالي ، وخلالك الكريمة ، وسلوكك العظيم ، استقبلها للأحداث الهامة • والأمور الغريبة ، والمنن العظمى ، والأمانى المحبوبة ، والأحلام السارة ، والمعجزات الكبرى • وآمنت - بسبب ما وجدته فيك من بر ويمين - أن لله أسراراً تخفى على الفطن ، وتلدق على الأفهام ، وتتسامى على المنطق ، وتجاوز حدود

العادات ، وتأبى أن تخضع للمألوف . وهناك لا يسع الناس الا أن يردوها
الى خالق السماوات والأرض . ومدبر هذا الكون الواسع ، والملك
الفسيح . .

وفيك - يا رسول الله - تحكم الفقر ، وتمكن اليتيم ، واستبذ الجوع
والحرمان ، وقد جرت العادة مع الاطفال ، الذين تلاحقهم مثل تلك
الظروف ، وتصادفهم مثل هذه الأحوال ، أو تلعب بهم تلك الاحداث
وتهز في كيانهم هذه الأعاصير ، أن يموت فيهم النزوع الى المجد ،
والرغبة في الكمال ، والتطلع الى الأهداف البعيدة ، والاعراض النبيلة ،
والغايات السامية ، الا أنه لم يقل قائل ان همتك كانت واهنة ، ولا ان
عزيمتك كانت هزيلة ، ولا ان طموحك كان ميتا ، أو ان قناتك لانت
لغامز ، أو ان نفسك ذلت لجبار ، أو ان عودك انحنى لمسلط ، أو ان
جهادك لاصلاح هذه البشرية قد وقف في منتصف الطريق ، وحولته عن
القصد غايات ، أو منعه عن نهايته موانع . . . وفي سلوكك مند كنت
ناعم الاظفار ، غص الاهداب ، جديد الثياب ، صغير السن . السميت
الطيب ، والخلق القويم ، والعقل الواعي ، والبصر النافذ ، والرأى
السديد ، والدوق الناضج ، والرجولة المبذرة . والعظمة التي لا يحيط
بها زيف ، ولا يكذبها تمويه ، ولا يشوبها رياء ، ولا تغلب عليها صناعة .
وكانما كان ذلك كله ينادى أن مستقبلا ملحوظا ينتظرك ، واما باسمنا
يتربك ، ومجدا عظيما سيواتيك ، وجاها عريضا معك على ميعاد ، وأن
الارهاص الذي يسبق المعجزة يخطو اليك ايذانا بالنهاية الكريمة ،
والخير الحميد ، والتاريخ الذي يرويه الآباء للأبناء . . . فلما بلغت مبلغ
الرجال ، وكنت تقرى الضيف ، وتحمل الكل ، وتنصر الحق ، وتنطق
بالصدق ، وتعين على المعروف ، وتنصف المظلوم ، وتخفف ويلات
المكروبين ، وتمتلى نفسك الكبيرة بالمعاني النبيلة ، والعواطف السامية ،
والاماني الحلوة ، والنوايا الطيبة . والفرائض المهدبة ، والخلل الكريمة ،
والسجيا المحببة . هالهم شأنك ، ويهرهم أمرك ، وعناهم حالك ، وظنوا
أن الأيام سوف تتمخض بك - لا محالة - عن قيصر الروم ، أو كسرى
فارس ، أو فرعون مصر ، أو حاكم مستبد من هؤلاء الذين كانوا يسمعون
عنهم من الأساطير والكتب ، الا أنك حين جهرت بدينك القويم ، وصراطك
المستقيم ، وبيعتك السليم . وايمانك القسوى . وعقيدتك الصحيحة ،
وكشفت بذلك كله عن الحق الواضح ، والسلوك السوى ، والعدل الصراح ،
والمنهج الذي لا التواء فيه . ولا غبار عليه ، تضائل كبرياؤهم . وتهوى
سلطانهم ، وسقطت تيجانهم المكذوبة ، وآمنوا أن دنياهم الرخيصة
لا تساوى قلامة ظفر . ولا تزن عند الله سبحانه وتعالى - الى جانب

ما منحك - جناح بعوضة ، وكأنما هي غبار يتطاير ، أو سراب يذهب ،
أو وهم يخدع ، أو معنى لا ينطلي الا على الأغرار . .

والعجيب الغريب أن تكون - أنت - مع هذه المكانة التي كنت عليها ،
والعظمة التي بوأك الله إياها ، والمجد الذي حصلت عليه ، والجاه الذي
انتهيت اليه ، متواضعا غاية التواضع ، حلينا الى أقصى نهايات الحلم ،
حائزا للفضائل ، جامعا نللكارم ، تبذل وتعطي ، وتسخر وتجد ، وتنقذ
المتورط في الشدائد ، أو المشرف على المهالك ، وربما نسيت اساءة المسيء ،
وهفوة المخطيء ، وجناية الضال ، وبادرة الأحقق فقايلت الشر بالخير ،
والأذى بالصفح ، والذنب بالعمو واللؤم بالكرم ، والتطاول بالاغضاء ،
والطيش بالحلم ، وكم ناديت في كل مناسبة ، وأعلنت في كل صقع .
انك بشر تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ، وأنت من طينة هذا الخلق ،
ومن جنس أولئك الآدميين . وقلت « انكم لا تسعون الناس بأرزاقكم
وأموالكم فسعوهم بأخلاقكم » لتعطيهم الأمثال منك ، والقذوة بك ،
وحاشا لخلقك ألا يكون الا كذلك ، وما عاب أحد لك صنيعا ، أو ازدري
لك سلوكا ، أو انتقد منك خلة ، وأنت المثال الطيب ، والنموذج الكريم ،
والقذوة الصالحة ، والأستاذ المربي والرسول العظيم ، لم تكن جبارا في
الأرض ، ولا عونا على الباطل ، ولا داعيا الى الزور ، ولا قاسيا على الخلق ،
وانما كانت دعوتك بالحسنى ، وهدايتك بالرفق ، واصلاحك بالحزم ،
وعلاجك بالحكمة ، ونصحك باللين ، وتوجيهك بالمنطق ، وسياستك
بالحلم ، ومعاملتك بالأدب ، وحكومتك بالقسطاس ، وغضبك لله ، وغيرتك
للحق ، وانحيازك الى جانب الفضيلة ، وجهادك للإصلاح ، وحياتك للخير ،
وهدفك أن تعلو كلمة الله .

وهكذا تكون العظمة التي لم يفرضها أصحابها بالباطل ، أو يفترضها
أهلها بسلطان السيف ، ووهبة الملك ، وحكم القانون . وسيادة القوة
وسيطرة التسلط ، وعنف النفوذ ، صلى الله عليك وسلم كلما جرى ذكرك
على اللسان ، أو خطر طيفك على خاطر ، أو مر خيالك على ذهن ، أو
ترسم انسان خطاك ، وتلمس مسلم هدايتك . وتتبع نهجك ، فانك سيد
ولد آدم ، وخير خلق الله على الإطلاق ، ولا ينكر عليك ذلك كله جاحد
ولا يشك فيه عاقل ، ولا يتردد في الايمان به حصيف ، ولا يمارى فيه
مكابى . وهذه الدنيا تردد الثناء عليك ، والاعتراف بك . والتعظيم لقدورك .
والتنويه بشأنك ، مرددة قوله جل جلاله « وانك لعلی خلق عظيم » .

محمد

الذى يتتبع القرآن الكريم ، ويتقصى آياته العظمى ، وينعم النظر فيه ينتهى منه الى رصيد ضخم ، وثروة لاحد لها . من الثناء الحلو ، والمديح الطيب ، والتنويه الذى ليس قبله ولا بعده يرسل رسول هذه الانسانية ، وسيد هذا الكون ، حتى لكأنه بلغ قمة الثناء ، وغاية المديح ، ولا مجال وراء ذلك لزيادة فى الثناء والمديح ، وصارت هذه الكلمة وحدها مجردة عما يقتزن بها ، أو يذكر معها ، أو يجيء فى اثرها من الأوصاف والنعوت تشيع فى الجو الذى تحلق فوقه . وتطير فى سمائه ، أو تسبح فى فضائه معنى من السحر . وفيضا من الجلال ، وشيئا من الاكبار والاحترام . لا يمكن لكائن من الناس أن يحدده التحديد الذى يكشف عن حقيقته . فى تلك الموسيقى التى يرسلها ، والأنغام الحلوة التى يبعثها . والبلاغة الأخاذة التى يطلقها . والبهاء العريض الذى يسيطر على الأنحاء والجوانب هنالك فى مكان الحديث . كأنما هو عنوان الجاه والعظمة ، والكبرياء والتعالى . والسمو والرفعة ، والأبهة والجلال ، لا يزاحمه فيه مسلط ، ولا ينازعه جبار ، ولا يشاركه صاحب نفوذ أو سلطان ، ذلك لأن الذى خلق المتكبرين ، وبرأ الجبارين ، أضفى عليه من جلاله ووقاره ما تذوب معه هذه الأوصاف . وتتهاوى عنده تلك النعوت . وتتطامن لديه هذه الكبرياء ، ثم تقصر عن الاحاطة بكماله الكلمات ، وتقف موقف العجز عن التنويه به الألفاظ ، مهما آزرتها البلاغة ، وأيدها المنطق ، أو أسعفها البيان ويكفى أن تمر بخاطر الواجم ، أو تجرى على لسان الواهم ، أو تملأ قلب الواعى ، أو ضمير المتحدث ، أو يقع عليها نظر قارئ فى ثنايا سطور ، أو فى صفحة من كتاب ، حتى يجد أنه تأخذه المهابة من جميع جهاته . وتصيب جسمه القشعريرة التى تصيبه فى حضرة عظيم

من العظماء الذين تفيض من حولهم الخشية ، وتغمر أمكنتهم العظمة ،
وتملأ ساحاتهم المهابة ، وتترفف عليهم أجنحة الوقار والاحترام ، من غير
تكلف ولا رياء ، وانما هي صنع الله ، الذي خلق السماوات والأرض وجعل
الظلمات والنور ، ومن حبته عناية الله ، وأدركته رحمته ، وحفه لطفه ،
وشمله رضاه ، كان حظه موفورا . . . وفي تاريخه صلى الله عليه وسلم
ما يدل على أن تيجان الملوك . وعروش الجبابرة ، وكبرياء من كانت
الدنيا بأيديهم ، والسيوف بأيمانهم ، والسلطان في حوزتهم ، تتساقط
بين يديه ، فلا يجرؤ قوى أن يهدده ، ولا يتطاول عظيم أن ينازله ، ولا يمكن
لشبرير مهما كانت شراسته أن يهز كيانه ، أو يزلزل بنيانه ، أو يشوب
يقينه الذي كان عامرا بربه ، مملوءا بخالقه ، والذي أرسله بالبينات ،
وأيده بالمعجزات ، جعله هو في نفسه خير عنوان لهذه الانسانية في أخلاقه
الكريمة ، وأدبه الجم . وسلوكه القويم ، وخلاله الطيبة ، وذكائه اللماح ،
وعبقريته الفذة . وعقله الكبير ، وقلبه الرحيم ، وعطفه الشامل . وحبه
الخالص ، ورغبته في البر ، وحبده على الناس ، وتقانيه في الاصلاح .
وارتباطه بربه ، وتطلعه الى السماء .

وهكذا لم تبلغ لفظة من ألفاظ الأعلام . ولا اسم دل على معنى ،
ولا كلمة من الكلمات في ضخامة جرسها ، ودوى صوتها ، وحلاوة
لحنها ، ونباهة شأنها ، وشهرة ذيوعتها ، وإيمان الخليفة بها بعد لفظ
الجلالة ، ما بلغته تلك الكلمة التي يتيمن بها المسلم ، ويعتز بها الموحد ،
ويفاخر بها الانسان ، ويشرف بالانتساب اليها كل من تكامل له عقله ،
ونضج فيه وعيه . وصح عنده دينه ، وارتقى به ادراكه ، وسما لديه
شعوره ، وسلم له بصره وذوقه . . . ترددها السنة الملايين في بقاع
الأرض ، أو أنحاء هذا الكون ، وأرجاء هذه الدنيا ، تلذذا بذكرها ، وتيمنا
بلفظها ، وارتياحا لنغمتها . وسرورا بخطورها على البال . ومرورها
بالذهن . . . ولقد عاصرت أحداث التاريخ . وصيحات الدعاة . ونداء
المصلحين . وأصوات الزهاد . فكان منها الشعاع الكاشف ، والضياء
الهادي ، والنور المبين ، والنهار الذي عرفت فيه البشرية مواضع أقدامها
في سبيل الخير ، وطريق الحق ، ودروب السداد والصواب ، والسلامة
والنجاح ، والرشاد والفلاح ، واليمن والبركة ، والحضارة والعلم .
والتقدم والعرفان .

وربما كان أعجب ما يحيط بهذه الكلمة من معاني الاجلال والتقدير ،
والعظمة والاحترام . والسمو . الى ما لا يصل اليه خيال الشعراء ، أن
تحاربها الأحداث فلا تنال منها ، وتنازلها الخطوب فلا تنزل بها . وتطاولها
الأهواء فلا تزداد الا صلابة في الأرض ، وتمكين في الحياة . وتطاولا على

الأيام • وتعاليم في الوجود • وخلودا في التاريخ • ودويا في الآذان •
وبقاء في قم الدهر • ودوراننا على السنة الناس • • • ولا يعطينا من عنوان
هذه الكلمة أن نسترسن بك مع الحوادث ، أو نرجع معك الى ما عساك أن
تكون قبل خفيته من بطون الكتب ، أو سمعته من أفواه المتحدثين
والقصاض ، ولا أن ننتهي الى تاريخ أنت تعرفه حق المعرفة ، وإنما يعطينا
أن نستشف ما تعطينا تلك النفس التي لا يتسنع لها هذا الفضاء
المحبود ، ولا تلك الأرض المبسوطة • ولا هذه السماء المرفوعة • ولا ذلك
الكون القسيح • وقد حام الفلاسفة حولها بحثا ودرسا ، وتجليلا وتعليلًا •
فما وصلوا الى جنى وراء كونها خلاصة هذا الخلق ، وسر هذا الوجود ،
ومعنى الانسانية في هذا الانسان الذي أرسلها الله لتقويمه وتهذيبه ،
وهدايته وإرشاده ، وتكريمه وإجلاله • وتحرره من ذل الأسر ، ورق
العبودية وضراوة الاقطاع ، وكابوس الظلم ، وفوضى النظم والديساتير ، لتكون
له السيادة في الأرض ، والقيادة للدنيا « ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم
في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا
تفضيلا »

ولعل هذه الجوانب التي كانت فيه - صلى الله عليه وسلم - خارقة
للعادة • غير جارية على سنن الناس • هي الباعث على دهش كثير من
المؤلفين الذين كانوا يخلعون عليه ما يتجاوز حدود البشرية • وهو الذي
كان يأكل الطعام ويمشي في الأسواق • معلنا أن له ما لبني آدم من مزايا
وخصائص ، وليس من الانصاف له أن يخرج عن طوره ، أو يتجاوز
حقيقته « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » وخير للذين يكتبون عنه
أن يؤرخوا له من الحوادث ، وأن يجعلوا معينهم في ذلك سيرته مع أصحابه ،
وتواضعه لقومه ، وحبه لأهله ، وحده على الضعفاء • وإشاره لغيره ،
وقضائه على الفساد في الأرض ، فان هذه كلها يمكن أن تكون صدى لهمته
الكبيرة ، وشخصيته الضخمة ، وسيرته العظمى وضميره النقي ، ودخيلته
الطاهرة ، ونحيزته النبيلة ، ورغبته الخالصة من شوائب الفضول والزيف ،
والتمويه والكذب • والرياء والنفاق • • • ومثل هذا اللون لا غبار عليه
في الدراسة والبحث لأنه يجرى على أسلوب علم النفس الانساني في تحليل
السجاي والطباع • والميول والغرائز • وستظل الأجيال والعصور تدرس
جوانب العظمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم - لتأخذ منها نماذج
من الخير ، وشواهد من البر • وملامح من مكارم الأخلاق ، لا تجدها
الأفكار الواعية ، والعقول الناضجة ، الا في الصفحات الناصعة من تاريخه
العظيم •

ولعل الكلمة الجامعة المانعة في تحديد حقيقة هذه الكلمة بين حقائق

الكلمات ، وتمييزها عن غيرها تميزا تنفرد به عن سواها . ما تحكيه السيدة عائشة رضى الله عنها . وقد سئلت عن أخلاقه - صلى الله عليه وسلم - . فقالت كان خلقه القرآن ، ولا يشك المسلم فى أن القرآن احتوى الكمال الانسانى . والأدب الالهى . والخلال الحميدة . ورسم الله سبحانه تعالى به للبشرية الطريق الواضح . والمنهج الصحيح . والسلوك القويم . للسعادة الحقبة التى يمكن أن تصل اليها الانسانية فى هذه الدنيا اذا أخذت به ، وعملت بما فيه . وجعلته دستوراً فى صحتها ونومها ، وطعامها وإقامتها ، وصحتها ومرضاها ، وكل حال تعريضها . وهكذا كان - صلى الله عليه وسلم - المذكرة التفسيرية للقرآن . يطبق دستوراً ، ويحقق فى نفسه قانونه . فلا يخرج عن هديه . ولا ينحرف عن خطوطه ، ولا يتجاوز دوابه التى جعلها المولى جل جلاله معالم للخير والشر . والفضيلة والرديلة . وحسب محمد - صلى الله عليه وسلم - أن اسمه مأخوذ من الحمد الذى هو غاية الإنسان من سعيه ، وخاتمة مطافه فى عمله ، وقصارى جهده اذا أراد أن يعلن شكره لربه ، الذى ترادفت عليه نعمه . وتوالت اليه آلاؤه ، وأحاطت به وسائل رحمته ورضوانه ، اذ لا يجد سبيلاً للاعتراف بهذا الفضل وراء قوله سبحانه « الحمد لله الذى سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين » وليس بعد هذا الشرف الذى وصل اليه من ربه ، والفضل الذى حصل عليه من خالقه ، الذى رفعه فى المنزلة ، وأيده بالمعجزة ، واختاره دون سائر عباده . وجعله سيداً على الناس ، وأرسله رحمة للعالمين ، واصطفاه من ولد آدم عليه السلام . ليكون لسانه الصادق ، وحجته البالغة . .

نسبه الشريف

كان للأسباب عند العرب تقديرها واحترامها ، اذ كانوا لا يجعلون زمامهم في يد لصيق ، ولا يتركون قيادهم لدعى • ولا يعولون في أمورهم على متهم ، ولا يطمثون الى حكم انسان يجهلون نسبه فيهم ، أو مكانته لديهم • وكان هذا النسب عند الرجل منهم بمثابة الرصيد الذي يستعين به على الوصول الى الغاية التي يطمح اليها • أو المنزلة التي يريد الحصول عليها ، ولا يكفي لنباهة الشأن ، أو تبوء المراكز أو المناصب توقد الذهن • وسرعة الخاطر ، وذلاقة اللسان ، وخصوبة البيان ، وسعة العقل • وبعد النظر ، وما يشبه ذلك مما يضاف على الأشخاص سمات العبقريّة ، وأوصاف النبوغ ، ما لم يكن ذلك كله مصحوبا بنسب لا ينكره أحد ، ولا يغنى له انسان ، وهذا هو السر في أن المؤرخين لسيد الخلق يحرصون الحرص كله أن يتتبعوا نسبه الشريف صلى الله عليه وسلم بالتقصي والسرد رجلا رجلا حتى لا يتناول عليه سفيه • أو يجوز حده أحق • فيلحق بالنبي ذاما • أو يدس عليه عيبا ، أو يشوه في تاريخه سيطرا ، ولا يكتفى المرحوم الشيخ الخضرى أن يذكر آباءه - صلى الله عليه وسلم - دون أن يذكر الأمهات اللائي قد انحدر منهن هذا النسب فيقول « هو محمد ابن عبد الله » من زوجه آمنه بنت وهب الزهرية القرشية بن « عبد المطلب » من زوجه فاطمة بنت عمرو المخزومية القرشية وكان عبد المطلب شيخا معظما في قريش يصدر عن رأيه في مشكلاتهم ، ويقدمونه في مهماتهم ابن « هاشم » من زوجه سلمى بنت عمرو النجارية المخزومية بن « عبد مناف » من زوجه عاتكة بنت مرة السلمية بن « قصي » من زوجه حبي بنت حليل الخزاعية ، وكان الى قصي في الجاهلية حجابة البيت ،

وسقاية الحاج ، واطعامه المسمى بالرفادة ، والندوة وهي الشورى لا يتم أمر الا في بيته ، واللواء لا تعقد راية لحرب الا بيده ، ولما أشرف على الموت جعلها في يد أحد أولاده - عبد الدار - ولكن بنو عبد مناف أجمعوا رأيهم على ألا يتركوا بنى عمهم عبد الدار يستأثرون بهذه المفاخر وكاد الأمر يفضى الى القتال ، لولا أن تدارك الأمر عقلاء الفريقين فأعطوا بنى عبد مناف السقاية والرفادة فدامتا فيهم الى أن انتهتا للعباس بن عبد المطلب ثم لبنيه من بعده ، أما الحجابة فبقيت لبنى عبد الدار وأقرها لهم الشرع فهي فيهم الى الآن ، وهم بنو شيبه بن عثمان بن أبى طلحة ابن عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار . وأما اللواء فقد دام فيهم حتى أبطله الاسلام وجعله حقا للخليفة على المسلمين يضعه فيمن يراه صالحا ، وكذلك الندوة ، وقصى هذا ابن « كلاب » زوجه فاطمة بنت سعد وهي يمانية من أزد شنوءة بن « مرة » من زوجه هند بنت سريز من بنى فهد ابن مالك بن « كعب » من زوجه محشية بنت شيبان من بنى فهر أيضا بن « لؤى » من زوجه أم كعب مارية بنت كعب من قضاة بن « غالب » من زوجة أم لؤى عاتكة بنت يخلد من بنى النضر بن كنانة بن « فهر » من زوجه أم غالب ليلي بنت الحارث من هذيل . وفهر هو من قريش في قول الأكثرين . وكانت قريش اثنتي عشرة قبيلة - بنو عبد مناف ، وبنو عبد الدار بن قصي ، وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي ، وبنو زهرة ابن كلاب ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة ، وبنو تيم بن مرة ، وبنو عدى ابن كعب وبنو سهم بن هصيص بن عمرو بن كعب ، وبنو جمح بن هصيص ابن عمرو بن كعب ، وبنو عامر بن لؤى وبنو تيم بن غالب ، وبنو الحارث بن فهر ، وبنو محارب بن فهر . والمقيمون منهم . بمكة يسمون قريش البطاح . والذين بضواحيها قريش الظواهر - بن مالك من زوجه جندلة بنت عامر من جرهم بن « النضر » من زوجه عاتكة بنت عدوان ابن قيس عيلان بن « كنانة » من زوجه برة بنت مر من بنى تميم بن « خزيمة » من زوجه عوانة بنت سعد بن قيس عيلان بن « مدركة » من زوجه سلمى بنت أسلم من قضاة بن « الياس » من زوجه خندف المضروب بها المثل في الشرف والمنعة بن « مضر » من زوجه الرباب بنت جندة بن معد بن « نزار » من زوجه سودة بنت عك بن « معد » من زوجه معانة بنت جوشم من جرهم بن « عدنان » وبعد أن انتهى الى عدنان هذا ذكر أن ذلك هو النسب المتفق عليه ، وأما ما زاد عليه فلم يوضح فيه طريق وان كانوا يجمعون على أنه ينتهى الى اسماعيل عليه السلام . وهو نسب - كما ترى - كله شرف . آباء طاهرون وأمهات طاهرات . لم يزل عليه الصلاة والسلام ينتقل من أصلاب هؤلاء الآباء وأرحام أولئك الأمهات حتى اختاره الله هاديا ومبشرا ونذيرا . من بيوت سيادة ، ويطون

قيادة ، من جهة الرجال والنساء وقد كان - صلى الله عليه وسلم - يدرك تمام الادراك عناية الله به . وفضله عليه . ورفعته له . فيقول « أن الله اصطفى من ولد ابراهيم اسماعيل ، واصطفى من ولد اسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من بنى كنانة قريش ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم » وفي بعض الروايات يجيء منه التعقيب على ذلك بقوله « فانا خيار من خيار » وربما كان فى بعض المناسبات يصرح بأنه لم يكن فى سلسلة نسبه سفاح قط من لدن آدم الى أن ولدت أمه . وهذا معنى من معانى الطهر الذى كان الناس يفاخرون به ، لأن الأنساب على هذا النمط ، والتناسل على هذا النحو ، لم تتوفر لكل انسان ، وإنما كان هنالك اتصالات جنسية أخرى ينكرها الذوق ، وتبأها الاخلاق ، وينفر منها الطبع ، وصيانة نسبه عن هذا الدنس ، وخلوه عن تلك المخازى ، كان بمثابة الارهاص الذى يسبق المعجزة ، وإن كان اختيار الله جل جلاله للأشخاص ليس بلازم أن تكون له مبرراته « وهو القاهر فوق عباده » الا أن ذلك كان أشبه بالتأييد لرسوله ، حتى لا يكون هنالك اعتراض من متعنت ، ولا انكار من جاحد ، ولا شك من متردد ، مادامت هذه المقاييس التى يعتبرونها . أو الموازين التى يزنون أمورهم بها . . . وعلى الرغم من أن المرأة مجرد وعاء فقط لا أكثر ولا أقل ، وأن كثيرا منهم كان مجدهم مقرونا بالأباء لا الأمهات إلا أنهم كانوا فى هجاء بعضهم لبعض يتناولون الأمهات ، ويعيرون بها ، لذلك كان طهارة نسبه - صلى الله عليه وسلم - من الجهتين معا ، قاطعا لالسنتهم أن تتناوله ، ومانعا لهم أن يلزموه واشتدت خسومتهم له ، ومنازلتهم آياه ، وظلت الحرب الضروس بينهم وبينه زمنا طويلا . كادوا له فيها بكل ألوان الكيد ، وطافوا للبحث عما يؤله أو يؤذيه فى كل ناحية ، دون أن يتورعوا عن باطل ، أو يكفوا عن فحش ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يخوضوا فى نسبه لأنهم يعلمون علم اليقين أنهم سيرمون بالافتراء ، ويجابهون بالانكار . ويواجهون بالتكذيب ، ولا يجدون من يقرهم على هذا الادعاء ، أو يؤيدهم فى ذلك التناول .

وإذا كان أقرب الأشخاص الى المرأة فى سلسلة نسبه أباه الذى يقترن به مجده ، وينتهى اليه فخره ، ويناط به حسبه ، فإن عبد الله كان فى سلسلة هذا كواسطة العقد ، التى يزدان بها ، ويتكامل له شكله . وحسن مظهره ، وتنعته كتب التاريخ بأحسن ما تنعت به الرجل الذى تشرئب اليه الأعناق . ولا تمل من النظر اليه العيون ، ولا تنفر منه الطباع . حسن السمات ، مهيب الطلعة ، جم الحياء ، وقور المنظر ، كثير الأدب ، واضح الميل والاتجاه لا غموض فيه . ولا غبار عليه . يحبه من يعرفه ومن لا يعرفه ، ألقى الله عليه معنى من الاجلال والاحترام . لم

يكن للسادة ، ولا للوجوه ، وكان أبوه قد نذر اذا تكامل له من الذكور عشرة أن يذبح أحدهم قربانا للأصنام فلما بلغ عدد أولاده هذا النصاب أجرى القرعة ليخرج له الذبيح منهم وكانت القرعة - فى كل مرة - تصيب عبد الله فلما أخذه ليذبحه للأصنام قامت قيامة قريش ولم يرض أحد أن يكون عبد الله « كبش الفداء » وقاوموا عبد المطلب مقاومة شديدة وأبدوا استعدادهم لأن يذبحوا للآلهة مائة بعير ابقاء على حياته ، وكان هذا تقديرا كريما لعبد الله الذى يحبونه غاية الحب ، ولا يرضون له الا أن يكون زهرة تضوع بينهم بالعر ، وتخطر بينهم بالحسن ، وقد كان لجمال منظره ، وسحر طلعتة ، ترضى كل امرأة أن تكون زوجته ، ومع ذلك لم تستطع أنثى أن تخدعه ، أو أن تملك قلبه ، لعفته وأدبه ، وورعه وحيائه ، ويقولون ان امرأة نصبت له الحبال لتوقعه بها فأبى كل الاباء ، وأنشدوا أبياتا من الشعر يسجل فيها حزمه وعزمه ، وكفه وامتناعه ، وأنه لا يمكن أن يكون أسير شهوته ، ثم أنهى هذه الأبيات بقوله ٠٠٠ « أما الحرام فالملمات دونه » وهكذا كان كل رجل فى سلسلة نسبه - صلى الله عليه وسلم - يملأ قلوب الناس بمهابته وطهارته ، ونظافة صحيفته ، ونقاء سريرته ، وكمال رجولته ، ليس فيهم شيء من الاسفاف ، ولا معنى من الدنس ، ولا بعض من الريية . ولا لون من الفضول ، وانما هم الى جانب كونهم يملأون الأماكن التى يتحيزونها ، تلهج الألسنة بالثناء عليهم والحديث عنهم كأنما جعلهم الله منارات للسايرين بالليل ، يلتمسون منهم الهداية ، وينشدون عندهم الأمثلة ويرون أن فيهم القدوة الطيبة لنظافة الضمير ، وطهارة العرض . وسلامة القلب ، وعزة النفس ، وحب الخير ، وباء الضيم ، وسمو الروح ، وعدم الإسفاف فى قول أو فعل .

الاعداد الالهى

مهما قيل فى المعجزة الالهية التى يؤيده الله سبحانه وتعالى بها أنبياءه وأوليائه فان الرسول الذى أرسله ربه الى خلقه فى حاجة ماسة الى التعامل مع هؤلاء الناس الذين كانت رسالته فيهم ، ودعوته اليهم ، ولا بد من أن يكون على بصيرة من سياستهم أو السلوك معهم حتى لا يقع فى العنت ، أو يصطلم بما لم يكن فى حسبانهم ، أو يجبر بخاطره ، وهناك لا تسير الأمور على سنن الحياة المألوفة ، أو تخرج عن طوق الداعى واحتماله ، ويتحدث النبى - صلى الله عليه وسلم - الى بعض أصحابه . أنه كان يرعى غنيمات لبعض أهل مكة على أجر يأخذه منه ، ويرد صاحبه عليه كأنما ينكر عليه ذلك ورعى الغنم يا رسول الله فيقول له نعم . وما من نبى قبلى الا رعى الغنم ، ويقول الذين فسرُوا هذا الحديث ان فى رعى الغنم كثيرا من الكياسة فى السلوك ، والسياسة فى الأخلاق ، والاعداد الالهى على الجلد والاحتمال ، والاعضاء والصفح ، والحلم والتسامح . واليقظة والانتباه ، وهى معان يحتاج اليها الراعى ، وتكمل بها قيادة القائد ودعوة الداعى ، وزعامة الزعيم . ويحكى - كذلك - عن حلف الفضول فيقول « لقد شهدت مع عمومته حلفا فى دار عبد الله ابن جدعان ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعيت اليه فى الاسلام لأجبت » وهو حلف تعاهدت فيه قريش وغيرها من أهل مكة على أن يجندوا أنفسهم للحق والعدل والانصاف وكف الأذى عن الناس ولا يشهد أهل مكة وغيرهم منهم الا البر والمعروف ومنع الظلم والوقوف الى جانب المظلوم . . . وكان ذلك فى اثر ثورة طائفة فى داخل مكة بين قريش وقيس كادت تطيح بالأخضر واليابس ، ولما أن تدارك الله الطرفين برحمته وكف كل منهما يده عن إيذاء أخيه وتصالحا رأيا أن يردفا هذا الحلف - بحلف آخر يكون بمثابة ضمان دائم بكف الأذى ، ورفع الظلم ، وانصاف

المقلوب ، وتوفير الأمن والسلام لمن تقله أرض مكة من أهلها أو غير أهلها . ومما لا يشك فيه أن حضوره - صلى الله عليه وسلم - هذه الأتحاف وشبهها من التدريب العملي على الفصل في القضايا ، والحكم في الخصومات . والادلاء بالرأى . والاصلاح بين الناس . وليست مهمة القواد والرواد والمصلحين شيئا وراء ذلك ولعل هذا الاعداد الذي تلقاه - صلى الله عليه وسلم - مبكرا كان من عوامل الارتياح الى حكومته فيما كان يجد من نزاع بين العرب يتولى هو فضه أو الفصل فيه ، كما حدث في الاختلاف الذي كادت ناره تندلع على حمل الحجر الأسود ليوضع في مكانه وكل جماعة كانت تريد أن يكون لها شرف حمله ووضعه ، ثم وضع هو الثوب تحته وقال لهم لتأخذ كل جماعة بطرف من الرداء وبهذا تشنى للكل أن ينال شرف الحمل وأن تهدأ في نفسه حدة غضبه . كل هذا والعرب أنفسهم قد ملوا الصراع الداخلي الذي كان قائما بينهم . والذي كانت ضحاياه تتجدد في كل يوم من سفك للدماء . وتفريق للكلمة ، وتشتييت للشمل ، وطمع للدول التي تتأخم حدودهم ، أن تتملك زمامهم ، وتستولى عليهم ، وتتحكم في مصيرهم . الروم في الشمال ، والفرس في الشرق . والأحباش في الجنوب . وحين تيقظ فيهم هذا الوعي ، وتنبه فيهم ذلك الشعور . وأدركوا في قرارة نفوسهم أنهم بحاجة شديدة الى قائد روي يملك ضمائرهم ، ويسوس أفتدتهم . ويحمل بيده المشاعل التي تنير لهم مواضع أقدامهم ليسيروا على محجة واضحة المعالم ، بينة المسالك ، ظاهرة الهداية ، ليطلبوا الخير ، وينشدوا البر . ويعملوا على أن تكون حياتهم محفوفة بالأمان والاطمئنان . والسعادة واليمن . هنالك كانت أعناقهم تتطلع الى هذا المنقذ الذي يتول زمام السفينة وسط هذه الأمواج . وتلك العواصف . عسى أن تنجو من الغرق ، وأن يكتب الله لهم النجاة من هذه المخن التي أهدقت بهم . وتمكنت منهم ، وتغلغلت في صفوفهم ، فأصابتها بالفرقة والكراهية ، ويقول الدكتور أحمد ابراهيم الشريف « في هذه البيئة العربية الخالصة ، وفي هذه الظروف المواتية ، ومن بين رجال تلك القبيلة التي تعظمها العرب ، ظهر ذلك المصلح الذي كانت تتطلع اليه النفوس ، ففي مكة ومن قريش ظهر محمد بن عبد المطلب بن هاشم نبيا يدعو الى رسالة جديدة جوهرها الاقرار بالالوهية لاله واحد ، هو الله الخالق المبدع الذي تنزه عن الشريك والصاحبة والولد » ولم يكن له كفوا أحدا » وأن الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، والآدميون جميعا أمام الله سواء مهما اختلفت ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم ومراكزهم الاجتماعية ، وهم لذلك يجب أن يتساوا في الحقوق والمعاملات .

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - اذ بعث نبيا كانت له صفاته

الشخصية التي هيأته للاطلاع بدور الزعيم والنبى - فى آن واحد - وإذا قرأنا كتب السيرة القديمة وجدنا هذه المصادر تقدم لهذا الدور بنوع من التفسير لعبقرية الأشخاص ، فهم يوردون أخبارا تدل على اكتسابه أنواعا من الخبرة التي يستفيد بها كل إنسان من تجاربه ، ثم يوردون أخبارا تدل على أن النبى - صلى الله عليه وسلم - نال من العناية الإلهية ، والفضل الربانى ، والعلم اللدنى ، الذى يلقيه الله فى نفس العبد بدون واسطة كثيرا ، وأن هذه النفحات الإلهية أتمت للنبى شخصيته ، وأكملت تجاربه ، ويذكر المؤرخون أنه - صلى الله عليه وسلم - شارك فى الحياة العامة فى مكة منذ طفولته مشاركة كان لها أثر كبير فى حياته ، فقد اشترك فى الحياة السياسية فى حلف الفضول ، وكان هدف هذا الحلف سياسيا لم تألف القبائل المعترزة بعصبيتها ، هذا الهدف هو نصرة المظلوم ، بصرف النظر عن قرابته وقبيلته ومن قبل ذلك كان قد اشترك الى جانب أعمامه من بنى هاشم وقريش فى حرب الفجار فاكسب الى جانب خبرته السياسية خبرة حربية ، ثم انه اشترك فى تنظيم القوافل التي كانت تسوقها قريش للتجارة فى الشام ، فسافر مع عمه وهو صبي ، وسافر فى تجارة الخديجة وهو شاب ، كما مارس التجارة فى مالها بعد أن تزوجها ، واستفاد من ذلك كله خبرة فى المعاملات التجارية ، والعلم بطبيعة الانسان علما يساعده على تقدير قيمة الرجال ، كما اكتسب خبرة بالبلاد وأحوال الناس ، ثم انه كان قد اشتغل برعى الغنم حينما كان صبيا ، فأفاده ذلك التواضع ، وتجهيد العمل أيا كان نوعه ، واشتهر بالأمانة حتى سمي بين الناس - قبل البعث - بالأمين ، فكانت له الى جانب تجاربه أخلاقه المرضية التي تعينه الى الناس قبل أن يعارض آراءهم ، وثمة معنى آخر اشتهر به ، ذلك هو القدرة على الحكم ، وسرعة البديهة فى حسم الأمور ، يشهد بهذا حكمه بين أهل مكة حين جددت قريش بناء الكعبة ، واختلفت بطونها على من ينال شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه من البناء ، فأظهر من سرعة الخاطر ، وقوة البديهة ، ما حسم به الموقف ، وأرضى المتنازعين ، كما كشف هذا الموقف عن قيمته فى الحياة الاجتماعية فى مكة ، اذ ارتضاء أهلها حكما ، ونزلوا على ما قضى به ، وقد كان الى جانب تلك الأمور يتيمنا فقيرا ذا طبيعة دينية على ما يمكن أن يدل عليه اعتزاله للناس واعتكافه بشار حراء مستغرقا فى التفكير والتأمل ، فهو رجل اكتسب صفات على نحو ما يكتسبها الناس جميعا ، وتلقى من الله - جل وعلا - توفيقا يحدث مثلها للناس جميعا ، فالنبى - صلى الله عليه وسلم - بشر ارتفع على ما يرتفع اليه كبار الفلاسفة عن مستوى الناس ، الا أنه كان يرتفع بعقله وقلبه فى آن واحد ، على حين كان يرتفع الفلاسفة بعقولهم لا غير ، ويجدر بنا أن نضيف الى ما يقوله الدكتور الشريف شيئا آخر يشبه أن يكون من قبيل

المعجزة وان كانت المعجزة لا يله أن تقترب بالتحدي - كما يقولون - وليس هينالك تحد ، ذلك ما يرويه هو عن نفسه في بعض الأحاديث فيقول انه وهو يرعى الغنم مع أخيه من الرضاع - ابن حليمة السعدية - استأذنه في أن ينفرد برعى الغنم . والاهتمام بها ، والقيام عليها ، الى أن يذهب هو الى بيت قريب كان فيه عرس ليشارك أهله غببتهم وأفراحهم ، وليمتنع خاطره هوناما ، من الوقت بما عساه أن يكون هناك من الغناء أو المزمار ، وما هو الا أن وصل الى مكان العرس حتى أخذته سنة من النوم جعلته في عالم آخر فلم ينتبه الا في الصباح وقد تفرقت الجموع ، وانفض العرس ، وصار ذلك كله خبرا من الأخبار . . . كذلك يقول انه كان يلهو مع جماعة من الأطفال في سنه - حينئذ - وكانوا يجمعون في حجورهم الطوب والحجارة ويقتضيهم ذلك أن يكشفوا عن سيقانهم فلما أراد أن يجاريهم في ذلك سمع صوتا ينهائهم بالكف عن ذلك ويصرخ في أذنيه ألا يعود الى ذلك أبدا فأشاع ذلك الزجر - بهذا الصوت - في نفسه الهلع والفرع - وكان منه أن لم يعد الى مثل ذلك ولم تحدثه نفسه أن يعود ، وفي هذين الحادثين - على الرغم من حداثة السن - ما يدل على أن الاعداد الالهية كان معه خطوة خطوة منذ ولدته أمه - وقبل أن تلده أمه - وإذا نحن أنعمنا النظر في حياته كلها قلنا انها استمرار على هذا الخط ، وسير على هذا الدرب ، فشق صدره الشريف وهو في كنف حليمة ثم تكرر ذلك ليلة الاسراء والمعراج ، وموت أبيه ، وموت أمه بعد ذلك ، وكل هذه الشدائد التي كان - صلى الله عليه وسلم - يلاقيها ، ليست كلها الا اعدادا ولقد كانت الحادثة الواحدة من سفاهة السفهاء ، وكيد الأعداء وتطاول الحمقى جديرة وحدها أن تحول وجهه ، وتعوق سيره ، وتصده عن المضي الى الغاية ، لو أنه استسلم وألقى سلاحه لكنه كان يعلم أنه الابتلاء الذي تجتازه الأبطال ، ويمر به المصلحون ، ولا يصادف الا أولى العزم من الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام . .

يتيم رعاه الله

هل رأيت ذلك اليتيم وقد كسبت وجهه سحابة من الحزن ، أو غمامة
دكناء من الشعور بالذل أو الانكسار ، كأنما قلبه تقطعت به أسباب الحياة .
وتخلت عنه العناية الالهية والعياذ بالله ، فظل جامدا مكانه يود لو أن
الكون فغر فاه فابتلعه ، أو نفخ في الفضاء فأطارته أعاصيره . وذهبت
به الى حيث لا يعرف أحد موضعه ، ليطمئن على أن الدنيا التي يعيش
فيها قد انتهت ، وأن الأرض التي تقله قد اختفت ، ولا أمل بعد ذلك كله
في نعيم أو نعمة ، ان مرح زملاؤه كما يمرح الأطفال سرورا بالحال ،
وابتهاجا بالعيش ، واحساسا بالسعادة ، أو نشوة بما يتاح لهم من
اللذة ، أو جرى في وجوههم دم الطفولة البريئة ، أو ماء الصبا الرقيق ،
كان هو - مع ذلك كله - كأنه العود الصغير في البستان الذي جف عنه
الماء ، وغاب عنه الغذاء ، وتخلت عنه عناية البستاني ، فسارع اليه
الذبول ، وتجاهلته الحياة ، على الرغم من أنه باق في مكانه يحسبه الناس
متمكنا في الأرض يمتص ماءها وغذاءها وهي تلفظه في الخفاء ،
وتنفصل عنه في صمت ، وتدير ظهرها له في غير ضوضاء ولا جلبة .
لتركه هشيما تذوره الرياح .

ان كنت قد رأيت ذلك اليتيم ففاضت عيناك بالدموع ، وثار قلبك
من الحزن والتهب الدم في عروقك أسفا وأسى ، وملأت الحسرة نفسك .
وبكيت لتلك الروح الانسانية المعذبة ، يتجهم لها الوجود ، ويقسو عليها
المجتمع ، فلا يسمح عبراتها . ويدفع عثراتها ، أو يخفف ويلاتها ، أو
يأخذ بيدها الى سبيل النجاة من المهالك . والبعد عن مضار الأذى
والضرر ، والبعض للدنيا ، والنفور من الحياة ، والكراهية للعيش ، فذاك
هو اليتيم الذي ينظر اليه العالم من حوله نظرة الازدراء والاحتقار ، ويود

لو أنه لم يكن ، لأنه عالة على الأرض ، وزائدة دودية فى جسم البشرية
التي هو فرد منها ..

وإذا كان لنجاح الانسان فى هذا الميدان الصاخب ، والمعترك
المائج ، والقضاء الذى يتصارع فيه على البقاء كل كائن حى ، من الوسائل
والاسباب ما يساعده على الوصول الى ما يريد ، والانتهاى الى ما تصبو
اليه نفسه - مشروعة كانت هذه الاسباب وتلك الوسائل أو غير مشروعة -
فان انكسار القلب باليتيم . وهوان صاحبه على الناس . وانزواءهم عنه ،
ونفورهم منه ، لا يجعل هذا النجاح ذا شأن ، ولا يضىف عليه بهجة
الانتصار ، ولا يلهم صاحبه الارتياح له ، أو السرور به ، أو استقباله
باللذة والاعتباط ، والاطمئنان الى أنه نجاح وكفى ، ذلك لأن الجو القاتم
الذى يملأ ضمير صاحبه غطى على كل معنى يحس به الا معنى الذل والحزن
والآلم والانقباض والمنظار الأسود الذى يرى به الكون والناس
وقد رأينا كثيرا من أولئك الذين فقدوا العائل ، وعدموا الراعى . وفارقهم
من كانوا يرأونهم ، ويجدون عليهم ، أو يمسحون على رؤوسهم ، كان
اليتيم حجر عثرة فى طريقهم ، والعقبة الكأداء فى سبيلهم ، فكيف وقد
كان محمد - صلى الله عليه وسلم - مع اليتيم الذى ابتلاه الله به فقيرا
من المال الذى هو عصب الحياة ، وشرى هذا الوجود . ومع فقره من
المال هكذا ، والشظف الذى كان يقاسيه من الحاجة والحرمان الى حد
المضاضة والآلم . لم يكن المجتمع من حوله مهذبا ، ولا البيئة التى هو
فيها رحيمة ، والشأن فى المجتمعات أو البيئات أن تكون ملاذا للأفراد ،
وظلا ظليلا على الأشخاص الذين يعيشون فى حماها . ولو أنه - صلى
الله عليه وسلم - وجد من حوله حنو الرحيم ، وحذب الانسان ، ورقبة
الآدمى . لكان له من ذلك كله الدواء والعزاء ..

وقد حدث التاريخ أن أباه فارق هذه الحياة بعد حمل أمه به بشهرين
اثنين ، وأن أمه قد لحقت به بعد خمس أو ست سنوات من وضعه ، وأن
أمه لما أرادت أن تجرى به على سنة العرب الذين كانوا يدفعون بأبنائهم
الى المراضع لينشأ الناشئ منهم على الخشونة التى تقتضيهما الرجولة ،
والاباء الذى يقتضيه النبل . والنجابة التى توصى بها حياة الاغتراب عن
الأهل ، لم تجد من ترضى بضمه اليها ، وولبت كل امرأة عنه بوجهها «
بعد أن عرف أن لا أب له من أهل الثراء ، ولا أم له من أرباب الغنى ،
وأن المرأة التى تقبل على نفسها أن تأخذه تنقرب به الى الأوثان ، أو ترمى
بجهدا الذى تبدله فى وجه الشيطان ، ولقمة الحيش لا تشتري بالمعروف ،
والحياة لا تستقيم الا لمن يدفع لها الثمن غالبا من المال . ولولا أن حليلة
صادفها الجسد العاثر ، والقال الغادر ، ما قبلت على نفسها أن تأخذه ،
لتعود الى رجلها بصفقة المغبون . اللهم الا أن تكون قد أردت أن تعود

بشيء وكفى ، لتدفع عنها تهمة الخيبة . وشبهة شؤم الطالع . . . ويروى
ابن اسحق أنها قالت « قدمت مكة في نسوة من بنى سعد بن بكر
نلتمس الرضعاء في سنة شهاب ، على أتان لي ، ومعى صبي لنا ، فقدمنا ،
فو الله ما علمت منا امرأة الا وقد عرض عليها رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - فتأباه اذا قيل انه يتيم من الأب ، وذلك أنا كنا انما نرجو
المعروف من أب الصبي . . . فكنا نقول يتيم ، ما عسى أن تصنع أمه وحده ،
فكنا نكرهه لذلك ، فوالله ما بقي من صواحبى امرأة الا أخذت رضيعا
غيرى - فاني لم آخذ - فلما لم أجده سواه قلت لزوجى « الحارث بن
عبد العزى » والله انى لاكره أن أرجع من بين صواحبى ليس معى
رضيع . . . لأطلقن الى ذلك اليتيم فلاخذنه ، قال لا عليك أن تفعل عسى
الله أن يجعل لنا فيه بركة فذهبت ثم أخذته بما هو عليه الى أن جئت
رحلى ، فأقبل عليه تدياى بما شاء الله من لبن ، فشرب حتى روى ،
وشرب أخوه حتى روى . فودع النساء بعضهن بعضا . . . وودعت أنا أم
النبي ، ثم ركبنا أتانى وأخذت محمدا بين يدى . ثم مشيت أتانى حتى
سبقت دواب الذين كانوا معى . وصاروا يتعجبون منى ، وقدمنا منازل
بنى سعد ولا أعلم أرضا من أرض الله أجذب منها . فكانت غنمى تروح
على حين قدمنا به شباعا فنحلب ونشرب » وتروى كتب السير أن محمدا
- صلى الله عليه وسلم - ظل عند حليلة حتى فطمته عن ثديها بعد
حولين كاملين . وكان قد مثنى وحده ، وأكل وحده ، ونام وحده ، وليس
ثيابه وحده ، وكان المفروض فى أمثاله من الأطفال أن يلحقوا بذويهم
من الرجال والنساء ليجدوا هنالك من رعاية الوالد ، وحنان الأم ،
ما لا يمكن بحال من الأحوال أن يجدوه الا منهما ، وفى جوارهما ، وتلفت
الطفل ليجد رعاية الوالد . وحنان الأم فلم يجد ، وبقي عند حليلة التي
كانت بدورها قد طلبت من أمته بنت وهب أن يبقى محمد عندها لأن
خيرها قد اقترن به ، وخصب مرعاها قد جاء معه ، ولبن غنمها قد در على
مقدمه ، وما لبثت أن استجابت أمه حتى دعى آخر أن تفكر حليلة فى
أن يكون محمد فى جوار أمه لأنه مهدد اذا بقي عندها بالاغتياى والقتل
وهى لا تحتمل أن ترعى طفلا يطارده أعداؤه ، ويتربص به خصومه . وهى
المستولة عن دمه أمام أهله وذوى قرابته ، وكانت حادثة شق صدره
- صلى الله عليه وسلم - قد حدثت وأثارت رعبه ورعب ابن حليلة الذى
ذهب الى أمه ليقص عليها خبر أخيه القرشى ، ولم يدر بذهنها - ولا ذهن
أحد - أن ذلك هو جبريل ، ولم تقرأ فى قواميس علمها شيئا اسمه
جبريل ، وانما امتلأت يقينا أن محمدا يتهده الخطر ولا بد أن تبرأ ذمتها
منه ، لذلك لم تجد مخلصا وراء رده الى أمه - ثانيا - والتحلل من تلك
الأمانة الثقيلة التى تتحملها ، ولم يمض الطفل بعد رجوعه لأمه فى هذا
الوقت أكثر من عامين حتى وجد أن أمه قد اختارت جوارا آخر غير جواره

وجوار الناس أجمعين . ولم يكن هنالك بد من أن يتراعى الى أحضان الشيخ « عبد المطلب » وكان هذا الطفل عند جده أحب الناس اليه ، يرأه ويعطف عليه ، ويوفر له أسباب الراحة ، وألوان السعادة ، ويملا قلبه دائما بالرضا والارتياح ، ومع ذلك كله كان اليتيم الفقير يشعر بشيء من الفراغ الواسع الذي تخلف عن فقده أبيه وأمه . . . وعلى الرغم من الانكسار الذي كان يلزمه ، والهوان الذي كان يلاحقه ، ما ذلت نفسه ، ولا انخفضت رأسه ، بل كان دائما أبدا يشعر أنه يعيش في غير دنيا الناس . ويحيا في عالم غير هذا العالم الذي لا ترتفع درجات الناس فيه الا بالمادة الحقيرة . والحطام الفاني ، والعرض الزائل ، وما رآه راء من زملائه وأقرانه الا حملة ترفعه عن السفاسف ، وبعده عن الدنيا أن يحترمه احتراماً يليق بأمثاله الذين يتعشقون المجد ، ويطلبون السؤدد . . . وسبب ذلك يرجع الى أنه لم يتدنس بدنس الجاهلية ، أو ينزل الى مستوى السوق والدمياء . وكأنما كان ينظر من عالم الغيب الى الموقف الذي سيقفه من مقاومة الخرافات ، وتلك الحرب الشعواء التي سيعلنها صارخة على هذه الخزعبلات ، فكان سلوكه القويم الذي يسلكه ، ومعاملته الحسنى التي يعامل بها من كان حوله على طراز من الأدب ، ومثال من الكمال ، ونمط من الذوق ، يعتبرونه فيما بينهم عنواناً صحيحاً للرقى الأخلاقى ، والنضوج الانساني . . . وفي هذا كله دليل على حفظ الله له ، واهتمامه به ، ورعايته آياه ، وكونه كان يجعل منه المثال الذي يقاس عليه . والنموذج الذي تنشده الحياة . . . أما تلك العظمة التي كانت تسيطر عليه . وتملاً جوانحه ، وتزحم قلبه ، وتفيض بها وجداناته وعواطفه فانها تظهر في كثير من طباعه التي كانت تحكمه والتي كانت لا تردده موارد الصغار ولا تنزل به الى حدود الاسفاف ، أو تنحدر به الى مستوى الدمياء ، ولقد كان لجده عبد المطلب بساط لا يجلس عليه غيره ، ولا يقتعده أحد سواه ، وهو تقليد متوارث عند العرب أخذوه عن الآباء والأجداد ، فان تعدى انسان على ذلك التقليد اعتبروه متمرداً على الأوضاع ، خارجاً على الحدود ، وقد حكوا أن محمداً في طفولته تعدى على هذا التقليد . وتمرد على هذه السنة ، وتجاوز تلك العادة ، وسارع الى مكان جده ليسبقه اليه . فلما هم بعض الحاضرين من أعمامه وذوى قرابته أن يردده عنه ، أو يوبخه على صنيعه . قال له عبد المطلب دعه فان دم السيادة يجرى في عروقه ، وروح المجد تملأ نفسه ، والنزوع للرفعة ، والطموح للسؤدد ، هو الذي يشغل باله . ويضنى فؤاده . وكان الذي جعل عبد المطلب يؤمن بذلك . ويعتقده اعتقاداً جارفاً أنه رأى في منامه رؤيا فسرها له العارفون بتأويل الأحلام أن رجلاً من صلبه تدين له العرب بالطاعة . وتعترف له بالفضل . وتدعن له بالسيادة ، وتؤمن له بالسلطان ، وتلهوى دعوته لهم في أرجاء الدنيا . . . وكذلك كان يفعل

الطفل مع عمه أبى طالب بعد أن انتقلت إليه كفالته إياه ، ورعايته له .
وهى روح ان دلت على شىء فهي انما تدل على أن تلك الروح العالية كانت
تسبق الزمن . وتستعد للمستقبل ، وترعاها عناية خفية عن أنظار
البيئة التى يعيش فيها . . وربما خطر بذهن سائل أن يسأل لماذا اختارت
الإرادة الالهية هذا المخلوق الذى طحنته الحوادث وعركته الخطوب ،
ولوعته صروف الزمن ، ونشأ تلك النشأة المليئة بالأهوال . المترجة
بالشدائد ، وهو سؤال يعرف الجواب عليه من يدرك أن الله سبحانه
وتعالى لم يشأ الا أن يكون رسوله الذى يرسل به الى الناس كافة قد
شرب من الكأس المترعة لتنطبع نفسه على الرحمة ، وتمتزج جوارحه
بالعطف ، وتآلف طباعه الحذب على الضعفاء والمساكين ، ويتسع صدره
لما عسى أن يصادفه بعد ذلك من محن ، أو يلاقيه من عنت ، أو يواجهه
من مصاعب ومتاعب ، وهكذا ينشأ الأبطال والعظماء ، ويحيا حياة القسوة
من يريد أن تنقاد له الحوادث ، وتخضع له الظروف ، وتذل له الأيام
والليالي . . وتدلنا تلك الأساليب الربانية على أن الأب والأم جميعا لم
تكن الا أسبابا ظاهرية للعناية والاهتمام ، والرعاية والتربية ، والتهذيب
والتقويم ، والصيانة والحفظ ، والارشاد والنصح . ولو شاء لجعل أسبابا
غيرها تؤدي عملها ، وتقوم بدورها ، وتنهض بوظائفها ، تباركت آلاؤه ،
وجللت نعمه ، وعظمت قدرته ، لا نحصى ثناءنا عليه ، ولا نعلم أسرار
فى خلقه ، ولا نفقه سياسته فى ملكه ، ولا نعقل من قضائه وقدره الا
ما يكشفه لنا النظر الكليل ، والتفكير الواهى ، وننتهى بعد هذا المطاف
الى الايمان العميق . والتسليم المطلق ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ،
وسيئات أعمالنا ، ونقف أمام عناية الله بأنبيائه وأوليائه موقف الذى
يسبح بحمده ، ويؤمن به ، ولا يستعظم على قدرته التى تخرق العادات ،
وتتجاوز السدود والحدود ، أن تفعل ما يذهل الناس ، ويخرج عن طوقهم ،
ويتأبى على استطاعتهم . لتكون له وحده الألوهية التى لا شك فيها ،
والربوبية التى ينفرد بها . والجلالة التى لا يزاحمها شريك عليها « وعنده
مفاتيح الغيب لا يعلمها الا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من
ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس الا فى
كتاب مبين » وهكذا تكون عقيدة المسلم فى ربه الذى خلقه من طين ،
وجعل له السيادة فى الأرض .

عصاميته

كان من أدبه - صلى الله عليه وسلم - الذى كان يؤدب به أمته .
وهديه الذى كان يهدي به الناس . ألا يكون الرجل عالمة على غيره ، يعيش
على حسابه ، أو يرتبط مصيره به ، أو يقعد ليعمل له سواء ، واليد
العليا خير من اليد السفلى ، وكان مما يتحدث به عن الأنبياء ، والمرسلين
الذين تقدموه فى الدعوة ، وسبقوه بالرسالة ، أنهم كانوا يحصلون
أرزاقهم بأنفسهم ، ويأكلون من عمل أيديهم . حتى لا يطوقهم أحد
بفضل ، أو يدينهم بمعروف ، أو يقتضيهم ما أسدى إليهم من بر وخير .
ولهذا لم يعرف عنه منذ كان طفلاً ولا شاباً ولا رجلاً أنه استراح لصدقة
تدفع إليه ، أو معونة يبذلها له باذل ، وروى أنه كان يأخذ الهدية دون
الصدقة . . وظل حياته كلها قبل البعثة يعمل بالأجر فى رعى الغنم
تارة ، وفى التجارة تارة أخرى ، ليأكل من كده ، ويرزق من جده .
فلا يكون عنواناً سيئاً للمتواكلين الذين يشيعون الكسل والقعود عن
طلب الرزق ، وإصابة المجتمعات بأمراض الاسترخاء . . ويقول الشيخ
الخصرى « ولا بلغ مبلغاً يمكنه معه أن يعمل عملاً كان يرعى الغنم مع
أخوته من الرضاغ فى البادية ، وكذلك لما رجع إلى مكة كان يرعاها لأهلها
على قراريط - كما ذكر البخارى فى صحيحه - ووجود الأنبياء فى حال
التجرد عن الدنيا ومشاغلتها أمر لا بد منه لأنهم لو وجدوا أغنياء لألهتهم
الدنيا وشغلوا بها عن السعادة الأبدية - التى نصبهم الله جل جلاله
لها - ولذلك نرى جميع الشرائع الإلهية متفقة على استحسان الزهد
فيها ، والتباعد عنها ، وحال الأنبياء السالفين أعظم شاهد على ذلك ،
فقد كان عيسى عليه السلام أزهد الناس فى الدنيا ، وكذلك كان موسى
وابراهيم ، وكانت حالهم فى صغرهم ليست ذات سعة بل كلهم سواء

وتلك حكمة بالغة أظهرها الله على أنبيائه ليكونوا نموذجا فى الامتناع عن التكالب على الدنيا والتهافت عليها .

ولما شب - صلى الله عليه وسلم - كان يتاجر وكان شريكه السائب ابن أبى السائب ، وذهب بالتجارة لخديجة رضى الله عنها - الى الشام على جعل يأخذه ، ولما شرفت بزواجه وكانت ذات يسار عمل فى مالها وكان يأكل من نتيجة عمله . . . وكان وهو فى كفالة عمه أبى طالب بعد أن أحس من نفسه بالقدره على مزاوله البيع والشراء - فى التاسعة من عمره - يتعلق به ، ويلج عليه ، ليأخذه معه الى الشام وهو ذاهب اليها للتجارة ، وكان عمه يستقبل منه تلك الرغبة بالارتياح ، ويقابلها بالقبول ، ويأخذها منه قضية مسلمة ، وبخاصة بعد أن أحس منه أنه إنما يفعل ذلك فرارا من التواكل . وهربا من أن ينبت لحمه من احسان غيره اليه ، أو تفضيله عليه وهو الأمر الذى يتنافى مع الاباء العربى . والكرامة الانسانية . . . وأول مرة تعلق به هذا التعلق كانت تلك التى استقبله فيها « بحيرا الراهب » وحذره من اليهود . وأفهمه أنهم يطلبون دمه ان ظفروا به ، لأن فى كتبهم نعتة . وفى شريعتهم تحذيره مصرهم الذى يترقبهم على يديه . وهم لهذا يجدون فى قتله ليقطعوا عليه الرسالة . ويخلصوا أنفسهم من شر يدبر لهم . وكأنما كانوا يكررون مأساة فرعون مع أطفال مصر حتى لا تتحقق نبوءة الكهنة الذين أخبروه بزوال ملكه على يد غلام يولد فى هذا الوادى . وحينئذ أمر بقتل كل مولود ذكر ، وإن كان ذلك كله لم يحل دون قضاء الله وقدره . فقد زال ملكه على يد موسى الذى تربى فى ملكه بعنايته واهتمامه . ورعايته وصونه واجلاله واحترامه ، وحده وعطفه .

ولم يزل - صلى الله عليه وسلم - على هذا الخلق . يعمل لأصحاب رؤوس الأموال بين مكة والشام . وهو فى هذه الآونة الرجل العظيم ، والانسان الكريم ، يتسابقون الى طلبه ، ويتنافسون فى وده ، ويزاحم بعضهم بعضا على الدنو منه ، والارتباط به ، لأن الأمانة التى تحلى بها . والصدق الذى غلب عليه . والخبرة التى اكتسبها ، والبصر الذى كان له . والخلال الطيبة التى برزت فيه . كانت العامل الأول فى اعجابهم به ، واكبارهم له ، وحديثهم عنه ، فجعلوا يعتبرون الظفر به مغنما عظيما . والسيدة خديجة لم تكن من دهماء الناس . ولا عامة الشعب ، لأنها من أشرف قريش ، وأغنياء العرب . وكثير من وجوه مكة كان يتمنى أن يطلب يدها ، ويخطب ودها ، وكانت هى تقابل ذلك بالاباء ، وتدفعه بالامتناع والصلف . والتعالى والكبرياء ، لأنها لا ترى أحدا من هؤلاء جميعا يكافئ فضلها ونبلها ومجدها وطهاره عرضها . . . الا أنها لم تملك أمام ذلك الخلق العظيم والأدب الجم ، والرأى السديد ، والفكر

الواعى ، والعقل الكبير ، والقلب النقي ، والأمانة النادرة ، والرجولة التامة ، والكياسة الحازمة ، الا أن تعرض نفسها عليه لأنها - مع إعجابها به ، وحبها له - لم تجد له مثيلا بين ذويها وعشيرتها ، وليس هذا كله لما بينها وبينه من فارق السن - اذ كانت فى الأربعين وهو فى الخامسة والعشرين - ولكن لهذه المعاني من النبيل ، والسجايا العظيمة من الأخلاق . على أنه - صلى الله عليه وسلم - لم يعرف عنه أنه وقد أسلمت له خديجة زمامها . وملكته قيادها ، وجعلت فى يده هذا المال ، أنه كان مستغلا لنفوذه ، أو مقتصبا لحق لا يملكه ، بل كانت يده دائما أبدا فى هذا المال بين الأمان ، ونفوذه نفوذ الوكيل ، وتصرفه تصرف العامل ، فلم يظهر عليه بذخ ولم يبد منه سرف ، ولم يخطر يوما ما فى شكل الأعيان والوجوه ، وقد أرسله الله رسولا الى هذه البشرية ، وفتحت له الدنيا ، فلم يخدمه منها زخرف ، ولم يقتنه جاه ، ولم يطغه سلطان ، وهذه عائشة رضى الله عنها تحكى لنا هذا الخلق ، وتسجل هذا الطبع ، وتصف لنا فيه ذات الزهد ، اذ تقول « ما شبع آل محمد - صلى الله عليه وسلم - منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعا حتى قبض » .

ولعلك بعد هذا السرد الذى عرضناه عليك من ألوان حياته قبل أن يبعث الله به رسولا الى الناس تدرك أنه كان يأبى كل الإباء أن يكون كلا على أحد ، أو عالة على انسان ، وتلك هى التى يسميها علماء الأخلاق « العصامية » ويصفون بها أولئك الأفاضل ممن كانوا لا يطأطئون رؤوسهم ، ولا يذلون نفوسهم ، لأنهم لا يمدون أيديهم ، ولا يعيشون تحت رحمة غيرهم ، يأكلون من فضلات طعامهم . أو فتات موائدهم . . . وكانما كانت ارادته سبحانه أن ينشأ يتيما فقيرا لتكون هذه العصامية أبرز خلاله ، وأوضح صفاته ، وأميز خصائصه ، وليكون ذلك امتحانا لرجولته ، وتربية له . واعدادا لهذا المستقبل الحافل الذى كان ينتظره . والمهمة العظمى التى كانت تترقبه والذى يقرأ تاريخه الرائع ، ومواقفه الخالدة ، وثباته العجيب ، وبطولته الفذة ، وجهاده الذى دوخ الكفر ، وهزم الشرك ، ونكس راية الباطل ، وجعل خصومه يرمون بسلاحهم فى الأرض ، يؤمن أن ذلك كله لم يكن الا لانسان علمته التجارب ، وربته الحوادث ، وامتحنته الخطوب ، وعركته الشدائد ، وتعاهدته الأيام ، والليالى ، وهكذا كان العصاميون الذين تحدث عنهم التاريخ . ومجدتهم الأجيال ، وأحنت الرؤوس لهم الأوطان والشعوب

وفى جزيرة العرب كانت موارد الرزق جافة ، وأبواب الكسب جامدة ، وسبل العيش محدودة ، وطرق السعى لتحصيل الأقوات لا تتجاوز رعى الغنم أو الإبل ، وشيئا قليلا من الزراعة فى بعض الجهات ، وكان ذلك من البواعث للمتعطلين هنالك أن يحترفوا قطع الطرق ، والسطو على

القبائل ، واغتصاب الأموال ، ونهب المتاع . ولهذا ظهر الشطار ، وكثرت
 اللصوصية . وانتهاج الأقوياء ما بأيدي الضعفاء ، وكان آخر الروايات
 التمثيلية على خشبة المسرح هنالك ما كان يعرف عنهم باسم الصعلكة وهي
 حياة تقوم على البطالة من العمل والخلو من الحرفة ، والقيود عن السعي
 على المعاش ، والاكتفاء من ذلك كله ، أو الاستعاضة منه ، والاستغناء
 عنه ، بقطع الطريق على المارة ، وأخذ ما كان في أيدي الناس . اعتمادا
 على قوة العضلات . وحمل السلاح ، وإشاعة الذعر والخوف ، وكان
 على هذه الشاكلة الشنفري صاحب « لامية العرب » وعروة بن الورد
 والسليك بن السلعة وغيرهم ممن كانوا يحملون في قومهم وذويهم هذا
 اللقب « الصعليك » . . ولم يكن - صلى الله عليه وسلم - يبغض أحدا
 مثل بغضه لهم لأنهم عنوان الخمول ، وصورة مزرية للبطالة ، ولون كريمة
 من ألوان القعود عن طلب الرزق ، وعلى الرغم من كون دينه يحث على
 الصدقة ، ويأمر بالبذل ، ويطلب الإحسان إلى الفقراء والمساكين ، كان
 يرى أن هذه أوساخ يجب أن يتعفف عنها المسلم ، ويترفع عن أخذها
 المؤمن . ويفر منها كل ذي همة عالية ، ونفس حرة كريمة ، وخير للرجل
 أن يأخذ حبله إلى الجبل ليحتطب فيبيع حتى لا يسأل الناس أعطوه أم
 منعه ويناديه ألا يكون طلبه إلا من الله . ولا افتقاره إلا إلى الله ،
 ولا اعتماده إلا على الله . وألا يكون ركوعه وسجوده وقيامه وعبادته
 موجهة إلا لخالق السماوات والأرض ، وهذه كلها تحتم على المسلم أن
 يكون كريما على نفسه وعلى الناس . فلا يمتحن آدميته بسؤال
 ولا يستذلها بحاجة ، ولا يهينها بطلب ، ولا ينزل بها بضاعة ،
 ولا يبتذلها بشره أو حرص ، ويقول - صلى الله عليه وسلم - ما ملأ ابن
 آدم وعاء شرا من بطنه ليرسم للناس الحياة الكريمة التي لا تكون حاجة
 البطن فيها عنوانا على الخضوع والذل ، والصغار والهوان ، لأن ذلك
 يتنافى مع الآدمية العزيزة . .

اعتكافه

في كتب السيرة شبه اجماع على أنه صلى الله عليه وسلم - . كان قبل أن ينزل عليه جبريل بالوحي من عند الله ، ميالا الى الخلوة . مجبا للعزلة ، عيوفا لتلك المجتمعات الصاخبة ، والمجالس العامة ، والأندية التي ينتابها القول والفعل في شئون الناس . وسياسة الأفراد . يميل بطبعه الى العزلة . والانقطاع عن مزدهم الحينة ، لا يحب الصخب ، ولا يآلف الضوضاء ، ولا يستريح الى الأمكنة التي تصطك فيها الأقدام . وتتلاقى فيها المناكب ، ويشتهب فيها الحابل بالنابل ، ويعلو الضجيج والعجيج . أو يكثر الهذر واللغو ، فلما تكامل وعيه ، وتناهى تفكيره ، ونضج عقله . وقوى شعوره بالكون وخالقه ، والحياة ونظامها . والعالم وما فيه من حيوان وانسان ، وكان قد عرف شيئا عن ملة أبيه ابراهيم عليه السلام فصارت العبادة همه ، والانقطاع الى الله جل جلاله شغله . والنقمة على الأوضاع الفاسدة ، والخلال النازلة ، والطباع المسفة ، والعادات المرذولة . والروابط المفككة ، والقلوب المريضة ، والعقائد المدخولة ، والخرافات المتحكمة ، والمبادئ الموضوعة ، والعقول الضالة ، والحقوق المضنيعة ، والحريات الموقودة . والدماء المراقبة ، وغطيط البشرية في نومها دون أن يشور أحد على تلك التقاليد البالية . والوثنية الضاربة ، والكرامة المهذرة ، والانسانية المعذبة ، والأدمية التي تفتقد الحق . وتنشد الانصاف ، هي كل ما يقلق باله . ويتعب خاطره ، ويحمله على التفرغ للعبادة . والاعتزال للناس . والاعتكاف في غار حراء الليالي ذوات العدد . بعيدا عن البشرية . نائيا عن العمران . غائبا عن وجوه الخلق ، منقطعا عن ضراخ العيش ، وزحام الطعام ، وتلاقى الأهواء . وشتره الحياة ، وتفاق القلوب . وحقد النفوس . وكأنما كان هذا الاعتكاف عن الناس ، والفرار من العالم . والاتصال بالخالق ، والخلوة في الغار .

والهرب من الكون . والسخط على هذه الأوضاع ، لا للانسلاخ منها ،
والبعد عنها والانقطاع كل الانقطاع عن أسبابها ، وعدم الوقوف ببابها ،
وانما كان للاندماج فيها . والاقتراب منها . والاحساس بها ، والالم لها .
والرجاء الحار أن يهيئ الله لها من أمرها رشدا . وينقذها من تلك الضلالة
التي كانت ممعنة فيها ، جارية عليها ، مرتبطة بها ، لا تفارقها أو تتخلى
عنها . . .

أما حقيقة هذه الشريعة التي كان يتعبد بها ، أو يعبد الله سبحانه
وتعالى على نسقها . فمما يدخل في باب الجدس والتخمين ، والظن
والاجتهاد ، لأننا لم نعرف عنها أكثر من كونها شريعة - ككل شرائع
السماء - تضمنت هديا واعيا . ونصحا ساميا ، وإرشادا قويا ، وأن
القرآن الكريم وصفها بكونها « دينا قيما ملة ابراهيم حنيفا » . . . واليهود
كانوا يزعمون أنها صورة مكرورة للتوراة ، والنصارى - كذلك - كانوا
يزعمون مثل هذا الزعم ولقد بالغ هؤلاء ، وهؤلاء في أن ابراهيم عليه
السلام - كان على تلك الملة التي كانوا عليها ، ترويجا لدينهم الذي
مسخوه بالعبث ، وغيروه بالهوى . وبدلوه بالبهتان ، وحرفوه بالباطل ،
وألحقوا به ما ليس منه ، وأدخلوا فيه ما هو أجنبي عنه ، وفصح كتاب
الله سبحانه وتعالى دعواهم المزورة واقتراءاتهم الكاذبة ، حيث يقول
« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان
من المشركين » وشريعة السماء على كل حال تهذيب وتأديب ، وهداية
وتقويم . ونور وضياء ، وإرشاد وإصلاح . ولا يمكن الا أن تكون علاجا
للشرية ، ونهوضا بهذه الانسانية ، وفي هذا الظلام الدامس الذي كان
يخيم على الأفئدة ويطمس معالم الحق . كان - صلى الله عليه وسلم -
ميلا الى البعد عن الناس . واعتزال مجالسهم . مجبا للوحدة والانفراد ،
رجاء أن يكون ذلك الصفاء . وتلك الروحانية ، وسيلته الى ربه الذي
امتأ قلبه به ، ويقينه منه . وأمله فيه . وحب له ، وتطلعه اليه . وهناك
تحول هربه من الناس ، وفراره من صخب الحياة ، وبعده عن ضوضاء
الدهماء ، واعتزاله لأمكنة اللهو . ومجالس الزور والبهتان ، الى تفكير
عميق في انقاذ الانسانية الحيرى ، والبشرية الضالة ، والأدمية المعذبة .
فتطلع ببصره الى السماء أملا في قبس ترسله ، أو نور تبعث به أو ضياء
يكشف له معالم الطريق . وساقته قدماء الى مكان عال يجعله مع الكواكب
في ارتفاعها . والنجوم في أبراجها . فكان في غار حراء يغذى فكره
بالعزلة ، وينمى حسه بالخلوة ويرقق شعوره بالاعتكاف ، وطابت له
هذه الإقامة . ولذت له تلك العبادة ، ورأى أن هذا العالم الروحي الذي
تفتح له قلبه . وانشرح به صدره . وطاف فيه خياله . وخلق فيه
شعوره ، لم تكن لتعده لهذة ، أو تساويه حياة . ولذلك صار كلما فرغ

زاده ذهب الى أهله ليتزود مرة أخرى وأخرى : ليواصل المسيرة . ويداوم
العبادة ، وكانت هذه الفترة من عمر محمد - صلى الله عليه وسلم - الى
جانب كونها رصيذا ضخما امتلا به يقينه . وأقبلت به نفسه وجوارحه
على الله جل وعلا . مما ساعده على أن يهزأ بالحوادث ، ويستهن بالأيام
والليالي ، وينفض يديه من الدنيا ، ويرتبط بالملأ الأعلى كل الارتباط في
هواجسه وأحلامه . ونومه وصحوه ، وحركته وسيكونه ، وصحته ومرضه :
ثم كانت له بعد ذلك كله متعة لا تعد لها متعة ، ولذلك يقول في بعض
أحاديثه « جعلت قرّة عيني في الصلاة » لأنها صلة بينه وبينه - سبحانه -
حيث يناجيه ويناغيه . ويبته لواعجه وأشواقه ، ويطلب منه الرضوان ،
ويعلن اليه الطاعة . ولم تكن تلك الصلاة وحدها هي تلك الفرصة التي
يرضى المولى فيها خواطره . ويطمئن قواده ، ويحقق أمانيه . من ذلك
الارتباط الذي ينشده . والتعلق الذي يبغيه . بل شرع له الصوم الذي
هو امساك عن الأكل والشرب والجماع واللذة ، وفيه يتجلى كبح النفس
بالطاعة ، وكفها بالجرمان ، وتهذيبها بالرياضة . وتأديبها بالجوع ،
وهو - كما ترى - سمو بالروح ، وترفع عن المادة . وبعد عن الخلق .
واتصال بالخالق ، لا يقل عن ذلك الذي يحيى عن طريق الخلوة . وينشأ
عن الانقطاع عن الناس ، والتجرد من الدنيا ، والزهد فيها ، والفرار
منها . . وكانت الشريعة في جملتها عناية بالروح . وتطهيرا للقلب ،
وتزكية للنفس . وتربية ، للجوارح ، وكانت النية في العبادات وهي
معنى وجداني بحث شرطاً في صحتها . وعاملاً مهماً في قبولها ، يحاسب
الله الناس عليها يوم القيامة كما يحاسب على الأعمال سواء بسواء .
فمن كانت هجرته الى الله ورسوله فهجرته الى الله ورسوله ومن كانت
هجرته الى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه . .
بل ان في هذه الشريعة كثيراً من المعاني التي ترضى نزوعه - صلى الله عليه
وسلم - الى الخلوة ، وميله الى التأمل في صنع الله الذي أتقن كل شيء
خلقه ، وحناً صارخاً على النظر في النجوم والكواكب ، والصحارى
والبحار ، والليل والنهار ، والاعتبار باختلاف الألوان والألسنة ، والحفظ
والأرزاق . والصحة والمرض . والشقاوة والسعادة ، وهي سياحة طويلة
في ملكوته ، وسفر مترام في كونه ، ونظر دقيق في مدى قدرته ليكون
 وراء ذلك كله التسليم له . والايمان به ، والاتجاه اليه ، والخوف منه .
وقصر العبادة عليه وحده لا شريك له « له الملك وله الحمد » .

ومن شعائر هذا الدين الاعتكاف في المساجد ، وفي السبعة الذين
يظلمهم الله بظله يوم القيامة حيث لا ظل الا ظله - كما جاء في حديث
رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رجل تعلق قلبه بالمساجد لا يغادرها
الا على نية العودة اليها . وكان صلى الله عليه وسلم اذا دخل في العشر

الأواخر من رمضان شمر عن ساقية ، واعتزل أهله ، واعتكف في المساجد .
والاعتكاف وحده انقطاع الى الله وتفرغ له ، وارتباط به ، وتفكير فيه .
وهجرة اليه ، وذلك من غير شك لا يختص بمكان دون آخر لكنه قد
صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن المساجد بيوت الله . وقد
جرت العادة أن الضيف اذا حل بمنزل الانسان . وقصده في بيته ،
وجبت له الكرامة ، وكان موضعاً للحفاوة ، وأهلاً للجلال والاحترام .

ومن غريب المصادفات أن يكون المعتكف الأول للرسول - صلى
عليه وسلم - ، الذي كان يتردد عليه ، أو يفزع اليه ، كلما حزبه أمر .
أو نزل به هم - غار حراء - هو المنطلق الذي ابتدأت منه الرسالة ،
وجاء اليه فيه الملك . وكانت منه الخطوة الأولى الى الزحف المقدس الذي
أراد الله به خلاص هذه البشرية من الفوضى . وانقاذها من الضلال .
والأخذ بيدها الى حيث تخطو بخطى وثيدة الى حياة أحسن . وعيش
أفضل ، وسلوك أحزم وأكمل . ولقد جاء جبريل الأمين يبلغه اختيار
ربه له . ليتحمل الرسالة . ويؤدي الأمانة . ويكون همزة الوصل بين
الله جل جلاله وبين عباده . وكان ذلك تشريفاً لا يتسامى اليه مخلوق .
ولا يصل اليه أحد ، ولا يبلغه أرباب التيجان ، ولا أصحاب السلطان ،
وقد تناولته أحقاد الحاقدين ، وحسد الحاسدين ، وظلوا يكيدون له
جهداً ما يستطيعون . رجاء أن ينزلوا بقدره ، أو يشوهوا حقيقته ، أو
يثيروا في وجهه الغبار ، ولكن الله الذي رفعه على الناس . وفضله على
العالمين . لم يشأ أن يكون لهم النصر عليه ، أو الغلبة دونه ، وإنما رد
اليهم كيدهم في نحورهم ، وخذلهم أعظم خذلان ، ونصر عبده ، وأعز
جنده ، وهزم الأحزاب وحده ، وكذلك كانت سنة الله « وإن جندنا لهم
الغالبون » وصدق الله رسوله الرؤيا بالحق .

قصة القراءة

جاء في البخارى وغيره من الكتب الصحاح عن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت « أول ما بدئ به - صلى الله عليه وسلم - من الرضى الرؤيا الصالحة فى النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبيب اليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى أهله ، ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك ، فقال اقرأ ٠٠ قال ما أنا بقارىء ٠ فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ، فقلت ما أنا بقارىء ٠ فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال اقرأ ٠ فقلت ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى ، فقال اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم الخ السورة ٠٠ فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد ٠٠ فقال زملونى زملونى فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة - وأخبرها الخبر - لقد خشيت على نفسى ، فقالت خديجة ، كلا والله لا يخزيك الله أبدا ٠٠٠ انك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق ، ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ قد تنصر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ٠ فيكتب من الانجيل ما شاء الله له أن يكتب ، وكان شيخا كبيرا قد عمى ٠ فقالت خديجة يا بن عم ٠٠ اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة يا بن أخى ماذا ترى ؟ فأخبره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خبر ما رأى ، فقال له ورقة هذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، يا ليتنى كنت فيها جذعا ، ليتنى كنت حيا اذ يخرجك قومك ٠٠ فقال

رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أو مخرجي هم ؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما آتيت به الا عودى ، وان يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحى . . . ونحن أمام هذه القصة التى تروىها عائشة رضى الله عنها نقف موقف المتأمل أمام تلك الأمور .

أولاً : اقرأ لانسان لا يقرأ ولا يكتب تكليف بما لا يطاق - كما يقول علماء الأصول - وهو محال . فكيف يأمره جبريل بشيء لا يتأتى تحصيله - أو حصوله - فان كان المراد بالقراءة متابعة المتكلم فيما يتلفظ به . فهو لم يتلفظ بعد . فكيف يكون الأمر أو يتأتى . . اللهم الا أن يكون معنى اقرأ تهيأ للقراءة - بمعنى المتابعة - ليكون قلبه خالياً من كل الشواغل التى تحول بينه وبين القراءة . وهى أشبه بأداة الاستفتاح أو التنبيه التى تسبق الحديث وتتقدمه . . ولا يصح أن يفهم هذا الأمر الا على هذا الوجه . .

ثانياً : تكرر الأمر بالقراءة - مع إبهامه عليه - وهو لا يدري أهى قراءة بمعنى نطق بالفاظ وحروف مكتوبة « وما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان » أم هى قراءة بمعنى متابعة فى النطق وفيه نظر .

ثالثاً : تلك المشقة التى كان يعانىها - صلى الله عليه وسلم - وهو يغطه - أى يضمه الى صدره - حتى بلغ منه الجهد ، وهى أمور تحتاج الى تأمل وبصر ، وتحليل وتعليل . .

وفى هذه القصة - على كل حال - دليل قاطع على أن الطابع الذى تتميز به تلك الشريعة عن سواها من الشرائع أنها شريعة العلم بالأحكام ، والفقه فى الدين ، والدراية الواسعة بما فى هذا الكون من أسرار خفية ، وقوى كامنة ، وخيرات سخرها الله للانسان ، وذلكها للناس . ولذلك كان أول ناقوس قرع سمعه - صلى الله عليه وسلم - « اقرأ » وهى أزال المرء عن عينيه غشاوة الجهل ، وظلمات الأمية ، وقبس من نور العلم ، وزاد المعرفة . كان من السهل عليه الى حد بعيد ، أن يتجه الى الخير ، وأن يسلك سبيل الصواب ، وأن يكون فى كل تصرفاته وأعماله ، محكوماً بسلطان الحق ، وقانون الواجب ، ودستور العدالة والانصاف ، وميزان العقل والرأى ، والذوق والفكر ، والايتار والحب . وكانما العلم فى هذا الوجود هو الشعاع الهادى . والمصباح المضى ، والرائد الذى لا يكذب أهله .

وهنا لفظة جميلة تدل عليها الاضافة فى قوله « باسم ربك » ، والذى جرى عليه القرآن الكريم هو بسم الله يستفتح بها السورة . وما من سورة - باستثناء سورة التوبة - الا كان العنوان البارز فى أولها بسم

الله الرحمن الرحيم . وكانما يذكره جبريل عليه السلام بهذا الابتداء وفيه هذه الاضافة « ربك » بتربية الله له . واهتمامه به ، وحفظه اياه ، مع فقده العائل ، وموت الوالد . وتخلي القرابة . وعدم الثروة . وضيق ذات اليد . وهو سبحانه وتعالى جدير بذلك كله لانه الذى خلق ، خلق الانسان من علق . . على أن لفظة أخرى لا يمر بها الذهن المرور العابر ، أو تخطر به الخطور الخاطف ، وانما يتأملها التأمل الذى يليق بها ، ويتروى فى اخذ العبرة منها ، وتلك هى تكرار الأمر بالقراءة المرة تلو المرة . ليفهمه - صلى الله عليه وسلم - ويفهم أمته معه ، أن الذى يطلب الأمر العظيم لابد أن يحتال له . . ويجد فيه ، ويتحمل من أجله المشقات ، ويقاسى الأهوال ، من غير ملالة ولا سأم . أو ضجر وقلق . ولا يصح بحال من الأحوال أن يكون الاخفاق فيه . وعدم الحصول عليه للمرة الأولى أو الثانية ، سبيلا الى الانصراف عنه ، والزهد فيه ، والياس منه ، أو قطع الرجاء ، فمن جد وجد ، ومن زرع حصد ، وكل انسان يدعو الى مكربة ، أو يحاول تقويم معوج ، أو ينادى بمبدأ من المبادئ ، أو يوجه جماعة من الجماعات الى خطة مثلى ، أو عمل نافع من شأنه أن تصادفه العقبات ، وتواجهه المصاعب ، وتقف فى سبيله العراقيل ، فليوطن نفسه على اقتحام ذلك كله ، والتغلب عليه بالجلد والاستهانة ، ومعاودة العمل ، واستمرار العلاج والمزاولة ، والاستخفاف بالجهد المبذول . والتعب الحاصل . والشدائد الطارئة . التى يكون من أهونها المظاردة من الوطن ، والمفارقة للأهل والأصدقاء ، فإن ذلك من الضرورى أن يحصل ، ومما جرى به الالف والعادة . . ولقد كان من حديث ورقة للنبي - صلى الله عليه وسلم - ليتنى كنت حيا اذ يخرجك قومك . . لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى ، بمثابة التأويل لهذا الضم الشديد الذى حصل من جبريل عليه السلام له - صلى الله عليه وسلم . فإن التاريخ الذى مر به ، والأهوال التى لاقاها ، والعنف الذى واجهه به . والخصومات التى أيقظوها . والحروب التى خاض غمارها . كانت تطبيقا لتلك الصورة التى مثلها أمين الوحي . وتصديقا - كذلك - لقول ورقة بن نوفل لم يأت رجل بمثل ما أتيت به الا عودى . وقد دأب الناس على مقاومة الحق . والمطاردة لأصحابه ، والعداوة لأهله ، وقديما قال القائل أن قول الحق لم يدع لى صديقا . . . ولكن محمدا - صلى الله عليه وسلم - على الرغم من الجهد الذى لاقاه من جبريل ، والخوف الذى اعتراه ، والهلع الذى أصابه . وتنبيء ورقة باخراج قومه له ، وعداوتهم اياه ، لم يشن ذلك من عزمه ، أو يقلل من طموحه ، أو يطفىء نار شوقه لبلوغ الغاية التى كان مترقبا لها ، متلهفا عليها ، وظل بعد هذا العنف والعناء ، والجهد والتعب . يترقب بفارغ الصبر أن تتكرر تلك الحادثة ، وكان بصره دائما أبدا متطلعا الى السماء التى بزغ منها النور ، ولبح فيها النجم .

وطلعت منها الشمس ... وكان قلبه مرتبطا بغار حراء الذى كان يمتنا عليه ، والذى كان ميدانا لهذا التجلى . وموطنا لتلك الرحمة . فلما فتر عنه الوحى ظلت جوانحه تغلى ، وعروقه تغور بالدم ، وفؤاده يضطرب ، وأخذ اليأس من الخير يعاوده ، والكراهية للدنيا تعتريه ، الا أن كلمات خديجة « والله لا يخزيك الله أبدا الخ » كان لها صدى طيب . ووقع حبيب ، ورجع موسيقى حلو . يرددها بينه وبين نفسه فيعاوده الرجاء بعد اليأس . والأمل بعد الاخفاق ، والاطمئنان بعد القلق ، والاقبال بعد الادبار ، ويحسن كأنها تلامسه يد العناية الالهية فتملأ قلبه - من جديد - ايمانا به . وثقة فيه . واقبالا عليه ، وتراميا على أعصابه . ومعاودة للصلة به أقوى مما كانت وبخاصة اذا شعر أن هذا الفراغ الذى يملؤه باليقين منه لا يزال عامرا به . متجها اليه . لا يزاحمه فيه شريك ، ولا يطارده عنه مسلط ، أو يغلبه عليه جبار . .

وهذه البطولة التى تبنت من السيدة خديجة رضى الله عنها - مع أن الزوجة أسبق الى الجزع والفزع من الرجل ولا سيما اذا كان زوجها - تدل على العزيمة القوية ، والايمان الصادق ، والعقل الراجح . والرأى السديد ، وهى بطولة تجعلنا لا نشك فى أن المرأة الكاملة للرجم بلسم لجراحه ، وراحة لنفسه ، وظل له اذا اشتدت حرارة الشمس ، أو تضاعف عليه لفق الأيام والليالى ، وصدق الله العظيم اذ يقول . . « ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة » فان الرجل قد تصيبه المتاعب . وتعتريه الهموم والآلام . وتضيق الدنيا فى وجهه . وتلتوى المسالك أمامه . فلا يجد بصيص النور الا فى وجهها ، ولا تمسح عنه الدموع الا يدها ، ولا يداوى جراحه غيرها . وهى التى تحمل همه . وتزيل غمه . وتخفف مصابه ، وأوصابه بما تضمرة له من اخلاص ، وتخزنه من ود . وترجوه من خير . وكذلك كانت سنة الله فى خلقه لا ليكمل أحدهما الآخر وكفى . ولكن لتكون سعادته منه ، وهكذا جرى نظام الحياة ولن تجد لسنة الله تبديلا . .

ما ودعك ربك

وعلى الرغم من الخوف الذى اعتراه - صلى الله عليه وسلم - حينما رأى الوحى للمرة الأولى وجاء الى خديجة رضى الله عنها يرجف فؤاده قائلاً زملونى زملونى وقولها له والله لا يخزيك الله أبداً • فان الحنين اليه كان يملأ قلبه • والتفكير فيه كان يستنفذ فراغه ، والخوف من انقطاعه عنه كان لا يفارقه ، ولقد كان شعوره بالشوق الحار الى معاودة الوحى اياه ، وملاقاة جبريل له • يقض مضجعه ، ويملك عليه تفكيره ، ولهذا كان دائم الرغبة فى تكرار ما حدث ، ورجوع ما كان • وبلغ من حنينه الى الملك ، وظمئه الى مشاهدته ، أن كان يذرع الأرض يقدميه صاعداً الى حراء ، أو هابطاً منه • متلفتاً تارة ، أو ذاهلاً فى نفسه تارة أخرى ، كأنما هو قد افتقد شيئاً فهو يبحث عنه ، أو يفكر فيه ، وربما أرهف سمعه لصوت يطرقة ، أو تداء يدوى فى أذنه ، ولكنه لا يعود من ذلك كله الا بالحرمان • ولا يؤوب الا بالحسرة ، ولا تزال سحابة هذا الحزن فوق رأسه ، لا تفارقه ولا تخيم بعيدة عنه ، ثم يزيد من ذلك كله ، ويضاعف منه • قالة السوء من المرجفين الذين كانوا يتريصون له الآلام والأحزان • والذين كانوا يملأون مكة أن محمداً قد قلاه ربه وتركه ، فلم يعد بينه وبينه من الاتصال ما كان يزعمه ، ولا من الوحى ما كان ينقل اليه أوامره • ولقد انقطع عنه خبر السماء ، وأصبح لا يروى خبراً • ولا ينقل حديثاً ، ولا يؤلم المرء ، أو يحز فى قلبه ، أو يكدر صفوه • أو يسئ الى نفسه • كالشدة بعد الرخاء ، والاحجام بعد الاقدام ، والنقمة بعد النعمة • والضيق بعد الفرج ، والشر يحيى بعد الخير • • ولقد ظل هذا الحرمان مدة تتراوح الى أربعين يوماً أو أكثر كانت أشد ما لاقى - صلى الله عليه وسلم - من عنت الأيام • وصروف الليالى • الى حد أنه كان من كثرة ضيق احتماله • وقلق خاطره • وحيرة نفسه ،

والملك الذي يربطه به ، والوحي الذي كان يدنيه منه . أن هم أكثر من مرة أن يلقي بنفسه من قمة الجبل ارضاء لخالفه الذي غضب عليه . فكف عن الاتصال به ، وقطع همزة الوصل التي كانت قائمة بينه وبينه ، ولا يحوله عن تلك الخطة الانتحارية الا صوت ذلك الهاتف الذي يقول له لا تفعل يا محمد فأنت رسول الله حقا . . . ونحن من جانبنا نتصور هذه الفترة أسلوبا من أساليب التشويق الذي يقول عنه علماء التربية انه أحسن الوسائل للتعلق بالمطلوب والبحث عنه ، والتطلع اليه ، والرغبة فيه . والحرص عليه ، والتلقي له . ووعيه وعيا لا يخامره شك ، ولا يدانيه ريب ، ولا يداخله تردد . . . وقد كانت كل خطوات جبريل معه - صلى الله عليه وسلم - تهذيبا وتاديبا ، وثقافة وتربية ، وارشادا وتعليليا ، ليكون بعد ذلك أحسن الأمثلة والنماذج للانسانية كلها في طموحها وتطلعها . وراقيها وتقديمها . وتقويمها واصلاحها » لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر .

على أن الوحي بعد هذه الفترة قد أروى ظمأه . وشفى غيظه ، وأذهب غليله . وأرضى خاطره ، وبلد همومه وأحزانه ، مما أسبغ عليه من بر . وما منحه آياه من احتفال واحتفاء ، وأعطاه آياه من خير . وقدمه له من عون ، وأصفاه عليه من معروف ، وأشساعه فيه من أمل ورجاء ، وجعله له من تقدير واحترام ، وقد ظلت قریش بعده تكاد تميز من الغيظ على أن ينال هذا الفضل ، ويصل الى تلك المرتبة ، وأنه ينزل عليه القرآن الذي يواسي أحزانه . ويطارد همومه ، وينوره به ، ويعلنه أن ربه لن يتخل عنه . ولن يتركه وحده لعصاة البشر تكيد له . أو تنال منه « والضحي والليل اذا سجي ما ودعك ربك وما قلا . وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى . . ألم يجدك يتيما فآوى . ووجدك ضالا فهدى . ووجدك عائلا فأغنى ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر ، وأما بنعمة ربك فحدث . »

ومحمد - صلى الله عليه وسلم - باجماع المنصفين من فحول البلاغة وأساتذة البيان ، لا يدانيه أديب ، ولا يدرك شأوه فصيح . ولا يجرى في حلبته عبقري ، وقد وجد في هذا الخطاب الذي وجه اليه ، والأسلوب الذي تحدث به الوحي . نمطا من القول ، ولونا من ألوان التعبير ، لا عهد له به من قبل . سخره بيانه ، وامتلات به نفسه ، واحتز له وجدانه ، وطرب له فؤاده ، وقوى به يقينه ، وتيقظ به أمله ، وارتفع الى سماء عالية من اعتزازه بالله ، وارتباطه به ارتباطا أنساه ما كان يعانيه من مرارة الحرمان ، ومضاضة الفراق . ولوعة القطيعة . . ورأى

صلى الله عليه وسلم فى تلك الآيات من سورة الضحى خطابا يلامس شغافه • ويثير أحاسيسه ، ويزيل ما كان يشكو منه ، فهو يقسم له بالضحى والليل • وبهما يذكر ليل همومه • وظلام غمومه • وضيق صدره • وخرج نفسه ، وتراكم هواجسه وأحزانه ، وكأنما كان يتخيل باقترانهما ، ومجئ الضحى أخذًا بتلابيب الليل ، أن مع العسر يسرا ، ومع الضيق فرجا ، فيطامن شامسه ، ويهدأ تأثره • ويسكن بلباله • ويسكت عنه الغضب الذى كان يتحكم فيه • وفى ذلك العرض الإجمالى لتاريخه يتبين قأوى • ووجدك ضالا فهدى • ووجدك عائلا فأغنى • تأخذه الدهشة ، لأن ذلك تصوير ناطق ، وتعبير صادق ، لم ينحرف عن الواقع وكأنما كان حاضرا معه • يلامس أحاسيسه • ويسجل آماله وآلامه • ويحصى عليه نبضات قلبه • وهواتف نفسه ، وينتقل من تلك الدهشة التى تبعث فيه الرهبة والخشية ، والمهابة والفرع ، الى قول المولى جل جلاله ، فأما اليتيم فلا تقهر ، وأما السائل فلا تنهر • وأما بنبعة ربك فحدث • فيجد الحنان الذى يملأ جوانحه لهؤلاء الضعاف • ويستريح الراحة كلها لتلك الوصية النبيلة التى يؤكده الله طلبها منه ، وحنه عليها ، لأنه ذاق اليتيم • وعانى مرارة الحرمان وذل الفقر ، وكأنما كان يناجيه فؤاده بأن شيئا من ذلك كله لا يكون منه أبدا ، ثم يعود الى ذلك الصوت الذى يهز ضميره • ويحرك عواطفه « وللآخرة خير لك من الأولى ، ولسوف يعطيك ربك فترضى » فيحمده سبحانه وتعالى على هذه المنن ، وتلك النعم • وذلك الفضل وهذا الوعد الحلو • والبشارة الصادقة ، التى تصدر عن الكبير المتعالى ••

وهكذا جو من البهجة والرضا ، والسرور والفرح ، والغبطة والسعادة • والأمل والارتياح ، والحب والود ، والإقبال والقبول ، لينسى - صلى الله عليه وسلم - شدائده التى كانت • وكروبه التى مضت ، وهو ما بين الاحتفال بشأئه ، والعناية بأمره • والإهتمام بشخصه • والوعود التى تضعك فى وجهه ، والرعاية التى تحيط به من كل جانب فى جنة عرضها كعرض السماء والأرض ••• لكنه - صلى الله عليه وسلم - الى هذه اللحظة كأنما كان يقف وحده فى الميدان ، لا أحد يبادله الشعور بهذا الصراع الذى يعانیه ، أو الشدائد التى يقاسمها ، فإذا جامله انسان بكلمة طيبة يهدى بها نفسه ، أو يسكن بها قلبه ، أو يخفف بها مصابه • فهى لا تعدو أن تكون عزاء تقليديا لا يتجاوز طرف اللسان • وهو اذا تذكر تلك الفجوة التى تفصله عن الناس • والمسافة التى تجعل قلوبهم فى ناحية وقلبه هو وحده فى ناحية عز عليه ذلك وآله ، لأن المشاركة بالوجدان غير المشاركة باللسان • فلما آمنت زوجته خديجة ، وشساركنه فى وجدانه وشعوره • وعقيدته

وإيمانه ، وصارت تصلى معه الصلاة التى علمه إياها جبريل ، وتسببها بالوضوء والطهارة ، وتقرأ ما يقرأ - صلى الله عليه وسلم - من القرآن ، وانحصر تفكيرها كله فى الوقوف الى جانبه بمالها وأهلها وذوى قرابتها ، وانقلبت عاطفتها له من زوجة تنظر اليه كزوج ، الى مؤمنة مخلصه صادقة تود أن تملأ قلبه بمعان أخرى أكثر من معانى الزوجية ، تترضاه وترجو أن يشملها بما أفاض الله عليه من الهدى والارشاد ، والايمان واليقين ، والثقة والاعتزاز . وكان احساسه منها بذلك كله ، يشده أزره ، ويقوى ساعده ، ويملأ نفسه سخرية من هذا الذى يلاقيه من العنت والكيد والايذاء والصد . والاعراض والانصراف . والوقوف فى وجهه ، وتكذيب الناس له ، واتهامهم إياه بالسحر أو الشعر . وأن هذا الذى يدعوه به أساطير الأولين اكتتبها ، صار مع كل خطوة يخطوها ، أو حركة يتحركها لا يشك قليلا من الشك فى أنه منتصر لا محالة طال الأمل أو قصر وقد آمن به بعد ذلك من الغلمان على بن أبى طالب الذى كان يعيش فى بيته ، ويتربى فى كنفه ، ويترعز فى جواره ، والذى أراد النبى - صلى الله عليه وسلم - بهذا الصنيع معه أن يرد لعمه أبى طالب احساسه اليه ، ومعروفه له . ونعمته عليه ، اذ كفله صغيرا بعد موت جده ، وكان يرأه ، ويحب عليه . ويهتم به ، ويبالغ فى اكرامه ورعايته . وعلى على صغر سنه كان صورة طيبة لاستقامة الشبان . وحسن خالهم ، وطهارة أعراضهم ، وكمال أدبهم ، وقوة ارادتهم ، وحدة ذكائهم . وبعدهم عن سفساف الأمور ، ومرذول العادات ، ولم يتدنس بدنس الجاهلية ، كما آمن فى هذا الوقت مولى النبى - صلى الله عليه وسلم - زيد بن حارثة ، وحبيبه أبو بكر رضى الله عنه ، وكان وجيها فى قريش يهابونه ويحبونه . ويكبرون رأيه وتفكيره ، وكان لايمانه هذا أثر بارز ، وفائدة عظيمة . حيث قفى على أثره عثمان بن عفان ، وطلحة بن عبيد الله ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن أبى وقاص . وغيرهم من الصناديد الذين كانوا أشبه بطلائع الجيوش الذين يتوقف عليهم نجاح الجولة الأولى ، والانتصار فى المعارك ، ولقد كان لهم الى جانب فضل السبق الفضل فى كثرة سواد المسامحين لأن اسلام كل واحد منهم كان باعثا لأهله وعشيرته وأصحابه أن يكونوا على دينه ، وفى الجانب الذى يختاره وينحاز اليه

ثبت يدا أبي لهب

مما لا شك فيه أن ظلم ذوى القربى أشد مضاضة على المرء من ظلم غيرهم كما يقول القائل وذلك لأن الانسان فى موقفه معهم بين أمرين أحلاهما مر • اما أن ينتقم لنفسه منهم وهو بهذا يهدم بناء أقرابة • ويتطع حبل الرحم • ويفقد بعداوته لهم درعا كان من حقها أن تدفع عنه الأذى ، وترد الكيد ، أو يسكت على الأذى الذى يصيبه ، فيشتد وجهه • وتزيد آلامه • لأن احساسه بأن ما يصيبه من الأهل أو الأقرابة سيجعل الوخز شديدا • والألم مضاعفا ، والوجع عميق المدى • • ولقد كان أبو لهب اللعين عما للنبي صلى الله عليه وسلم يجتمع مع أبيه فى عبد المطلب جده ، تربطه به آصرة القرابة ، ووشيجة الرحم ، وصلة اللحم والدم • والعرب بطبيعتهم كانوا أشد الناس غيرة على أرحامهم ، وأكثر حمية لما ينال أهلهم وذوى قرباهم • لا يسكتون على ضيم يسيبهم • أو ضرر يلحق بهم • أو مكروه ينزل بساحتهم ، ومعظم تلك الحروب التى كانت تراق فيها الدماء ، وتزهق فيها النفوس ، يرجع سببها الأصيل الى الحمية للقرابة ، والدفاع عن العرض ، والانحياز الى جانب النسب • • والعقل البشرى لا يستطيع أن يتصور كيف كانت سخيمة نفس هذا الرجل ، على ما بينه وبين النبي صلى الله عليه وسلم من صلة القربى التى كان من حقها عليه ألا يتناول بالأذى ، أو يتناول عليه بالعدوان ، أو يلحق به الضرر • ولا أن يحقد عليه هذا الحقد ، ويغضبه ذلك البغض ، أو يشتغل بعدوانه عليه ، والصد عنه ، والتنفير منه ، وإقامة الأشواك فى طريقه • •

وحين يقارن العقل البشرى بين أبى لهب وهذا وأخيه حمزة • وكلاهما أبوه عبد المطلب بن هاشم جد الرسول صلى الله عليه وسلم • وكلاهما عمه كذلك ، وقربا بهما واحدة ، وصلته بهما على حد سواء ،

يأخذه العجب ، ويزداد غرابة ودهشا ، اذ أن أحدهما خصم لدود ، وعدو كاشح . والآخر صديق حميم تأخذه بالنبي صلى الله عليه وسلم الشفقة ، وتعطفه عليه القربة ، ويبالغ في الوقوف الى جانبه ، والدفاع عنه ، والغضب للغبار الذى ينال وجهه ، أو يلوث ثيابه ، ولقد دفعت الحمية « الحمزة بن عبد المطلب » ان يعلن ايمانه بابن أخيه ، والتصديق لدعوته ، والانصواء تحت رايته ، والدخول فى دينه ، ردا على ما بلغه عن أبى جهل من تطاوله على محمد صلى الله عليه وسلم وسخريته به . يقول الدكتور هيكل ، لقد مر أبو جهل بمحمد يوما فآذاه وشتمه ونال منه ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فأعرض محمد عنه . وانصرف ولم يكلمه ، وكان حمزة عمه وأخوه من الرضاع ، ما يزال على دين قريش ، وكان رجلا قويا مخوفا ، وكان ذا ولع بالصيد ، فإذا رجع منه طاف بالكعبة قبل أن يعود الى بيته ، فلما جاء فى ذلك اليوم وعلم بما أصاب ابن أخيه من أبى جهل ملأه الغضب ، وذهب الى الكعبة ، ولم يقف مسلما على أحد ممن كان عندها كعادته ، ودخل المسجد فألفى أبا جهل فقصد اليه حتى اذا بلغه رفع القوس فضربه فشججه شجرة منكرة وأراد رجال من بنى مخزوم أن ينصروا أبا جهل فمنعهم حسما للشر . وخوفا من استفحاله ، معترفا أنه سب محمدا سببا قبيحا . ثم أعلن اسلامه . وعاهد محمدا على نصرته والوقوف الى جانبه والتضحية فى سبيله حتى النهاية وهذا هو فرق ما بين حمزة وأبى لهب التى نزلت فيه السورة . . فهل يدور بخلدنا أن القربة غير القربة ، والوشيجة غير الوشيحة ، والدم غير الدم ، أم ان البهل هو الذى يطمس على البصائر . ويحول بينها وبين الحق . ويكفى أن التاريخ انذى لا يظلم أحدا ، أنزل كل انسان المنزلة التى تليق به ، وبواه المكانة التى تناسبه . وهذا هو أبو لهب يكوى بميسم من النار التى يصلها . الى جانب ذلك الذل الذى أصابه ، والعار الذى لحق به ، وامراته حمالة الحطب فى جيدها جبل من مسد وهو ازدراء لم يكن محمد ليقدر عليه . ولا يستطيع أن يلحقه بأبى لهب ، ولو أن أحدا صنع ذلك بأبى لهب لزمجر وغضب ، وأقام الدنيا وأقعدها . وجعل الأرض ترتوى بدماء القتلى ، وبخاصة لهذا الذى نال زوجته من المهانة التى لا تحتمل والازدراء الذى لا يطاق ، وللمرأة عند زوجها تقدير واحترام يجعلانه وجود بنفسه من أجلها ويضحى بحياته فى سبيلها . وهى بعد لم تكن امرأة من دهماء الناس ، ولا من سوقة العرب ، وإنما هى من السادة « العوراء أم جميل بنت حرب أخت أبى سفيان بن حرب » ولم تكن تحمل حطبا ولا تمتهن عملا من الأعمال التى تزرى بها . أو تنال من شرفها . ولكن هكذا جرت عادة العرب أن يقولوا فلان يحطبل فلان اذا كان ينم عليه ويفرى به . وقد ساهمت فى خصومتها للنبي صلى الله عليه وسلم لتكون فى جانب

أخيها وزوجها .. ولقد ذهل أبو لهب ودهش لما نال منه محمد هذا المنال الذي جعل القرآن يفضحه ، ويهتك عرضه ، ولم يكن هو يملك إلا الحقد الدفين ، والعداوة الكاشحة ، أما زوجته فقد صنعت ما تصنعه المرأة ، وذهبت من غيظها بسلي جزور ، ورمت به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ساجد لربه في إحدى صلواته .

وسبب هذه القصة الطريفة أنه صلى الله عليه وسلم بعد أن فتر عنه الوحي تلك المدة الطويلة التي كانت مجالا لتقولات الأعداء . والاشاعات المغرضة التي أرسلها خصوم الدعوة ، وأعداء الرسالة . وكان قد آمن به أبو بكر وعثمان وسعد بن أبي وقاص وغيرهم من صناديد الرجال وأبطال الحروب ، وذوى المكانة المرموقة في العرب ، وكانت الدعوة ، الى هذه اللحظة - في الخفاء لا يجزؤ أحد على إعلانها . ولا يستطيع انسان أن يرفع رايها ، وقد اتخذ المسلمون دار الأرقم بن أبي الأرقم مخبأهم الذي يجتمعون فيه ، ويتدارسون أمورهم ويرسمون خطوطهم لئلا يتعرضوا للأذى ، أو يستهدفوا للضرر ، وظلوا على ذلك ثلاث سنوات فلما نزل عليه قوله جل جلاله ، وأنذر عشيرتكم الأقربين « امثل أمر مولاة وصعد الصفا والمروة ونادى « يا صباحاه » وهي الكلمة التي كانوا يقولونها عند الدعوة الى الحرب ، والنفير للقتال . وكانوا يرون تلبيتها ، والاجتماع لها ، من أوجب الواجبات ، وأقدس الأمور ، فلما سألت عليه شعاب الحي من كل ناحية ، وغص بهم المكان ، قال لهم « أرايتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي .. قالوا نعم ما جربنا عليك كذبا .. فقال صلى الله عليه وسلم اني نذير لكم بين يدي عذاب شديد ، انكم لتموتن كما تنامون . ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتجزون بالاحسان احسانا . وبالسوء سوء . وانها لجنة أبدا أو لنار أبدا » والى هنا كان المنطق الفطري يقضي بصحة الموقف ، وسلامة العاقبة ، وقبول الدعوى . لأنها صميم الحكمة ، ومحض العقل ، وعين الصواب ، اذ أتى صلى الله عليه وسلم - النبيوت من أبوابها - كما يقولون - وخاطبهم بالعاطفة والعقل في آن واحد ، وقد أخذ منهم صكا بصدقه ، واستقامة أسلوبه ، وسلامة أهدافه ، وكون دعواه خالية من الغرض والهوى ، ولم يكن اصرارهم على الباطل بعد ذلك كله الا مكابرة مكشوفة ، وعنادا مقضوحا . وكان من اللائق بهم - لو أنصفوا - أن يتحاشوها ، ولذلك كان هذا الرد من أبي لهب « تبا لك ألهذا جمعتنا » عنوانا على الطيش والحمق ، والهزال والضعف والعته والجهل ، لا يستحق الا هذا الردع القاسي ، والزجر الأليم ، والتوبيخ البالغ « تبت يدا أبي لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب ، وامراته حمالة الحطب في جيدها حبل من مسد »

ولم يكن في جديدها ذلك الجبل ، وإنما هو التصوير المزرى الذى يحيط من شأنها ويجعلها فى ابتذال حالها وانحطاط قدرها أشبه بالسوقة الذين يحترفون الخدمة ، أو يمتهنون أتفه الأعمال ، ويقول الشيخ مخاوف فى التعليق على قوله تعالى « فى جديدها جبل من مسد » الجيد العنق • والمسد ما مسد أى قتل قتلا شديدا من الحبال من ليف أو جلد ، أو من لحاء شجر باليمن يسمى المسد • أى فى عنقها جبل مما مسد من الحبال ، وهو تصوير لها بصورة الخطابة التى تحمل الحزمة وتربطها فى عنقها بجبل ، تحقيرا لها لتمتعض من ذلك هى وزوجها ، اذ كانا فى بيت العزة والشرف • ومنصب الثروة والجدة ، ويحتمل أن يكون المعنى أنها تكون فى جهنم على الصورة التى كانت عليها فى الدنيا ، حين كانت تحمل حزمة الشوك لتلقيها فى طريقه - صلى الله عليه وسلم - ايداء له ، فلا تزال على ظهرها فى النار حزمة من حطب شجرة الزقوم ، أو من الضريع ، وفى جديدها جبل مما مسد من سلاسل النار ، كما يعذب كل مجرم بما يجانس حاله من جرمه ، وقد هلكت هى وزوجها كافرين » ••

وقد كان فى الشعر الجاهلى هجاء يتناول الأخلاق والأعراض • وينال من العلية والسفلة ، والكبار والرؤساء • والعظيم والحقير ، وكان العرب يثورون ثورة عارمة لهذا الهجاء • الا أنه كان فى الكثير الغالب من ذلك النوع المبتذل • أو الأدب المكشوف • يعيب المتكلم به أكثر مما يعيب المقول فيه ، وهذا الهجاء الذى أصاب أبا لهب كان من طراز جديده • وهو مع هذا كله لم يعد أن أظهره مع ماله وأهله فى هيئة الذليل الحقير ، أمام عقاب الله يوم القيامة « ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى نارا ذات لهب وامراته حمالة الحطب ؟ » ••• وأمام هذا التهديد لرجل من صناديد العرب كانت دعوة محمد صلى الله عليه وسلم تبتدىء عهدا آخر ترفع فيه رأسها ، وتجأر فيه بصوتها ، وتسفه فيه معبودات المشركين ، حتى اذا ما بلغ عدد المسلمين نحو الثلاثين • أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجهر بالدعوة قائلا له ••• « فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين • وهنالك تجاوزت مرحلة الهمس الى مرحلة الاعلان والتصريح •••

رجلان

رجلان كانت الدعوة الاسلامية تتقرب بفارغ الصبر لحظة انجيازهما اليها ، ووقوفهما الى جانبها يدافعان عنها ، ويشهدان أزرها ، ويجعلان كفتها ترجح على سواها ، لتأخذ سبيلها الى الاستقرار ، وطريقها الى الظهور ، وكلا هذين الرجلين كان بألف رجل ، ثبات جنان ، وقوة حجة ، وشجاعة نفس . وصرامة رأى ، ومثل هذا اللون من الناس يكون له أثره البالغ في الجبهة التي يعمل فيها ، والميدان الذي يكون مجالاً لكره وفره ، ومحمد صلى الله عليه وسلم اذا ما كان في معسكره هذان الرجلان يستطيع أن يطمئن الى أن خصومه يحسبون حساب ما عساه أن يحصل بينه وبينهم من خلاف . أو يحدث بينه وبينهم من عداوة ، وأحد هذين الرجلين الحمزة بن عبد المطلب عمه وأخوه من الرضاع وصديقه الحميم الذي كان يفتح له قلبه ، ويخلص له وده ، ويتمنى أن يطوى عليه جوانحه ، وثانيهما عمر بن الخطاب رضى الله عنه الذي كان من الأفاضل في ذكائه وعقله وشجاعته وأقدامه وانصافه وعدله ، ورجولته وحميته وغيرته للحق وجهه له ودفاعه عنه .

أما الحمزة فان سبب اسلامه — كما علمنا — غضبه لابن أخيه ، ودفاعه عنه ، ووقوفه الى جانبه ، حتى لا يتناول عليه سفيه ، أو يسئ اليه أحق ، أو ينال منه دعى ، أو يعتدى عليه سليط . وقد روى أن أبا جهل قسحه الله وأخزاه تلاقى بالنبي — صلى الله عليه وسلم — عند الصفا فازدراه وسخر منه ، ولطمه على وجهه . وسرى ذلك الخبر في شعاب مكة ، وقابله الناس بما يستحقه من الاستنكار والسخط ، والوجوم وعدم الارتياح . وكان الحمزة في لهو عن ذلك كله لاشتغاله بالرياضة في الصحراء . فلما أب من رحلته ، وانتهى اليه هذا الخبر .

لم يستطع الاغضاء عنه ، ولا السكوت عليه ، ولم يحتمل مع كفره .
وكونه جنديا من جنود المعارضة لابن أخيه أن يصبر على هذا الضيم الذي
أصابه في رجل من أهله ، فذهب الى المسجد ، وأخذ بتلابيب أبي جهل
وضربه بالقوس على ناصيته . ولما أراد بعض أصحاب أبي جهل أن يثأروا
له أمرهم أن يكفوا وقال لهم أنا الباغي وعلى الباغي تدور الدوائر ،
وأفهمهم أنه تطاول على محمد ظلما وعدوانا ، وفي هذا الوقت رأى الحمزة
أن يواصل سعيه لشفاء الغليل الذي كان في نفسه من أبي جهل ليريه
أنه لن يتخلى عن ابن أخيه . فذهب الى محمد - صلى الله عليه وسلم -
وأعلنه أنه قد دخل في دينه ، وأنه منذ ذلك اليوم صار جنديا من جنود
الله في ميدان الدعوة الى دينه ، والدفاع عن شريعته ، ثم ظل الى جانبه -
صلى الله عليه وسلم - وكان الرسول يحبه حبا لأمزيد عليه ، وسيمر بنا
في الحديث عن مقتله كيف كان حزنه عليه شديدا .

وأما ثاني هذين الرجلين الذي هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
فقد كان لاسلامه اتصال وثيق باسلام حمزة بن عبد المطلب ذلك أنه أخذته
الحمية لما فعل حمزة بأبي جهل وهو خال عمر لكنه لم يشأ حينئذ أن
يواجه حمزة لما يعلمه من شجاعته وغضبه كثير من أبناء عبد المطلب ، فأخذ
سبيله الى محمد ليقتضى على أصل الداء ، ويقتل ميكروب هذه العلة .
وبينما هو في الطريق لقيه أحد أصحابه ، فقال الى أين يا عمر ، فأخبره
الخبر . . . فأنكر عليه قصده . . . وقال له كان أولى بك أن تفعل ذلك مع
أهلك وأقرب الناس اليك ، لقد صببت أختك هي وابن عمك زوجها .
ولما كان عمر يدرى من ذلك قليلا ولا كثيرا . . . فعلى دمه في عروقه ،
وأحمر وجهه ، وبدأ عليه الخجل والارتباك ، وتحول غضبه على محمد
الى غضب على أخته وزوجها ، وهنالك حول وجهه اليهما ليرى ماذا
أصابهما ، ودخل عليهما كالأسد الهصور . يريد الفتك بهما ، ولما أن
أشبعهما ضربا نظر الى وجه أخته فوجد الدم يسيل منه ، فأخذته الرحمة
بها ، والاشفاق عليها . وسكن ثأره ، وهدأت حدته ، وكانت قد أخفت
عنه بعض صحائف من القرآن كان يقرئها منها هي وزوجها خباب بن الارت
الذي اختفى عن وجهه حتى لا يناله منه عنف أو قسوة . . . فلما قال عمر
لأخته ما هذا الذي واريت عني ، قالت انه كلام رب العالمين . وطلب أن
تمكنه منه . وتعطيه أيام ليقرا فيه ، وكانت فاطمة في هذه اللحظة قد
فهمت من ملامح وجهه . ونبرات صوته ، أن الله قد فتح قلبه ، فأخذت
تبادلته عنفا بعنف ، وغلظة بمثلها ، فقالت أنت على الشرك والشرك نجس .
وكتاب الله لا يمسه الا المطهرون . فطلب منها أن تقرأ هي ، فطلت تقرأ في
سورة « طه » الى أن وصلت الى قوله جل جلاله « اننى أنا الله لا اله الا أنا
فاعبدنى وأقم الصلاة لذكري ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس

بما تسعى فلا يصدك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى « وهنالك سكن غليانه • وهدأت ثورته ، وذهبت حدته ، وتحولت غلظته الى رقة ، وكراهيته الى محبة ، وجحوده الى ايمان ، وأحس كأن الأرض تميد به ، وأن السماء تنطبق عليه ، وأن يوم الحساب قد حضر ، وأنه قد قذف به فى جهنم ، فصاح بأعلى صوته أين الطريق الى محمد ، وهنالك ظهر خباب ابن الارت ، وقال له يا عمر انى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه صلى الله عليه وسلم • فانى سمعته أمس وهو يدعو ويقول « اللهم انصر الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى الحكم بن هشام » فالتفت الله يا عمر ، فقال عمر عند ذلك ، دلنى يا خباب على محمد حتى اعلن اليه اسلامى • وأخذ سيفه وجاء الى النبی صلى الله عليه وسلم - وكان هو وأصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم « دار الندوة » فضرب عليهم الباب • فقام رجل منهم ينظر من خلل الباب فرأى عمر متوشحا سيفه • فأخبر النبی صلى الله عليه وسلم بذلك • فقال حمزة أذن لى يا رسول الله أن ألقاه ، فان كان قد جاء لخیر بذلناه له ، وان كان لشر قتلناه ، وربما قال غیر حمزة مثل قوله هذا الا ان النبی صلى الله عليه وسلم قال أنا أكفيكم شأنه • حتى اذا لقيه أخذ بتلابيب ثوبه ، ومجامع رداءه وهزه هزة انخلع لها جسمه ، وقال له ماجاء بك ، أما أن لك أن تنتهى حتى ينزل الله عليك قارعة ، فقال عمر يا رسول الله جئت لأومن بالله ورسوله • فكبر النبی - صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف بها كل من كان فى داخل الدار أن عمر قد أسلم • ويقول بعض المؤرخين ان عمر مشى الى المسجد يعلن من فيه باسلامه ، فقام اليه نفر منهم يقاتلونه ويقاثلهم • فبينما هم كذلك اذ أقبل شيخ عليه حلة فقال ما هذا فقالوا له صبا عمر • قال رجل اختار لنفسه أمرا فماذا تريدون منه • أترون بنى عدى يسلمونه لكم ، خلوا عن الرجل • وكان هذا المتكلم هو « العاص بن أبى وائل السهمى » قال عمر وجئت أبا جهل بعد ذلك فلما طرقت بابه فتح لى وقال مرحبا بابن أخى ، ما جاء بك ؟ قلت جئت لأخبرك أنى قد أسلمت ، وآمنت بمحمد • فضرب الباب فى وجهى وقال قبحك الله ، وقبح ما جئت به • • وأنت ترى كيف تغير موقف كل من الرجلين للآخر ، فلقد ابتدأت ثورة عمر - أولا - من أجل خاله أبى جهل ، ثم كانت ثورته - ثانيا - من أبى جهل وضد أبى جهل ، وهكذا « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ولم يستغرق التاريخ الذى مثلت فيه قصة عدوان أبى جهل على النبی صلى الله عليه وسلم وغضب حمزة من جراء العدوان على ابن أخيه وإعلانه الاسلام - كرد فعل لذلك - واسلام عمر وطرقه لباب خاله الذى رده أسوء رد قائلا له قبحك الله • وقبح ما جئت به ، أكثر من أسبوع واحد • • وعلى كل حال فقد أشاع خبر انضمام عمر الى معسكر المسلمين

CA

والله ياعمى

كان لزاما على محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمره ربه بالجهر بالدعوة . وعلان الرسالة ، وبخاصة بعد أن انضم إلى معسكره كبار الرجال ، وصناديد العرب ، من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وحمزة بن عبد المطلب ، وهم قوم لهم منازلهم المعروفة ، ومكانتهم المحترمة ، وتقديرهم العظيم ، وبعد أن صار أبو جهل وأضرابه من المشركين المعاندين يشتغلون بالكيد له . والتنفير منه ، والتشويه لدعوته . والصمد عنه . كان لزاما عليه أن يبرز في المحافل . ويظهر في الأسواق . ويعتلى كل منبر يمكن أن يكون وسيلة من وسائل إيصال صوته إلى الأذان والفلوب . ليستجيب له من يقتنع بصدقه ، ويدعن لدينه . ويؤمن بدعوته . ويطمئن إلى أنه رسول رب العالمين . . وكانت هذه الحال بينه وبين قريش أشبه بالحرب الباردة التي يتناول فيها كل فريق خصمه بما يستطيع من ألوان الكيد ، وصنوف الإيذاء ، ومعاني الإيلاف . التي يقلم بها أظافره ، ويقص أجنته ، ويضعف قوته ، ويقطع الطريق عليه إلى الرقي والنمو والتقدم والازدهار ، لكنه لا يرفع سيف الحرب عليه . ولا يعلن التعبئة العامة ضده ، لأنها وجدت أن محمدا تنعطف إلى دعوته أفراد ، وتلتف به رجال ، وتدخل في دينه أفواج ، وإلى جانب ذلك لا يخذله المنطق ولا ينقصه الحجة ، ولا يتجافى عنه العقل ، وهنالك أيقنوا بأن جاهد في سبيله إلى الزوال ، وسلطانهم في سبيله إلى التقلص . وجبروتهم ستحطمه الأيام المقبلة لامحالة ، لأن الدين الجديد الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وإن لم يكن ملكا سيقوم على أنقاض ملكهم ، ولا سلطانا سينازعهم السيادة وهو يذيب الفوارق . ويمزج الطبقات ، ويكره التسلط ، ولا يحترم الذين يقوم مجدهم على النفوذ الكاذب ، والثروة المعتصبة ،

والغنى عن طريق غير مشروع ، ولا يمكن للأناية • الجوفاء ، ولا الأثرة .
 البغيضة • وقد كانت السدانة على البيت الحرام ، والرياسة على العرب ،
 وحق الفصل فى الخصومة ، والحكم فى الديات • والتقدم فى المجتمعات .
 سمات بارزة لهم على غيرهم ، وإذا ما استرسل ذلك الداعى فى دعوته
 الجديدة • فسوف يكونون سوقة بين الناس ، لا يمتازون بفضل ولا شرف •
 ولا يسبقون بجاه ولا نفوذ • ولا يشرفون بحسب ولا نسب ، لأن محمدا
 يقول الناس كلهم لآدم وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى
 الا بالتقوى • • وأمام ذلك أجمعت قريش على الوقوف فى وجه محمد ،
 والكيد له ، والصمد عن سبيله ، مهما كلفهم ذلك كله من ثمن ، وقد
 شرعوا ينظرون فى كل الأساليب • ويجربون مختلف الأنواع التى يمكن
 أن تكون حربا باردة • وأخيرا وجدوا أن أبا طالب يمكن أن يساعدهم على
 ذلك ، وبخاصة وهو لا يزال على دين الأشياخ • يؤمن باللات والعزى ،
 ويسجد للأوثان والأصنام • وقد ظنوا أنه يحدب على محمد ويعطف
 عليه ارضاء لرغبة التبني لا أكثر ولا أقل فعرضوا عليه غلاما وسيم
 الشكل ، جميل الطلعة ليحمله منه فى مكانة محمد الذى يتبناه ، على أن
 يسلم اليهم محمدا ليفعلوا به ما أرادوا فقال لهم أبو طالب بنس الرأى
 ما ترون ، فقالوا له يا أبا طالب ان كان محمد يريد ملكا ملكناه علينا ،
 وان كان يريد مالا أعطيناه المال ليصبح من سراة الناس • وعليه بعد ذلك
 أن يكف عن آلهتنا التى ازدراها • ومعبوداتنا التى حقرها ، والا كان
 لنا ولكما شأن آخر • وما كان أمام أبى طالب أمام هذا القول الا أن يظل
 واقفا موقف الحيرة ، فابن أخيه لا يمكن أن يتركه لهم ينالون منه ،
 أو يكيدون له • وفى الوقت نفسه لم يكن من السهل عليه اغضاب العرب ،
 ولا الوقوف فى وجههم ، وتحمل مسئولية عداوتهم ، وفى تيار هذه
 الوجدانات المتناقضة ، والعواطف المضطربة ، يذهب الى محمد صلى الله
 عليه وسلم ليأمره أن يكف عنهم ، فلا يبالغ فى ايلامه لهم • وعدوانه
 عليهم ، واحراجهم اياهم • وقد عرض عليه ذلك العرض السخى الذى
 عرضه ، والعدة الطيبة التى وعدوا بها • وفهم صلى الله عليه وسلم من
 حديث عمه له أنه يريد أن يتخلى عنه ، فلا يقف الى جانبه ، ولا يمد يده
 اليه ، ولا يفضب من أجله ، ولا يرد كيدهم الذى يدبرونه له فى الخفاء •
 فاغرورقت عيناه بالدموع ، وأفهمه أنه يحتمى بربه ، ويعول على خالقه ،
 ولا يستعين الا برب السماوات والأرض • ثم قال له فى لهجة المظمئن
 الرائق « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى • والقمر فى يسارى ،
 على أن أرجع عن هذا الأمر • مارجعت عنه أو أموت دونه » وحينئذ
 رق قلب أبى طالب وقال له يابن أخى قل ما شئت فوالله لا أتخلى عنك •
 ولا أخذك • ولا أسلمك لعدوك ، ولا أجعلك تقف وحدك فى الميدان •

ومن حق الأديب الماهر ، والفيلسوف الكبير ، واللوحى العظيم .
والناقد البصير ، أن يقف أمام هذا الرد الذى صدر عن محمد صلى الله
عليه وسلم فى الوقت الذى تطيش فيه الأحلام ، وتزل العقول وتختل
المصائر ، وتذهل الأفكار . وتضل الأبواب ، ويحتاج المرء إزاء هذا التيار
المتضارب إلى التروى والامعان . والمقارنة والترجيح ، والنظر والتأمل ،
على أنه مهما تروى وتأمل وقارن أو قدم رجلاً وآخر أخرى - كما
يقولون - فإنه لا يصل إلى هذا الرد الحاسم ، ولا إلى هذه الحكمة
« والله يا عبي لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى » ولا يمكن
أن يكون هناك إباء نزيه ، ولا كبرياء عظيم ، ولا ترفع كريم ، وراء هذا
الرفض الذى جعله محمد صلى الله عليه وسلم عنواناً على الرجولة الكبيرة .
والطهارة البريئة ، والنظافة الكاملة ، وهو رفض نبع من قلب امتلأ بجلال
مولاه فلم يعد فيه فراغ لسفاسف الحياة . ولا لاكذيب السلطان ،
ولا لدنيا الناس . فهل كان يتروى فى نسجها . أو يتأنق فى صوغها .
ويقدر قبل أن تصدر منه . لتنتقل انطلاق السهم ، وتدوى دوى المدفع .
وتسير مسير الشمس . فلا فم إلا وهو يردددها ، ولا رأس إلا وهو واغيتها .
ولا عقل إلا وهو مكبرها ، ومعجب بها أيما إعجاب . أم صدرت عن
طبع . وانحدرت عن سجية ، وحدثت من غير تكلف ، وكان شأنها شأن
الشهيق والزفير تستجيب له النفس من غير عناء ولا مشقة . وهى وحدها
تطوى ذلك التاريخ طياً فى ماضيه وحاضره . وتبرز لهذه الأمة مسيرة
منقذها واضحة لا غبار عليها . ناصعة لا غموض فيها ، بسيطة ليس
عليها طابع التكلف ، الذى يلتجئ إليه الضعفاء أو المزورون . وفى
الحق أن اليقين الذى عمرت به نفسه ، والايان الذى نارت به بصيرته ،
والثقة بالله التى امتلأ بها قلبه ، واعتقاده الضخم فى بارئ النسم .
ومصرف الكون ، جعلته يسخر من كل هذه المظاهر ، وما الشمس
والقمر ، والنجوم والكواكب ، والأرض والسماء ، والجاء والسلطان ،
والنفوذ والحكم ، والرياسة والملك ، وما سوى ذلك وذلك . أليست
كلها صنعته جل جلاله ، ومن أثر قوله كن ، ونتيجة حتمية لأوامره ،
وأثرا بارزا لقدرته ، ولو لم يشأها لم تكن . سبحانه خالق كل شيء ،
وهو على كل شيء قدير ، بيده مقلد السماوات والأرض .

على أن الذى امتلأت يده به ، وأطمأن قلبه إليه ، وظفر به من ربه
كان أعظم قدراً ، وأعلى شأنًا ، وأغلى ثمنًا من الشمس والقمر ، وقد حظى
برضاه سبحانه وتعالى عنه . واختياره له ، وأقم قلبه الكبير
بالارتباط به ، والتفكير فيه ، والتسبيح بحمده ، وهى ثروة -
كما نرى - لا يكون الشمس والقمر بجانبها إلا هباءً . وما المال والجاء

والسلطان والملك ومتاع الحياة الدنيا على اختلاف أنواعه الا كمالاته نفسيا يطلبه المرء ليجبر به نقصا فيه ، أو يغطي عوارا لحقه ، أو خللا أصابه ، ومحمد - صلى الله عليه وسلم - صنعه خالقه على عينه ، وجعله بقدرته . وكماله بعنايته ، ورفع منزلته ، وأعلى مكانته ، وجعله سيد انصافين الأخيار ، لم ينله رجس الشيطان ، ولم يصبه سفساف الناس ، ولا دنس الخلق . ولا طمع الصغار ، فكان قلبه طاهرا . وفؤاده نظيفا ، وضميره نقيا ، وهيمته عالية . ونظره بعيدا ، وعقله رشيدا ، وإيمانه صحيحا ، ودينه قويا ، ونفسه كبيرة . وكل هذه معان اذا أضفى الله رداءها على انسان صار بها من الأبرار الأخيار الذين لايسعون في غاية ، ولا ينزلون في غرض ، ولا ينحرفون في قصد ، ولا يلتوون في سنن ، ولا يقصرون في واجب ، ولا ينامون عن مكرمة ، ولا تقف جهودهم عند غاية . وهذه الكلمة التي قالها - محمد - صلى الله عليه وسلم - الى جانب كونها سخرية بما كان لهم من أهداف ، واحتقارا لما كان لديهم من دنيا ، وازدراء لما كان عندهم من موازين ، ترسم للمصلح الاجتماعي التصميم الجزم الذي يتجنم عليه أن يلتزم به ، ويسير عليه ، والعزيمة القوية التي يجب عليه أن يأخذ نفسه بها ، والا كان جهده ضائعا لا أثر له ، وهباء لا فائدة منه ، ورخيصا لا ثمن له ، وذلك هو المنطق الذي وصل به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - الى القمة . وانتهى به الى الغاية ، مع قلة عدده وعدته ، وكثرة خصومه . وقد علمتنا سيرته - صلى الله عليه وسلم - أن الحق لا تخذله ارادة الله . ولا تتخلى عنه عنايته ، ولا يتركه جل وعلا للمفسدين ينالون منه ، أو يكيدون له . أو يصدهون عنه ، وفيه من معاني الفطرة ، وقوة المنطق ، ونبل الهدف ، ووسائل البر والخير ، والاصلاح والعمران ، ما يضمن له الغلبة ، ويؤكد له الفوز والانتصار ، ويجعل له التمكن والخلود من غير شك ولا ريب .

البشارة به فى الكتب السابقة

الرسالات السابقة على النبى - صلى الله عليه وسلم - كانت كلها خطوات أولى لرسالته ، مهد الله سبحانه بها . وجعلها أشبه بالارهاص الذى يسبق المعجزة ، وإذا كان التدرج فى التربية والانتقال من حالة الى أخرى تكون أشد أو أشمل أسلوبا لما تتطلبه الفطرة وتدعو اليه ضرورة الانتقال ، فان الجهود التى بذلها الأنبياء والرسل قبله - صلى الله عليه وسلم - كانت من هذا القبيل . ولم يكن ذلك من قبيل الاتفاق أو المصادفة ، أو خبط عشواء ، وانما كان جاريا على سنة الحياة ، وطبيعة الكون فى هذا الوقت . لأن البدائية القائمة ، والهمجية السائدة ، وعيشة الأدغال والغابات التى ابتدأها الانسان ، وتنقل فيها من طور الى طور . ومن خطوة الى التلى تليها . لم تكن معها تكاليف والتزامات ، أو أوامر ونواهي . وانما المعقول أن يكون معها ارشاد وتوجيه ، وتهذيب وترغيب ، من غير تكليف أو ايجاب ، حتى اذا ما تجاوزت البشرية هذه المرحلة انتقل بها الرسول الى أخرى وهكذا ، وهذا النمط الذى ينتهجه الأستاذ فى درسه مع التلاميذ ، اذ كان ذهنهم خاليا من ألوان العلم . وضروب المعرفة . ومعانى الثقافة يلتزم هذا المبدأ . والأنبياء والرسل لم يخرجوا عن كونهم أساتذة للبشرية ، ومعلمين لهذه الانسانية ، يسرون على طريقة التدرج والانتقال ، ولهذا كانت رسالة الرسول فى بعض الأحيان اقليمية محدودة بالزمان والمكان . وفى سورة هود من القرآن الكريم ما يدل على هذا التحديد ، أو النطاق الضيق الذى كانت فيه هذه الرسالات ، ولقد أرسلنا نوحا الى قومه . . . وإلى عاد أخاهم هودا . . . وإلى ثمود أخاهم صالحا . . . وإلى مدين أخاهم شعيبا . . . ويصور النبى - صلى الله عليه وسلم - هذا المعنى فى حديث من أحاديثه الشريفة

مضمونه - على الجملة - أن مثل ما بعثه الله به والأنبياء من قبله كمثل بيت تكامل بنيانه ، وارتفعت جدرانها ، ولم يكن ينقصه الا موضع لبنة واحدة . فجعل الناس يطوفون به ، وينظرون اليه ، وهم معجبون به ، مأخوذون بحسنه ، وكانوا يقولون كلما طافوا به ، ونظروا اليه ، ما أجمل شكله ، وأحسن منظره ، وأروع ابداعه ، لولا موضع هذه اللبنة ، فانا هذه اللبنة التي يكمل بها البناء غير أنه لا نبي بعدى ، والمهمة التي من أجلها أرسل الله الأنبياء مبشرين ومنذرين تكاد تكون واحدة فى الغرض والغاية ، والمغزى والمقصد ، وهى الايمان بوحدةانيته وافراده بالخضوع والطاعة والاعتقاد فى كماله الذى لا حد له ، ولهذا يقول سبحانه وتعالى مخاطبا نبيه - صلى الله عليه وسلم - « ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك » ومما لا شك فيه أن عيسى عليه السلام كان يبشر برسولنا عليه الصلاة والسلام . ولقد سجل القرآن الكريم حكاية ذلك عنه اذ يقول « ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » ولقد مر بنا ما جاءت به كتب السيرة جميعا - من غير استثناء - من تحذير بحيرا الراهب لأبى طالب وهو ذاهب معه الى الشام فى تجارة له ، اذ قطع عليه الطريق وقال له ان اليهود يعرفون نعتهم من كتبهم التى تخبرهم بأنه هو النبي الذى يقضى على نفوسهم ، ويحطم سسلطانهم ، ويذيل دولتهم ، وهم لذلك يطلبون دمه ، ويريدون قتله ، وفى سورة القصص قوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون ، واذا يتلى عليهم قالوا آمنا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين ، أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤون بالحسنة السيئة ، ومما رزقناهم ينفقون ، واذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ، وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين » وهى تحكى قصة الذين آمنوا بمحمد - صلى الله عليه وسلم - وقد كان لهم علم سابق بمقدمه الى الدنيا ، ورسالته الى الناس « آمنا به انا كنا من قبله مسلمين » وربما كانت هذه الآية أيضا من سورة الفتح من قبيل ما نحن بصدده « محمد - رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم ، تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » فانها تسجل على أهل التوراة والانجيل - اليهود والنصارى - أن أوصاف محمد وأصحابه المذكورة عندهم فى التوراة والانجيل وحكاية القرآن عنهم ذلك دليل قاطع لا يتطرق اليه الشك : ويقول سلمان القاوسى صحبت قسيسا ، فكان يقول يا سلمان ، ان الله سوف يبعث رسولا اسمه أحمد يخرج من حبال

تهامة ، علامته أن يأكل الهدية ، ولا يأكل الصدقة » وكان حديث هذا القسيس من أسباب اسلام سلمان . . . وكان عاصم بن عمرو بن قتادة ينقل عن رجال من قومه أنهم قالوا انما دعانا الى الاسلام ما كنا نسمع من أحبار اليهود ، وكانت بيننا وبينهم عداوة وكانوا يتهمدوننا بنبي يبعث سيقتلوننا معه قتل عاد واره . فلما بعث سارعنا اليه حينما دعانا الى الله فأمننا وكفروا . . . وكان أمية ابن أبى الصلت - الشاعر - يقول اني لأجد في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا . . . وقد أخبر النبي - صلى الله عليه وسلم - عن وصفه في التوراة فقال « عبدى أحمد المختار ، مولده مكة ، ومهاجره بالمدينة ، وأمنه الحمادون لله على كل حال . . . وروى القاضي عياض في كتابه الشفاء أن عطاء بن يسار سأل عبد الله بن عمرو بن العاص عن صفة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال « أجل والله انه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن « يا أيها النبي انا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا » وحرزا للأمين ، أنت عبدى ورسولى ، سميتك المتوكل ، ليس بفظ ولا غليظ ، ولا صخاب فى الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء ، بأن يقولوا لا اله الا الله . ويفتح به أعينا عميا ، وآذانا صما ، وقلوبا غلفا » .

وقد دأب بعض اخواننا الذين يتناولون هذا الموضوع « البشارة به في الكتب السابقة » أن ينقلوا اليها نصوصا من التوراة والانجيل لتكون بمثابة الشاهد أو الدليل على هذه الدعوى فى حين أن مصدر الشاهد نفسه غير موثوق به . . . وقد كان كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بجانبى ، ولما فتحت على غير ترقب لما يسعفنى به من الآيات البيّنات ، واذا بتظري يقع على هذه الآيات من سورة البقرة « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الدين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون . . . ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم . . . ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعدما تبين لهم الحق فأعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره ان الله على كل شيء قدير . . . وقالت اليهود ليست النصارى على شيء . وقالت النصارى ليست اليهود على شيء . . . وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » وهى شبهة فى أنهم على علم سابق برسالته - صلى الله عليه وسلم - ولكنهم - كما تقول الآية الكريمة أيضا - « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم » ويظهر أن هذا

الجهود كان لهم من ورائه مصلحة تتصل بنفوذهم وسلطانهم ، فان هؤلاء جميعا تحول بهم الوضع الدينى الذى كانوا يتبوؤونه من دعوة الى الله ، وتخويف من عقابه ، وترغيب فى ثوابه ، الى نفوذ دنيوى ياكلون به لقمة العيش ، وجعلوا أمر الحلال والحرام « قراطيس تبدونها وتخفون كثيرا » ولقد أثبت التاريخ أنهم فعلوا ذلك ، واشتركوا مع رجال الحكم والسلطان فى امتصاص دماء الناس ، وظلم طبقات الشعب ، وتسخير الرعية لخدمتهم ، باسم الدين وصوت الملائة الأعلى ، وهذا هو الذى يرحى به قوله تعالى « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم » وربما كان هذا أيضا من عوامل الصراع القائم بينهم - فيما بعد - « وقالت اليهود ليست النصرارى على شئ » وقالت النصرارى ليست اليهود على شئ » « وقديما قالوا اذا اختلف النصفان ظهر المسروق .. ونحن نترك ذلك كله للتاريخ يلعنهم ، ويسفه آراءهم ، ويهزأ بهم ، ويزدرى تفكيرهم وعقولهم ، ونقول لهم بعد هذا وهذا ما الذى جعلكم تصفون أسماعكم ، وتغلقون قلوبكم ، وتعرضون بوجوهكم ، وتجعلون بينكم وبين محمد - صلى الله عليه وسلم - هذه الحرب ، وقد كان شعاره الذى أعلنه ، ومبدأه الذى التزم به « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا » وهى ميزان دقيق فى علاقة الانسان بربه وعلاقته - كذلك - بأبناء جنسه من الناس « فلا يذل أحد لأحد ، ولا يخضع له خضوع العبد لسيده ، والناس كلهم لآدم .. وآدم من تراب لا فضل لعربى على أعجمى الا بالتقوى .. وبيننا وبين هؤلاء واحدة من اثنتين .. اما أن يدلونا على نقص شريعتنا فنندارك هذا النقص ونكمله من شريعتهم ، أو ندلهم نحن لياخذوا منا ما يكمل ما عندهم ، وحينئذ يكونون قد استجابوا لهذا النداء « تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم » والذى ينشد الحق يستهين بكل صعب يحتمله من أجله ويلقاه فى سبيله .. وقد كانت دعوة الرسل جميعا • تهدف الى الحق ، وترمى الى الصواب ، واحتمالهم للأذى ، ولقاؤهم للعنت • كان لونا من ألوان الجهاد لاقرار الحق ، وسيادة الصواب ، وتمكين ما يجب أن يكون • ولم يكن واحد منهم ينكر دعوة صاحبه ، وما كان كل واحد منهم الا حجرا فى البناء « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله » •

صراعه مع المشركين

التجأت قريش مع النبي صلى الله عليه وسلم إلى العنت والمكابرة بعد أن فشلت في كل محاولة ، وخابت في كل سعي . وأخفقت في كل جهد . ظننا منها أن العنت والمكابرة ينطليان على الأغرار . فيتسرب اليأس إلى نفوسهم ، ويسرى الوهن إلى أفئدتهم ، ولا يكون هذا الرسول في نظرهم إلا صورة للرجل الممرور ، أو الإنسان الأحمق ، الذي يقذف الدعاوى طويلة عريضة من غير دليل . أو يرهان يدعمها ، أو حجة تصدقها . ولم يدر بخلدهم أن زيفهم هذا سينكشف ، وأن سحابة الصيف لابد أن تنقشع . كما لم يدر بخلدهم - كذلك - أن الخصم الذي يلتجئ إلى السلاح الهزيل يعلن من أول وهلة عن افلاسهِ . وضيق عطنه ، وسفاهة رأيه ، وطيش عقله ، وأنه لا يزيد شيئا - في ميزان الحق - عن دموع المرأة التي تفرع إليها حينما يدركها الأعياء . وتلحق بها الهزيمة ، وهم أهل للد ، وأرباب بيان - ودهاقين منطق ، وأساطين بلاغة ، وما كان يظن ظان أنهم سيلجأون إلى هذا الانحدار ، أو يعتمدون على هذه المغالطة ، أو يفرون إلى ساحة الاسفاف ، ويتهافتون إلى ذلك الحد . . والذي يتتبع القرآن الكريم ليقف على ما كان منهم من عنت أو مكابرة يجد الأعاجيب من هذه الأغاليط ، وتلك الأكاذيب ، وربما كان ذلك يبرز في صورة واضحة إذ كانوا يتهمون ما ينزل به الوحي ، ويحجى إليه من ربه ، أنه كان من أملاء رجل رومي يصنع السيوف بمكة لمولاه « عامر بن الحضرمي » وقد قوى هذا الزعم عندهم أن ذلك الرومي من قوم لهم تشريع ، وثقافة ومعرفة ، وأن هذا الذي يردده - صلى الله عليه وسلم - فيه من المنطق . وله من سيما التهذيب والتربية ، وعليه من ملامح الثوق والأدب ، ما يروج لتلك الشبهة القائمة ، وتناسوا أن ذلك

الذى يقرؤه محمد - صلى الله عليه وسلم - من معين عربى بحث ، وبيان
يعربى محض ، ليست عليه سحنة الترجمة ، ولا فيه طابع النقل ، وقد
كان أولى بهم وهم نقدة الكلام ، وأصحاب الذوق الأدبى ، ودهاقين البلاغة ،
أن يلتفتوا الى البون الواسع بين الجنسين ، والفرق البعيد بين البيانين
« لسان الذى يلحدون اليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين » وكان الله
سبحانه وتعالى قد أراد بذلك أن يفضح حالهم ، ويكشف للناس أمرهم
« ليحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين » . ولهذا كانت محاولاتهم
واضحة التلفيق ، ظاهرة التزوير ، حتى بينهم وبين أنفسهم ، وليس
أدل على ذلك من أن القرآن الكريم لسحر بيانه ، وعدوبة لفظه ، وقوة
منطقه ، وشدة أسرته ، ودقة تصويره ، وروعة تعبيره ، كان يستهويهم
جماله ، ويبههم نسجه ، ويأخذهم حسنه ، فلا يملكون أن يتحولوا عنه ،
أو يميلوا الى غير ناحيته . وكانوا لذلك يختلسون الخطى ، ويتنكرون
فى أشكالهم حتى لا يعرفهم أحد . ويتحينون الفرصة السانحة ليستمعوا
منه بعضا مما كان يقرؤه - صلى الله عليه وسلم - على أصحابه . حتى
إذا ما فشا ذلك فيهم . وعرف عنهم . وخافوا أن تتمكن منهم الفرقة .
وأن يتحولوا جميعا الى مفتونين بجرسه . مأخوذين بسحر ألفاظه .
وجمال معانيه . تعاهدوا على الكف عنه . وعدم الاصغاء اليه . أو الاختلاف
الى مجلسه ، وأكدوا بينهم الموائيق على ألا يفعلوا ، ثم كانت النتيجة أن
كبارهم يتلبسون بالجريمة كل يوم . فان عاتب بعضهم بعضا فى ذلك .
أو لامه على أنه خاس بالعهد أو نقض الميثاق ، ادعى أنه كان يتجسس
ليرى هل يذهب أحد ، وكأنما صاروا كلهم جواسيس .

ولما كان الكتاب الكريم قد تضمن قصصا جاء بها للاتعاض . وهو
نوع من التربية الحكيمة ، يأخذ به أرقى الأمم والشعوب فى تنشئة
أبنائهم . كما قال سبحانه « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب
ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وظنوا هم أن محمدا
يؤلف ذلك من خياله ، ويخترعه من وهمه ، قصدا الى التلهى ، وشغل
الوقت . ليلتف حوله الفارغون من العمل . والمتعطلون عن الوظائف .
بعثوا النضر بن الحارث ليطوف الممالك والأمصار . فذهب الى الروم
والفرس ليحجى اليهم بما يشبه كتاب « ألف ليلة وليلة » ليعارض محمدا -
صلى الله عليه وسلم - . ويحول وجوه الناس عنه » ومن الناس من
يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك
لهم عذاب مهين » وفاتهم أن الذى يقصه القرآن الكريم برهان قائم على أن
محمدا لا يخلق ولا يخترع ، ولا يدعى ما يجيء به ، ولا يزعم ما ينقله .
« ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين

... وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ، ولكنا انشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا في اهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين وما كنت بجانب الطور اذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتتذر قوما ما اتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون » وهو تاريخ ليس عندهم علمه ، ولا بأيديهم كتبه ، ولا بين ظهرائهم رواته « ان هو الا وحى يوحى » .

وما كانوا يصدقون ان يكون الرسول من أبناء آدم ، وانما كانوا يتوهمون انه من الملائكة « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق » ونسوا ان الجنس أميل الى جنسه ، وان الانسان انما يأنس الى الفه ، ويميل الى من كان على شاكلته ، « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون » فلما تبين لهم تفاهة هذا الظن وضعف هذا الرأي . وسقوط تلك الدعوى . اتجهوا اتجاها آخر « وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » يقصدون مكة والطائف وقد رد الله عليهم بما يقطع تعنتهم . ويقضى على اعتراضهم ، بأنه هو الذى يضع الأمور موضع الصواب ، ويصرف الأشياء التصريف اللائق « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

أما معارضتهم للقرآن ودعواهم الاتيان بمثله على الرغم من أن كبارهم نصحوا لهم بالسكوت عنه ، والتسليم له ، ووصفوه بالحلاوة والطلاوة والاغداق وكثرة الثمر ، فان حديثه يطول ، وحسبنا أن نقول ، انه تحداهم فعجزوا عن الاتيان بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا . ولم يبق بعد ذلك الا حديثه عن عالم الغيب من الجنة والنار ، والصراط والميزان . والجزاء على الأعمال يوم القيامة ، واعادة الأجسام بعد فنائها ، التى تعرض لها - صلى الله عليه وسلم - فى دعوته ، ليوقع الرهبة فى نفوسهم . والهلع فى قلوبهم . عسى أن يتخوفوا المصير ، ويحذروا سوء العاقبة . وقد كانت هذه - أيضا - محل تندر عندهم - ومجال تكذيب وشك فيما بينهم ، ولا سيما الشجرة التى تنبت فى أصل الجحيم ، ليأكل منها أهل النار ، فيشتد بهم الظم . ثم لا يجدون ماء يرتوون منه ، مبالغة فى العذاب والايلام « ان شجرة الزقوم طعام الأثيم كاللؤلؤ فى البطون كغلى الحميم » . والتى جاء ذكرها فى مكان آخر حيث يقول جل جلاله « انها شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلوعا كأنه رؤوس الشياطين » ولم يعقلوا أن تنبت شجرة فى النار ، وتعيش فيها مع شدة اللمب ، وسبب ذلك أنهم قاسوا الدنيا على الآخرة ، وقدرة المخلوق على قدرة الخلق ، وما علموا أنه تعالى على كل شئ قدير . . وكان لخباب بن الأرت دين على واحد من هؤلاء الكفرة فلما طالبه به قال له

يا خباب سادفعه لك يوم الحساب • يريد بذلك أن يتخلص منه • مع أن عقلاءهم تحدثوا به كما جاء في خطبة قس بن ساعدة الايادي • ولم ينكره الا هؤلاء الملاحدة الذين حكى عنهم القرآن بقوله « ان هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » ويقول المرحوم الشيخ الخضري « ولما جهر عليه الصلاة والسلام بالدعوة سخرؤا منه ، واستهزؤا به ، فكان اذا مر عليهم يقولون هذا ابن ابي كبشة يكلم من السماء ، وهذا غلام عبد المطلب يكلم من السماء • لايزيدون على ذلك • فلما عاب آلهتهم ، وسفه عقولهم • وقال لهم والله يا قوم خالفتم دين ابيكم ابراهيم ثارت في نفوسهم حمية الجاهلية غيرة على تلك الالهة التي كان يعبدونها آباؤهم • فذهبوا الى عمه ابي طالب سيد بنى هاشم الذي أخذ على نفسه حمايته من أيدي أعدائه • فطلبوا منه أن يخلى بينهم وبينه ، أو يكفه عما يقول • فردهم ردا جميلا فانصرفوا عنه ، ومضى رسول الله لما يريد ، لا يصده عن مراده شيء ، فتزايد الأمر ، وأضمرت قريش الحقد والعداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم - • وحث بعضهم بعضا على ذلك ، ثم مشوا الى ابي طالب مرة أخرى • وقالوا له ان لك سن وشرفا ومنزلة منا ، وانا قد طلبنا منك أن تنهى ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه عقولنا وعيب آلهتنا ، فانهم كانوا اذا احتجوا في استمرارهم على عدم اتباع الحق ذمهم لعدم استعمال عقولهم فيما خلقت له • ولما تمسكوا بحجة التقليد لآبائهم جر ذلك الى وصف آبائهم بعدم العقل وعدم الهداية « أو لو كان آباؤهم لا يقولون شيئا ولا يهتدون » فهاج ذلك أضغانهم وقالو لأبي طالب اما أن تكفه أو ننزلك وإياه ، فعظم على ابي طالب فراق قومه ، فرجاه أن يكف ، فظن أنه خاذله • فقال له والله يا عمي الخ • فقال أبو طالب قل يا بن أخي فوالله لا أخذك ولا أسلمك •

أما الأستاذ الدكتور أحمد الشريف فإنه يلخص هذه المواقف فيقول « لقد اتخذت قريش أساليب مختلفة في مقاومة الدعوة الجديدة • • • بدأت المقاومة سلبية أول أمرها ، فقد أظهر رجال الملة عدم الاكتراث بالدعوة الجديدة ، ونظروا اليها نظرة استخفاف ، فلم تعنهم كثيرا وطلبوا صاحبها من أمثال ورقة بن نوفل وزيدا ابن عمرو بن نفيل من الساخطين على الأصنام الباحثين عن الحنيفية أو غيرها من الأديان الأخرى ، وان كان يختلف عنهم في أنه يخبر أنه يتلقى من السماء الوحي ، وكان يحلو لهم أن يشيروا اليه كلما رأوه « هذا ابن عبد المطلب يكلم من السماء » • • • لكنهم ما لبثوا أن أدركوا أن الأمر أخطر مما تصوروا ، فان محمدا يكتسب كل يوم أصحابا من رجالهم ومواليهم يتابعونه ويؤمنون به نبيا ورسولا ،

وأن هؤلاء الأصحاب ينشطون معه في الدعوة لدينه ، ثم يروونه يجمع
 عشيرته من بني هاشم ، ويدعوهم الى الايمان بما يقول ، ويحاول أن
 يجعل منهم كتلة حوله . ويرون عمه أبا طالب زعيم البيت الهاشمي ،
 وإن كان لم يتابعه الى ما يدعو اليه . فهو يشجعه ويقف الى جانبه .
 ويرون محمدا يكثر الاجتماع بأصحابه الذين آمنوا به . وهم رجال كل
 البطون القرشية . وهو يتعرض للأصنام يسبها . ولقریش يسفه
 أحلامها . ويكفر آباءها ، واذن فهو أمر بقریش لا يصح السكوت عليه .
 ولما كان رجال الملأ يدركون قيمة العصبية ، ويخشون خطرها لو تعرضوا
 لمحمد بالسوء فقد لجأوا الى أبي طالب يطلبون اليه أن يتدخل لمنع ابن أخيه
 من التعرض بالمهانة لمقدسات القبيلة وحرمانها ، فهم لا يطيقون صبرا على
 شتم الآلهة ، وتسفيه الأحلام ، وتضليل الآباء . ويلاين أبو طالب قومه
 ويردهم بالحسنى ، ولكنه لا يمنع محمدا ، ولا يتوقف محمد عما أخذ فيه ،
 ويعاود رجال الملأ الطلب ، ويشفقون طلبهم بالعرض . فهم يعرضون أن
 يتركوا محمدا وما يدعو اليه على ألا يتعرض لسب الآلهة ، وشتم الآباء ،
 ثم يعرضون أن يقدموا رجلا من خير أبنائهم بدلا عن محمد يتبناه أبو طالب
 على أن يسلم اليهم محمدا ليقتلوه إن كان قد عجز عن رده ، فانه يدمر
 وحدة القبيلة ، ويهدد مكانتها ، ويستنكر أبو طالب هذا العرض . ولقد
 فكر رجال قریش بحسب ما يفهمون من مثل الحياة عندهم ، وظنوها من
 محمد عملا للوصول الى غرض من أغراض الحياة وحسبوا من وقوف
 بني هاشم الى جانبه نزعة الزعامة ، وغاية الى الرياسة ، فاستجابوا
 لاقتراح تقديم به عتبة بن ربيعة - أحد سادات قریش - حيث قال
 ألا أقوم الى محمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا لعله يقبل بعضها فنعطيه
 أيها شاء ، ويكف عنا . فقالوا بلى يا أبا الوليد قم اليه فكلمه . فقال
 عتبة حتى جلس الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . فقال يا ابن
 أخي . . انك منا حيث قد علمت . . من السلطة في العشيرة ، والمكان
 في النسب . وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ،
 وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من
 آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل بعضها .
 فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قل يا أبا الوليد . . قال
 يا ابن أخي ان كنت انما تريد بما جئت من هذا الأمر ، مالا جمعنا لك من
 أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا ،
 وإن كان هذا الذي يأتيك رثيا من الجبن لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا
 لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه . فانه ربما غلب التابع
 على الرجل حتى يداوى منه ، وحين أتم عتبة كلامه ، لم يزد النبي -
 صلى الله عليه وسلم - على أن تلا عليه شيئا من القرآن بهره فرجع الى

قومه فقال لهم ، انى سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو
بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . . . وقد يئست قريش من اغراء محمد
فاتخذت طريق الجدال والانكار والاستهزاء والتعجيز بالأسئلة . واللاحاح
فى طلب المستحيل من الأعمال مع التصميم على الانكار ، لكن ايمان محمد
برسالته وبما يوحى اليه كان أعظم من أن ينال منه انكار المنكرين ،
واستهزاء المستهزئين ، عند ذلك لجأت الى طريقة الاضطهاد والتعذيب
للمسلمين حتى تخيفهم فتردهم عن دينهم .

المعذبون

لما لم تغلج قريش في رد محمد - صلى الله عليه وسلم - عن طريقه الذي سلكه . ولا عن دعوته التي آلى على نفسه الاستمرار فيها حتى النهاية . لا تحوله عنها قوة ، ولا يصدده طغيان . وقد خاب ظنهما في أبى طالب الذي لم يرض أن يتخلى عن ابن أخيه أو يخذله أو يسلمه ، وإنما يقف بجانبه ويدافع عنه . مهما كلفه ذلك كله من ثمن . وقد كانت ترجى وهو لا يزال على دينهما أن ينتصر لهما ويضرب بسيفها ، إلا أن شينا من ذلك لم يتحقق . وكان من الضروري - والحرب لا أخلاق لها - أن تستعمل معه - صلى الله عليه وسلم - أحقر الأساليب . وأقذر الأسلحة ، فلا تتورع عن إيلام . ولا تتعفف عن كيد . ولا تتأبى عن ضرر ، ولم تكتف بما كانت تلجأ اليه من قبل ، مثل القاء الأوساخ عليه وهو مار في الطريق ، أو ساجد في الصلاة ، ولا أن يكون ذلك من الصبيان والنساء . وإنما يكون من الكبار والوجوه والأعيان . . . وكان الباعث الأول على ذلك أن ينفض أصحابه من حوله ، وأن ينصرف أتباعه عنه ، وأن يتفرق المسلمون الذين كانوا يلتفون حوله . ليقف وحده في الميدان أشبه بفلول الجيش المهزوم أن لم تهرب من ساحة المعركة تتعرض للأسر والتنكيل . ولقد نجحت في ذلك كله إلى حد ما ، وأصبحت مكة كلها تنكره وتتوارى بوجهها عنه ، فلا تفتح أبوابها له ، ولا تبادلته التحية ، ولا يقبل كفارها بحال من الأحوال أن يرتفع صوته فيهم ، أو تدوى دعوته بينهم . كما أصبح المسلمون هنالك مهددين بالردة والانسلاخ عن عقيدتهم الجديدة ، ولقد عاد إلى الكفر قوم من ضعاف الإيمان حينما أحسوا أنهم معرضون للموت ، وهكذا يكون العنت الفاحش ، والإيلام القدر . والكيد الوضيع ، والخصومات التي يسودها البغى والفجور . . . إلا أن النبى -

صلى الله عليه وسلم - لم يكن ليشك أنه هو والمسلمون معه سيلاقون الهوان . ويحتلمون الضيم ، ويمتحنون أشد أنواع الامتحان وأقساها « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله » والايامن الصادق ، والعقيدة الراسخة ، واليقين القوى . والاذعان الصحيح . اذا عمر بها قلب المسلم لا يبالي بالصعاب ، ولا يابه بالشدائد . ولا يهتز للمحن ، وقديما آمن السحرة بموسى بعد أن عمرت ضمائرهم بهديه وضاعت بصائرهم بدينه . وامتلأت أفئدتهم ثقة به . فلما هددهم فرعون بالقتل لم يكثرنوا بتهديده ، ولم يضطربوا لوعيده . وقالوا له « لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى » . وكذلك فعل أصحاب العزائم القوية من أصحاب محمد - صلى الله عليه وسلم - ، فلم يفرطوا فى دينهم ، أو يتحولوا عن نبيهم على الرغم من المشقات التى كانت تتوالى عليهم . والايام الذى كان يحبل بهم . وهذا هو بلال الحبشى مؤذن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وقد كان مملوكا لأمية بن خلف الجمحى يلاقى من مولاه هذا ما لا تجتمله الجبال ، ولا تصبر عليه النعال ، ثم لا يؤثر ذلك فى عقيدته ، ولا يصرفه عن طيبته ، ولا يجعل قناته تلين لغامز ، إذ يخرج أمية إلى الرمضاء فى وهج الظهيرة ، ويأمره أن يرمى بجنبه العارى فوقها ، ثم يكلفه حمل الحجر الثقيل ، ويقول له يستظل كذلك حتى تموت أو ترجع عن دين محمد ، فلا يكون رده عليه إلا أن يقول أحد أحد والتاريخ يحدثنا أن أبا بكر رضى الله عنه أنقذ كثيرا من الموالى بشرائهم واعتاقهم أمثال بلال مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولعل اسلام هؤلاء الموالى مع تعرضهم لهذه القسوة من أسيادهم دليل واضح على أن هذا الدين يتخطى الحواجز ، ويقطع الحديد ، ويقتحم الأسوار ، ولا يغلب سلطانه جبوت الطغاة ، ولا ارادة المتكبرين ، ولا بطش المصلطين . وكانت قصة التعذيب هذه كالمؤامرة العامة التى تحالفوا على انجازها ، وتعاهدوا على تنفيذها ، من غير محاباة ولا استثناء ، ولذلك لم تسلم قبيلة من القبائل من وصمتها ، ولا بحى من الاحياء دون أن يتدنس بعارها . حتى عمر بن الخطاب انحدر فى ذلك - قبل اسلامه - فنكل بجارية له . وبالغ فى تعذيبها . وطلب اليها أن تعود الى عبادة اللات والعزى ، ولم يفك خناقها ، ويحل وثاقها ، غير أبى بكر الذى اشتراها وأعتقها . أما آل ياسر عمار وأبوه وأمه فانهم صورة أخرى للفساد والتضحية ، والثبات على المبدأ ، والتمسك بالحق ، والتفانى فى ذات الله ، والاستهانة بكل شدة فى سبيل العقيدة التى تعمر القلب ،

وتملأ الصدر ، وتحيا بها الروح في دنيا السعادة والبهجة ، والرضا والارتياح ، استبد بهم بنو مخزوم ، يسومونهم الظلم ، ويحملونهم على الكفر • وينكلون بهم التنكيل الذي لا ترضى به الانسانية ، ولا تقبله الكرامة ، ولا تستسيغه الأخلاق ، والذي كان أقله التعذيب بلفح الشمس ، وحرارة الرمضاء • وهو الأمر الذي لم يتحملة الرجل المتهدم أبو عمار - ياسر - اذ لفظ أنفاسه في حرارة الشمس ، وطأ القلب ، وجوع البطن ، وإيلام الروح ، وتعذيب البدن • ولا سيما وقد رأى أبا جهل اللعين يطعن زوجته في بطنها الطعنة التي أودت بحياتها ، وليس بعد ذلك كله طغيان يضدر عن نفوس قاسية • وقلوب جاحدة • ممعنة في الشر ، متناسية للأخلاق • ولعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان أله أشبه لأنه لم يكن يملك لهؤلاء جميعا سوى الرثاء والحسرة ، والألم والحزن • واللوعة والجزع « صبرا آل ياسر فان موعدكم الجنة » • وقد كان يقول لخباب بن الأرت حينما ضج من الألم ، وضجر من التعذيب ، وطلب منه أن يدعو الله له ليكشف عنه هذه الغمة • ويفرج عنه تلك الكربة • « يا خباب إنكم تتعجلون ، لقد كان الرجل ممن قبلكم يمشيط بأمشاط الحديد فلا يرد ذلك عن دينه » • وفي الحق انها لمحنة ليس بعدها تلك التي أصيب بها المسلمون في هذا الوقت لكن الذي يتذكر قذف الثمرود لإبراهيم عليه السلام في النار • وقصة أصحاب الأخدود التي ورد ذكرها في القرآن الكريم « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود اذ هم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » يؤمن أن الانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، وأن العقيدة كانت في كل وقت عند أصحابها الشيء الذي لا يستهان به ، ولا يتهاون فيه ، وأن أصحاب العقائد كانوا أبدا مثل الأعلى للثبات والصمود وعدم التحول أو الانحراف • وقد يكون من المألوف في الصمود والثبات واحتمال الأذى • والاستهانة بالشدائد في سبيل العقيدة أو المبدأ أو ما شاكل ذلك أن يكون أصحاب هذه المواقف من الرجال لامن النساء فان الرجال كانوا دائما أبدا أصحاب هذا الاحتمال • لكن المرأة وهي هذا المخلوق الضعيف الذي لم يألّف المشاق ، أو لم يتعود الشدائد ، كأن الزج بها في هذا الميدان ظلما صارخا • وهو في الوقت نفسه عنوان على أن الذي يزج بها في هذا المعترك قد تجرد من المروءة وخلا عن الذوق ، وخربت نفسه من معاني الانسانية • ولذلك فان الذي يقرأ قصص هذا التعذيب الذي لاقاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقع بعصره وهو يتابع هذا القصص على اسم جارية من الجوارى أو امرأة من النساء لا يسعه الا أن يقابل ذلك بالامتعاض الشديد • وقد كان يظن أن أم عمار بن ياسر انما تناولها التعذيب لأنه كان موجها للأسرة كلها رجالا

ونساء • على أن المفروض في المرأة على الجملة ألا تكون زعيمة يقلدها الجمهور • أو يتأسى بها العامة • لهذا كان التعرض لها بالايلام أو التعذيب غير جائز •• وقد ذكرت كتب السيرة أسماء اثاث تعرضن لهذا الامتحان كما تعرض الرجال سواء بسواء وهو ان دل على شيء فانما يدل على القسوة والغلظة وأن الروح الباعثة على الايذاء كانت من الضراوة والقسوة بحيث تخلع على أصحابها ألقاب السفاكين أو الفجرة على الأقل •• من هؤلاء الاناث « زينة » التي كان يعذبها عمر بن الخطاب قبل اسلامه • وقد انضم اليه في تعذيبها أبو جهل الذي ظل ينكل بها حتى عميت • فلما عميت قال لها ان اللات والعزى فعلا بك ذلك • فقالت وما تدري اللات والعزى من يعبدهما ، ولكن هذا الأمر من السماء ، وربى قادر على رد بصرى : فأصبحت من الغد وقد رد بصرها ، ومنهن بثينة جارية بنى المؤمل ، والنهدية مولاة بنى نهد •• ومنهن « أم غنيس » أمة لبني زهرة كان سيدها يعذبها •• وأخبار التعذيب هذه وإن كان تسيء الى الخلق العربى • والضمير العربى ، فإنها باتصالها بالنساء تكون أكبر إساءة • وأعظم عارا • ويبقى بعد ذلك كله سؤال نوجهه الى هؤلاء الذين زعموا أن دين محمد - صلى الله عليه وسلم - قد انتشر بالسيف لا بالحجة ، وبالإلحاح لا بالاختيار ، وبالعنف لا بالدليل • وهو كيف كان هؤلاء المعذبون يسخرون من القوة المسلطة عليهم • والجبروت المتحكم فيهم • ثم ألم يكن تمسكهم الى هذا الحد بالعقيدة دليل على أن هنالك ادعانا واختيارا وإيمانا خالط اللحم والدم •• وإذا كنا ونحن نذكر هؤلاء الأسماء من الرجال أو النساء كصور للتعذيب الذى لاقاه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى سبيل العقيدة أو المبدأ ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أروع صورة مدى حياته كلها منذ أول يوم حمل فيه الأمانة وأدى الرسالة وجاهد فى الله حق جهاده •

المستهزئون

كانت حروب المشركين للنبي - صلى الله عليه وسلم - متعددة الميادين ، متنوعة الأسلحة • لأن عداوتهم الشديدة : وحقدهم الكالح • وغيظهم الدفين • وما سوى ذلك من ألوان الكراهية • شغلت تفكيرهم ، وملأت قلوبهم ، فجعلوا يبدعون ويخترعون في الكيد له - صلى الله عليه وسلم - ، وتعكير صفوه • رجاء ألا يهدأ له بال ، أو تستقر له حال • وقد باشروا في حربه ، والتنكيل به • والخصومات له • والتنقيص عليه ، والصد عنه • كل لون يدور بخلد الأشرار • ويخطر بذهن عصابات الاجرام الا أن القرآن الكريم خص جماعة من هؤلاء باسم المستهزئين في قوله جل جلاله في آخر سورة الحجر « انا كيفناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون ، واقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ، فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ، واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وذلك لأنهم مع الاعراض عنه ، والتكذيب له ، والتشويش عليه ، كانوا يزيدون على غيرهم بنوع من الحرب وهو السخرية والاستهزاء • ومن غريب المصادفات أن يكون فيهم أحد أعمامه ، وهو ما يضاعف من الجريمة ، ويزيد في ايلامها ، وسوء وقعها ، وشناعة ماتاها • وقد ذكر الفخر الرازي في تفسيره أنهم خمسة • الوليد بن المغيرة ، والعاص بن وائل ، وعدي بن قيس ، والأسود بن المطلب ، والأسود بن عبد يغوث ، قال جبريل لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا أكفيكم ، فأوماً الى عقب الوليد فمر بنبال فتعلق بثوبه سنهم ولم ينعطف لأخذه فقطعه فمات ، وأوماً الى أخمص العاص بن وائل فدخلت فيه شوكة فقال لدغت وانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات ، وأشار الى عيني الأسود بن المطلب فعنى ، وأشار

الى انف عدى بن قيس فامتخط قبيحا فمات ، وأشار الى الأسود بن عبد يغوث وهو قاعد فى أصل شجرة فجعل ينطح رأسه بالشجرة ويضرب وجهه بالشوك حتى مات . . ثم قال واعلم أن المفسرين قد اختلفوا فى عدد هؤلاء المستهزئين وفى أسمائهم . وفى كيفية طريق استهزائهم . ولا حاجة الى شئ منها ، والقدر المعلوم أنهم طبقة لهم قوة وشوكة ورياسة لأن أمثالهم هم الذين يقدرون على اظهار السفاهة مع مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى علو قدره . وعظم منصبه . وقد دل القرآن على أن الله أفناهم وأبادهم وأزال كيدهم . . الا أن الشيخ الخضرى - على عادته من الدقة والتحري - يتحدث عنهم فيقول « وراى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كثير الأذى . وعظيم الشدة ، خصوصا اذا ذهب الى الصلاة عند البيت ، وكان من أعظمهم أذى جماعة سمووا لكثرة أذاهم بالمستهزئين . »

فأولهم وأشدهم أبو جهل عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي - خال عمر بن الخطاب - قال يوما يامعشر قريش ان محمدا قد أتى ما ترون من عيب دينكم ، وشتم آلهمكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم ، انى أعاهد الله لأجلسن له غدا بحجر لا أطيق حمله ، فاذا سجد فى صلاته رضخت به رأسه ، فأسلموني بعد ذلك أو امنعوني . فليصنع بى بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، فلما أصبح أخذ حجرا كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ينتظره ، وغدا عليه السلام كما كان يغدو الى صلاته ، وقريش فى أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد عليه السلام احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه حتى اذا دنا منه رجع منهزما متقعا لونه من الفزع ورمى حجره من يده فقام اليه رجال من قريش فقالوا مالك يا أبا الحكم . قال قمت اليه لأفعل ماقلت لكم فلما دنوت منه عرض لى فجل من الأبل . والله ما رأيت مثله قط وقد هم أن ياكلنى . فلما ذكر ذلك لرسول الله ، قال ذاك جبريل ولو دنا لأخذه ، وكان أبو جهل كثيرا ما ينهى الرسول عن صلاته فى البيت ، فقال له مرة بعد أن رآه يصلى ألم أنك عن هذا . فأغلظ له رسول الله القول وهدده . فقال له أنهدني وأنا أكثر أهل الوادى ناديا ، فأنزل الله تهديدا له فى آخر سورة اقرأ « كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه . سندعو الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب » ومن أذيته للرسول ما حكاه عبد الله بن مسعود من رواية البخارى قال كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى فقال أبو جهل ألا رجل يقوم الى فرث جزور بنى فلان فيلقيه على محمد وهو ساجد فقال عقبة بن أبى معيط بن أبى عمر بن أمية بن عبد شمس وجاء بذلك الفرث فألقاه على النبى -

صلى الله عليه وسلم . وهو ساجد فلم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا في المسجد على القائه عنه لضعفهم عن مقاومة عدوهم . ولم يزل عليه السلام ساجدا حتى جاءت فاطمة ابنته فأخذت القدر ورمته فلما قام دعا على من صنع به ذلك : فقال اللهم عليك الملا من قريش وسمى أقواما قال ابن مسعود وقد رأيتهم قتلوا يوم بدر . . . ومما حصل لرسول الله مع أبي جهل أن ابتاع أجالا من رجل يقال له الأراشي فمطله بأثمانها فجاء الرجل مجمع قريش يريد منهم مساعدة على أخذ ماله . فدلوه على رسول الله لينصفه من أبي جهل استهزاء لما يعلمونه من أفعال ذلك الشقي بالرسول ، فتوجه الرجل اليه وطلب منه المساعدة على أبي جهل ، فخرج معه حتى ضرب عليه بابه ، فقال من هذا . . قال محمد . . فخرج ممتعاً لونه ، فقال له الرسول أعط هذا حقه . فقال أبو جهل لا تبرح حتى تأخذه ، فلم يبرح الرجل حتى أخذ دينه ، فقالت قريش ويلك يا أبا الحكم ما رأينا مثلاً ما صنعت . قال ويلكم ما هو إلا أن ضرب على بابي حتى سمعت صوتاً ملئت منه رعباً وان فوق رأسى فحلا من الأبل ما رأيت مثله . .

ثانيهم : أبو لهب بن عبد المطلب عم رسول الله كان أشد عليه من الأباة ، فكان يرمي القدر على بابه لأنه كان جارا له . فكان الرسول يطرحه ويقول يا بني عبد مناف أي جوار هذا . . وكانت تشاركه في قبيح عمله زوجته أم جميل بنت حرب بن أمية ، إذ كانت كثيرا ما تسب رسول الله وتكلم فيه بالنائم ، وخصوصا بعد أن نزل فيها وفي زوجها السورة « تبت يدا أبي لهب » .

ثالثهم : عقبة بن أبي معيط كان الجار الثاني لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - . وكان يعمل معه كأبي لهب . صنع مرة وليمة دعا إليها كبراء قريش وفيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال والله لا أكل طعامك حتى تؤمن بالله فتشهد فبلغ ذلك أمية بن خلف الجمحي القرشي وكان صديقا له . فقال ماشيء بلغني عنك قال لا شيء دخل منزلي رجل شريف فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم فشهدت له . . قال وجهي من وجهك حرام ان لقيت محمدا فلم تطأ عنقه ، وتبصق في وجهه . وتلطم عينه ، فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فأنزل الله فيه من سورة الفرقان « ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلانا خليلا لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولا » . . ومن أشد ما صنعه ذلك الشقي برسول الله ما رواه البخاري في صحيحه قال بينما النبي في حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط

فوضع ثوبه فى عنق رسول الله فخنقه خنقا شديدا ، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبه ودفعه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال « أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » .

وابعهم : العاصى بن وائل السهمى القرشى - والد عمرو بن اعاص - كان شديد العداوة لرسول الله ، وكان يقول عن محمد أصحابه أن يحيوا بعد الموت . والله ما يهلكنا الا الدهر . فقال الله ردا عليه فى دعواه من سورة الجاثية « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر ما لهم بذلك من علم ان هم الا يظنون » وكان عليه دين لحباب بن الأرت فتقاضاه إياه فقال العاصى أليس يزعم محمد هذا الذى أنت على دينه أن فى الجنة ما يتبغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم . قال حباب بلى ، قال فأنظرني الى هذا اليوم . فسأوتى مالا وولدا وأقضيك دينك ، فأنزل الله فيه من سورة مريم « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقل لأوتين مالا وولدا ، أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهدا . كلا سنكتب ما يقول ونمد له من العذاب مدا ونرثه ما يقول ويأتينا فردا ؟ » .

الخامس : الأسود بن عبد يغوث الزهرى القرشى من بنى زهرة أحوال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان اذا رأى أصحاب النبي مقبلين يقول قد جاءكم ملوك الأرض استهزاء بهم لأنهم كانوا متقشفين ، ثيابهم رثة ، وعيشهم خشن ، وكن يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم أما كلمت اليوم من السماء .

السادس : الأسود بن المطلب الأسدى ابن عم خديجة . كان هو وشيعته اذا مر عليهم المسلمون يتغامزون وفيهم نزل قوله تعالى من سورة المطففين « ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون واذا مروا بهم يتغامزون واذا انقلبوا الى أهلهم انقلبوا فكهين واذا رأوهم قالوا ان هؤلاء لضالون » .

السابع : الوليد بن المغيرة عم أبى جهل . كان من عظماء قريش فى سعة من العيش . سمع القرآن مرة من رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال لقومه بنى مخزوم والله لقد سمعت من محمد آثفا كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن وان له حلاوة وان عليه لطاولة ، وان أعلامه لمصر وان أسفله لمغدق وانه يعلو وما يعلى عليه ، فقالت قريش صبا والله الوليد ، لتصيان قريش كلها ، فقال أبو جهل أنا أكفيكموه ، فتوجه نحوه وقعد اليه حزينا وكلبه بما أحماه فقام فأتاهم فقال تزعمون أن محمدا مجنون فهل رأيتموه يهوس ، ويقولون انه كاهن فهل رأيتموه يتكهن ، وتزعمون انه شاعر فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط . وتزعمون انه كذاب

فهل جربتم عليه شيئا من الكذب . . فقالوا فى كل ذلك اللهم لا . . ثم قالوا فما هو . ففكر قليلا ثم قال ما هو الا ساحر . . أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه . فارتج النادى فرحا فأنزل الله فى شأنه فى سورة المدثر مخاطبا لرسوله « ذرنى ومن خلقت وحيدا ، وجعلت له مالا ممدودا ، وبنين شهودا ، ومهدت له تمهيدا ، ثم يطمع أن أزيدا ، كذا انه كان لا يأتنا عنيدا ، سارقه صعدوا ، انه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا الا سحر يؤثر ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر » وأنزل فيه أيضا فى سورة « ن » ولا تطع كل حلاف مهين ، هماز مشاء بنميم ، مناع للخير معتد أثيم ، عتل بعد ذلك زنيم ، أن كان ذا مال وبنين ، اذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسime على الخرطوم . »

الثامن : النضر بن الحارث العبدري من بنى عبد الدار بن قصي كان اذا جلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مجلسا للناس يحدثهم ويذكرهم ما أصاب من قبلهم قال النضر هلموا يامعشر قريش فاني أحسن منه ثم يحدث عن ملوك فارس . وكان يعلم أحاديثهم . ويقول ما أحاديث محمد الا أساطير الأولين ، وفيه نزل من سورة لقمان « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . واذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كان لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا فبشره بعذاب أليم » وكل هؤلاء انتقم الله منهم كما قال تعالى فى سورة الحجر « انا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله الها آخر فسوف يعلمون » فمنهم من مات قتيلا كآبى جهل ، والنضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط ، ومنهم من ابتلاه الله بأمراض شديدة هلك منها كآبى لهب والعاص بن وائل السهمى والوليد بن المغيرة . وهكذا يصدق قوله جل جلاله « انا لننصر رسلنا والذين آمنوا » .

التحدى الباطل

لم تترك قریش مع النبی صلی الله علیه وسلم باباً من العناد الا ولجته ، ولا أسلویاً من الايلام الا اتخذته . ولا طريقاً للأذى الا سلكته ، وقد تحداهما بالعقل فلم تخضع ، وجادلها بالمنطق فلم تدعن ، ودعاها بالحيسنى فلم تستجب ، وفى كثير من أحوالها معه . ومواقفها منه ، كان ضعفها بادياً ، وهزالها واضحاً ، وصغار سلوكها ظاهراً ، وإذا كانت الحرب أنبل ما تكون بين الطرفين حينئذ تكون متكافئة العدد والعدة ، والسلاح والميدان ، فإن قریشاً فى كل مناوأتها له صلى الله عليه وسلم . أو خروجها عليه ، أو عنادها له ، أو مناوأتها إياه ، لم تراع هذا القانون ، أو تلتزم بهذا المبدأ ، وفى الوقت الذى كان سلاحه هو المنطق البحت ، والعقل الصراح ، والتفكير السليم ، والرأى الصواب ، والحجة الواضحة ، والبرهان القاطع . كانوا هم يعتمدون على بداءة اللسان ، وفحش القول ، واختلاق الدعاوى ، واختراع التهم ، والتخبط فى المواقف ، والاعتماد على المكابرة ، والالتجاء الى المهاترة ، وأساليب الصبيان ، وردود الحمقى ، ولو كان لهم حكومة عادلة ، أو قضاء نزيه ، أو رأى سديد . لدانهم من أول وهلة بأنهم لا يطلبون الحق ، ولا ينشدون الانصاف ، ولا يستريحون للأوضاع السليمة ، وقد دل تاريخهم التافه ، وحياتهم المضطربة ، ومنطقهم المتخبط ، وسلوكهم الآفن ، على أن فى مواقفهم مع النبی صلی الله علیه وسلم من التحدى الباطل ما لا يمكن بحال من الأحوال أن ينسب الى قوم فيهم بقية من عقل ، أو أثاره من رأى وهل كان من العقل مثلاً أن يطلبوا منه أن يتبادلوا وإياه عبادة الآلهة ، يعبدون ربه هوئاماً من الوقت ليعبد هو كذلك آلهتهم الثلاث والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، وهو - كما نرى - اقترح لا مغزى له . ولا فائدة منه ، ولا منطق وراءه « قل يا أيها

الكافرون لا أعبد ما تعبدون ، ولا أنتم عابدون ما أعبد ، ولا أنا عابد ما عبدتم ، ولا أنتم عابدون ما أعبد . لكم دينكم ولى دين « اللهم الا أن يكون ذلك منطق الأطفال ، وتفكير الصغار ، وعبث الحمقى ، ومثل هذه النصرفات ، وذلك السلوك ، لا يحسم خلافا ، ولا ينهى نزاعا ، ولا يصل باثنين يقوم النزاع بينهما على حق وباطل أن يضعأ أيديهما على ضالتهما المنشودة ، وانما يخرج بالقضية المتنازع عليها الى أن تصير كرة يركلها برجله كل واحد من الطرفين ، وقد كان ذلك لونا من التحدى الذى نزل بأصحابه عن مستوى المسؤولية على كل حال . . . وربما كان أكثر من هذه الصورة فى باب الهزال والهراء ، والخرف والحمق ، والسذاجة واللهو ، والطفولة والحدائث ، أن يطلبوا منه صلى الله عليه وسلم أن يطرح جانبا من القرآن الكريم تلك الآيات التى تتناول آلهتهم ، وتسفه أحلامهم ، وتوعدهم بسوء المصير ، كأن ذلك من حقه أن يفعله « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى ان اتبع الا ما يوحى الى انى أخاف ان عصيت ربه عذاب يوم عظيم » والخصومة التى تصل الى هذا الحد تتحول من كونها خصومة الى تعنت ، ويتحول الصراع الجدى فيها الى ما يمكن أن يسمى مهاجرة ، لأن الشأن فى الجدل أن يكون رأيا آخر ، وحجة تقاوم أخرى ، ومنطقا يظل منطقا ، فإذا خلا من ذلك كله كان هذرا أو هذيانا أو سفسطة على أن السفسطة تزعم المنطق أو تدعيه ، لكن هذا اللون من الصراع لا يقوم على المنطق ولا يدعيه أو يزعمه ومن هذه الألوان التافهة من الاقتراحات - أو التحدى - طلبهم منه صلى الله عليه وسلم أن يطرد من مجلسه جماعة الفقراء من المسلمين ، ان كان يريد من هؤلاء الاغنياء أن يكونوا على دينه ، يعملون بشريعته ويؤمنون بكتابه ، لأن وضعهم الاجتماعى لا يسمح لهم أن ينزلوا الى هذا المستوى ، أو ينحدروا الى ذلك الوضع . ولكن دينه الذى سوى بين الناس . وأذاب الفوارق بين الطبقات ، وجاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى » رفض هذا الاقتراح . ولم يستجب لذلك الطلب . وصرخ فى أذنيه بهذا الصوت « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه ، ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطا » وهو الزام للنبي صلى الله عليه وسلم ألا يزن الناس الا بميزان الدين ، غير ملتفت الى جاه أو سلطان ، وثروة أو غنى ، حتى ولو كان ذلك من قبيل تأليف قلوبهم . أو الاغراء لهم بأنه سيجعل لهم فى المستقبل فضل السبق ، أو ميزة التقديم والصدارة ، ولقد حدث مرة أن وفد عليه صلى الله عليه وسلم صناديد قريش فاستقبلهم بحفاوة ، واهتم بهم اهتماما عظيما . وكان يرجو من وراء ذلك أن يسلموا ليكون

إسلامهم هذا سببا في اسلام خلق كثير . وهنالك حضر اليه عبد الله بن أم مكتوم وأخذ يلح عليه أن يعلمه القرآن ، وقد تفاضى عنه صلى الله عليه وسلم مرة وأخرى حتى لا يحول اشتغاله به ، وانصرفه اليه ، بينه وبين هؤلاء الصناديد . لكن عبد الله بن أم مكتوم ألح وبألف في الإلحاح . وحينئذ نزل عليه قوله تعالى « عبس وتولى أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى الخ السورة » فكان الرسول بعد ذلك يكرمه اذا رآه ، ويسط له رداه . ويقول له . . . مرحبا بمن عاتبنى فيه ربى . وقد استخلفه على المدينة مرتين ، وكان من المهاجرين الأولين ، ومات شهيدا بالقادسية .

وقد كانت حياة كفار مكة مع النبى صلى الله عليه وسلم دائما أبدا على هذه الشاكلة من الصراع والعناد والاستهزاء والسخرية والعنت لا يفرغون من لون الا الى آخر . ولا ينتهون من أسلوب الا أخذوا في غيره وهكذا دواليك ، وكان الرسول مع ذلك كله يستجيب لهم ويجاريهم حتى لا تكون لهم حجة عليه ، وحتى يفرغوا من جرابهم - كذلك - آخر ما يضمرونه من عناد واصرار على الباطل ، ولما رأوا أن مثل هذه المطالب لا تصل الى حد الاحراج والايلام انتقلوا بالتحدى الباطل الذى كانوا يشتغلون به الى صورة جديدة تلك أن يكون عندهم فيما يشبه أن يكون خلقا وتكوينا وشيئا مما يدخل فى امكان الخالق لا المخلوق . . . وحينئذ طلبوا منه أن يشق لهم القمر نصفين وهم لا يشكون فى أن الآيات الكونية ليس مما يدخل فى قدرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وليس ذلك مما يعتبره الناس فى حدود امكانه لأن التحدى انما يكون بما هو داخل فى قدرة المتحدى وامكانه ، أما ما لم يكن فى مقدوره ، ولا مألوفاً لمثله ، ولا من طبيعته فمن الحمق أن يكلف به ، ولكنه العنت الذى لا منطق له ولا خلق أيضا ، ومحمد صلى الله عليه وسلم الذى تدعاه القدرة الالهية ، لأنه رسول رب العالمين ، يقف الى جانبه ربه فلا يتركه ولا يتخلى عنه . ويشق له القمر نصفين ، ويراه الناس فى جزأين منفصلين كأنما هما كوكبان معلقان فى الفضاء ، وكأنما كان هؤلاء الذين قطعوا سبيلهم للتحدى لا أكثر ولا أقل يشاهدون شريطا سينمائيا لا يعنيه منه الاعتبار وانما يعنيه فقط امتناع خاطر ، أو الترويح عن النفس « اقتربت الساعة وانشق القمر ، وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر ، وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر . ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر ، حكمة بالغة فما تغنى النذر » . . . وصدق الله العظيم فى كل ما أخبر به عنهم فانهم لم يؤمنوا بمحمد ولم يذعنوا له ولم يتخلوا عن العناد والكفر « وكذبوا واتبعوا أهواءهم » وحينما رأوا ذلك قال بعضهم لبعض سحر كرم ابن أبى كبشة . ولم يزدادوا الا عتوا ونفورا ، وظل ضميرهم الميت على برودته لا يحاسبهم

ولا يوقظ فيهم الوعي الصحيح .. وأخذوا يستمرون على هذا الأسلوب ، وينحدرون في هذا التيار ، ويخلقون في صلتهم به ، ومعاملتهم له ، في سماء من الخيال المشوش ، والأحلام الكاذبة ، وجاءوا من جديد يقولون له ان ايمانهم به يتوقف على تلك المعجزات التي يريهم اياها ، ويجعلها ماثلة لهم ، يشاهدونها بأعينهم ، ويلبسونها بأيديهم .

الأولى : أن يفجر لهم من تلك الأرض الصلبة اليباب الموحشة عينا من الماء المتدفق الغزير ، يشرب منها الحيوان والانسان ، وينمو بها الزرع والضرع ، وتتحول بها هذه الصحراء الى جنة تؤتى أكلها كل حين باذن ربها .

الثانية : أن يفتحوا أعينهم لروه وقد صارت له حديقة من ألوان الفاكهة ، وضروب الثمار ، وأنواع الزهور والرياحين ، وشتى صنوف النخيل والأعنان ، يتمتع بها خاطر ، ويستريح لها الفؤاد ، ويجد كل انسان فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وبعد ذلك كله تجرى من تحتها الأنهار .

الثالثة : أن يسقط السماء قطعا متناثرة على رؤوس المخالفين له ، الخارجين عليه ، كما كان يزعم لهم أو يدعيه وهو يجادلهم في أمر دينه .

الرابعة : أن يأتى بالله الذى يؤيده بوحيه ، وينصره بملائكته ، ليشاهدوه وليقفوا الى جانبه فى دعوته ، ولينصروه فى خصومته .

الخامس : أن يكون له بيت من ذهب يتناسب مع جلال الرسالة التى جاء بها ، والمهمة التى يقوم بها ، لأن الملوك لهم عروش وجند وقصور ويعيشون فى ترف خيالى .. وهو من غير شك أعظم من هؤلاء عند الله فلا أقل من أن يكون له بيت من زخرف ..

السادس : أن يرقى الى السماء التى فيها ربه الذى اجتباها بالرسالة ، وفضله على الناس . وبعث اليه جبريل ، وأنزل عليه القرآن ، وخصه بالمعراج على أنهم لا يعترفون بصعوده الى السماء . ما لم يؤيده الدليل القوى . والبرهان المتمثل فى كتاب يحمله معه ، يعترف له ربه فيه بركيه اليه . ولقائه له . ومواجهته اياه « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه قل سبحان ربي هل كنت الا بشرا رسولا » كأنما يقول لهم هذه أشياء تخرج عن طوق البشر « هل كنت الا بشرا

رسولا « ٠٠٠ ويظهر من قوله تعالى بعد هذه الآية « وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا أن قالوا أبعث الله بشرا رسولا » أنهم كانوا لا يعرفون شيئا عن الأديان السابقة - موسى وعيسى وإبراهيم وهود وصالح وشعيب وغيرهم - فاستنكروا أن يكون الرسول بشرا وقد كان هؤلاء - من البشر - رسلا مبشرين ومنذرين ، وهم من غير شك يعرفون أن ذلك كان من قبيل هذا التحدى الذى وقفوا سبحانه عليه ، وصرفوا جهدهم له . على أن الرسول لو كان - كما يقترحون - من الملائكة للزم أن يكون قومهم - كذلك - من الملائكة ، لأن الجنس انما يطمئن الى جنسه ، فيعيش معه ، ويأخذ عنه ، ويطمئن اليه ، ويبادله المنفعة « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا » ٠٠ والذى يريد أن يحصى عليهم مثل هذا التحدى لا يستطيع أن ينتهى منه لأنه كان لونا من الحرب الباردة التى ظلوا مدى الحياة يشتغلون بها من غير ملل ولا سأم .

الهجرة الى الحبشة

جريت قريش مع محمد صلى الله عليه وسلم كل ألوان المعارضة له ، والصند عن سبيله ، والوقوف في وجهه . والتشويه لدعوته ، والايداء لأصحابه والتنكيل بهم . ثم جريت كذلك ألوان التحدي المكشوف ، والحرب الباردة . كما جريت كذلك ألوان الاغراء التي أرادت بها أن تخدع محمدا صلى الله عليه وسلم ليحول قلبه عن ذلك الطريق الذي انحدر فيه . وبالغ في الايمان به ، والاخلاص له ، والتفاني في الدعوة اليه ، الا أنهم على الرغم من الايداء الذي افتنوا فيه ، والسخرية التي لم يتووعوا عنها ، وقطعهم الطريق عليه كلما هم بدعوة انسان ، أو أعلن دينه في محفل من المحافل . أو مجتمع من المجتمعات ، لم يجرؤوا على أن يتجاوزوا ذلك الى قتله ، لأن عمه أبا طالب كان واقفا لهم بالمرصاد ، وبنو هاشم كلهم خلفه ، والاقدام على مثل هذا الطيش يعرض قريشا لحرب لا قبل لها بها ، ولا طاقة عندها لمثلها . فكان من الضروري أن تمنع في الغضب عليه وعلى أصحابه ، وأن تسترسل في الايلام والكيد ، والأذى والضرر ، والتنكيل والارهاق . وأن يقفوا بكل صراط يوعدون ويصدون عن سبيل الله . .

وهناك أذن النبي صلى الله عليه وسلم للمسلمين في الهجرة الى الحبشة « ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعة » وقال لهم حينئذ « ان بها ملكا لا يظلم جاره ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه » فتسللوا في ظلام الليل ، ولما انتهى خبر تسلمهم الى قريش أسرع لتقطع عليهم منافذ الطرق . وتردهم الى مكة ، لتواصل الحملة عليهم ، وتتمادى في تعذيبهم وتسدد عليهم كل مسلك ، ليعودوا الى ما كانوا عليه من الوثنية والشرك . ولكن قضاء الله كان أسرع من

ارادتهم ، ولطفه كان أسبق من حيلتهم ، اذ مضوا في طريقهم من غير عائق ولا مانع . . غير أنهم ما كادوا يصلون الى الحبشة ويستقر بها قرارهم حتى كان الكفار قد غليت مراجل غضبهم ، وثاروا براكين حقدهم . وبعثوا عمرو بن العاص . وعبد الله بن أبي ربيعة . وعمرو ابن المفيرة المخزومي بهدايا وتحف الى ملك الحبشة ، وكان معهما عمارة ابن الوليد بن المغيرة المخزومي . وقد طلب هذا الوفد من النجاشي أن يرد المهاجرين الى قومهم . وقالوا له فيما قالوا له انهم فارون تركوا دينهم الذي كانوا عليه . واعتنقوا ديناً جديداً يعادى الأديان كلها . ويقول في عيسى بن مريم قولاً لا يليق به ولا بأمه . . وقد اهتز النجاشي والبطارقة معه لهذا القول واعتبروه عدواناً على دينهم ، وافتياتاً على المقدسات المرعية ، الا أنه رأى أن من الحكمة ألا يكتفى بالسماع من طرف واحد . فأرسل الى هؤلاء المهاجرين أن يدخلوا عليه ، فلما مثلوا بين يديه ، قال لهم ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في دين بعده ، وكان جعفر بن أبي طالب قد أدرك أن رسل قريش قد نجحوا في الإيقاع بهم . وتشويه مسيرتهم ، فأنبرى له قائلاً « أيها الملك كنا أهل جاهلية ، نعبد الأصنام ، ونأكل الميتة . ونأتى الفواحش ، ونقطع الأرحام . ونسى الجوار ، ويأكل القوى منا الضعيف . . فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولاً منا ، نعرف نسبه ، وصدقه ، وأمانته ، وعفافه . . فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وأبائنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم . وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء . . . ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات . . . وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ، فصدقناه وآمنا به واتبعناه على ما جاء به من الله وحده ولم نشرك به شيئاً ، وحرمنا ما حرم علينا ، وأحللنا ما أحل لنا ، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا الى عبادة الأوثان وترك عبادة الله تعالى ، وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث ، فلما قهرونا ، وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا الى بلادك » ثم قرأ جعفر بن أبي طالب عليه شيئاً من سورة مريم وفيها الإشادة بعيسى ابن مريم وجهده والثناء على ما كان له من هدى وتقويم ، وتنزيهه عن الفواحش ، والشهادة لها بظهارة الغرض . ونقاء النفس ، وبراءة الساحة ، وشرف المنبت ، وحينئذ أبى النجاشي والبطارقة أن يفرطوا في المسلمين ، أو يضيخوا الى الوشاية بهم ، أو النيل منهم ، وظل هؤلاء المسلمون - وإن لم تطل مدة الإقامة - يلاقون الرعاية والاهتمام ، الا أنهم مع ذلك قد اشتد حنينهم الى مكة . وفكروا في العودة اليها ، لحرصهم الشديد في أن يظلوا الى جوار النبي

صلى الله عليه وسلم يدافعون عنه أعداءه ، ويؤيدون دعوته ، وإلى جانب ذلك فانهم كانوا من السادة الذين لم يألفوا المشقة والاعتراب عن الأهل والوطن ، وكان معهم زوجاتهم وقد خافوا عليهم من مضاضة الاغتراب . وهوان البعد . ولم يكن عددهم من الكثرة بحيث يدفع عنهم وحشة النأى ، أو مشقة النزوح ، إذ كانوا عشرة رجال ، وخمس نسوة ، وهم عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو سلمة وزوجته أم سلمة وأخوه لأمه أبو سيرة بن أبي رهم وزوجته أم كلثوم ، وعامر بن ربيعة وزوجته ليلي ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وزوجته سهلة بنت سهل . وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان ابن مظعون ، ومصعب بن عمير ، وسهيل بن البيضاء ، والزبير بن العوام ، وجلهم من قريش وكان عليهم عثمان بن مظعون ولحق بهم جعفر بن أبي طالب الذي تحدث باسمهم . . . ويظهر أن هذا الوفد مع قلة عدده ، وقصر مدة اقامته كان له أثره البالغ في دعوة محمد صلى الله عليه وسلم . والتنويه بدينه ، والاعلان عن هذا الزحف الجديد الذي أخذ يأخذ طريقه الى القلوب والأفئدة . . . فان النجاشي والبطارقة الذين كانوا معه بعد أن تجلى لهم الحال من هذه الجماعة القليلة التي وفدت اليهم . ثم ارتحلت عنهم . لم يكتفوا منهم بهذا اللقاء ، ولا بتلك المناقشة ، فبعثوا من قبلهم وقدا الى مكة ، جعلوا مهمته الأولى أن يستطلع نبأ هذا الحدث الجديد الذي هزت أخباره أرجاءهم ، أو زلزلت أنحاءهم . وهل هو يتلاقى مع المسيحية على محجة واحدة ، أم يذهب كل منهما الى ناحية يخالف صاحبه ، ثم مع هذا وذاك يشكر محمدا وأصحابه على ذلك التنويه الذي نطق به القرآن عن عيسى ومريم والانجيل الذي جاء به . . . وكان من هذا الوفد أن تأثر الى حد بعيد بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأعجبه ما تأخذ به البشرية من اصلاح ، وما تسلكه من هدى ، وتعمل له من نهوض ، وما كاد يستمع الى القرآن الكريم من النبي حتى شعر بسحره ، وأدرك سيطرته الغالبة على النفس ، وهيمنته القوية على الضمير ، واستدراجه الغريب للدمع ، وسلطانه القاهر للفؤاد ، ولما خنقته العبرة ، وفاض ماء عينيه ، أعلن ايمانه بمحمد صلى الله عليه وسلم . والاذعان لدينه ، والانصواء تحت رايته ، وهنالک نوه الكتاب العزيز بهذا الموقف النبيل ، وتلك العاطفة الكريمة وذلك الاحساس العظيم « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون وإذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ، وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين فأتاهم

الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين » . . وفي هذه الأيام التي كانت قريش تعاني مرارة اللطمة التي أصابتها من الوفد الأول للحبشة كان اسلام حمزة بن عبد المطلب ثم اسلام عمر فطاش صوابهم وأخذت منظماتهم الارهابية تزاول من جديد نشاطها في التنكيل والايلام . حتى لقد لحق ذلك الرجل الطيب أبا بكر رضى الله عنه مع احترامهم له ، ويرجع ذلك الى أنه كان يقرأ القرآن أمام بيته فيتهافت عليه النساء والصبيان . . وقد خشيت قريش أن يكون هذا الصنيع من أبى بكر غزوا داخلها لها . فضيقت عليه الخناق ، وأقامت في وجهه المتاريس ، أما هو فكانما تمثلت له الآية الكريمة « ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها . . ولذلك أخذ طريقه الى حيث يفارق تلك الوجوه ، وينأى بعرضه عن تلك الأقدار ، الا أن رجلا من هؤلاء الذين كانت تمتلىء نفوسهم بحبه واحترامه ، لقيه فى الطريق . وعز عليه أن يفارق مكة . وأن تخلو عرصاتها منه ، فسأله عن سبب خروجه ، ولما عرف من أمره ما عرف ، أخذ بتلابيبه ، وقال له لا تفعل يا أبا بكر ، فوالله مثلك لا يخرج ولا يخرج ، ثم طاف به على مجالس قريش وقال لهم لينبلغ الشاهد الغائب أن هذا الرجل فى جوارى ، أذاف عنه ، وأقف الى جانبه ، لا يتعرض له أحد بسوء الا كان بذلك مسيئا الى ، وهنالك قبلوا منه ذلك على أن يقرأ أبو بكر القرآن فى داخل بيته . ورضى أبو بكر بهذا الشرط ونزل عليه ، وكان يقرأ القرآن فى داخل بيته ، الا أن الأطفال والنساء كانوا يقتحمون عليه البيت ليستمعوا لما يتلوه ، وحينئذ عادت شكوى قريش منه ، وخوفها من الافتتان به . فراحوا الى ابن الدغنة الذى هدد بسحب جواره منه ، ولم يكن من هذا الرجل الطيب - أبى بكر - الا أن يقول له . افعل ما بدالك ، فانى ما فكرت يوما من الأيام فى جوار غير جوار الله الذى يدافع عن الذين آمنوا ، فلا تشغل نفسك بى ، ولا تفكر فيما بينى وبينك من جوار ، فانى أنا وأنت وكل الناس فى جوار الله الذى خلقهم . . .

الحصار الاقتصادي

أساليب حرب الناس بعضهم لبعض كثيرة متنوعة ، لا تقف عند حصر ، ولا ينتهي لها عدد ، وقد يكون أهونها أن تكون وجها لوجه ، أو أن تكون حارة لا باردة ، وفي العصور الحديثة تلجأ الدول الكبرى ، في سبيل استئلال الدول الصغرى ، وكسر شوكتها ، لتنال غرضها من ابتزاز مواردها ، واستنزاف خيراتها . والاستيلاء على ما تغله أرضها ، إلى ما يسمى في لغة علماء الاقتصاد السياسي بالحصار الاقتصادي . . . وهي وسيلة من وسائل الحرب سلاحها الحرمان والتجويع . والحيلولة بينها وبين التجارة أو تبادل السلع مع غيرها ، سدا لحاجتها ، وقضاء لمصالحها . ونهوضا ببلادها ، لترى تلك الدولة الصغرى نفسها أمام الحاجة القائمة ، والضرورة الملحة . مضطرة للتنازل عن كرامتها ، وعزة نفسها ، وتمسكها بالأبواب الخالص ، والحرية البحتة ، والشمم الفطرى . وهنالك لا تعارض في سلطان يخضعها ، وجبروت يذلها ، وكرامة تملك زمامها ، وتتحكم في سلوكها ، وهكذا يفعل - الآن - أرباب الجشع الاستعماري ، والسعار الأجنبي ، مع الشعوب التي تريد أن تتفلت من قبضة أيديهم ، أو تتخلص من نفوذهم ، وتخرج عن طاعتهم الظالمة ، وهو بعينه الذي حدث من كفار مكة لمحمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه معه . حينما وجدوا أنهم أفرغوا ما في كنانتهم من السيوف ، وبذلوا كل جهد يملكونه ، وكل حيلة يحكمونها ، وجربوا كل محاولة في اذلالهم . وقطعوا كل أمل في الجائهم . وآمنوا إيمانا لا شك فيه أن المطاردة والعنف . والكرامية أو الاستهزاء ، والتعذيب والتهديد ، وغير ذلك من أساليب الحق والطيش ، لم تقف ذلك التيار الجارف الذي كانت تسير به دعوة محمد بن عبد الله إلى نفوس الرجال والنساء ، والصبيان والأطفال ، حتى لقد بلغ الحال بهم أن يتغفل بعضهم بعضا في الذهاب - متكررا -

الى مجلس محمد ليستمع لما أنزل الله عليه . يقول الدكتور هيكل « خرج أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والأخنس بن شريق ليلة ليستمعوا الى محمد وهو فى بيته ، فأخذ كل منهم مجلسه وهو لا يعلم بمكان صاحبه ، وكان محمد يقوم الليل يرتل القرآن فى هدوء ، وصكينه ، فلما كان الفجر تفرق المستمعون عائدين الى منازلهم . فجمعهم الطريق فتلاوموا ، وقال بعضهم لبعض لا تعودوا . فلو رأيكم بعض سفهاكم لأضعف ذلك من أمركم . ولنصر محمد عليكم فلما كانت الليلة الثانية شعر كل واحد منهم فى مثل الموعد الذى ذهب فيه أمس كان رجليه تسيران به من غير أن يستطيع امتناعا ليقضى ليلة حيث قضاه أمس وليستمع الى محمد يتلو كتاب ربه ، وتلاقوا عند عودتهم فى مطلع الفجر وتلاوموا من جديد . فلم يحل تلاومهم هذا دون الذهاب فى الليلة الثالثة . فلما أدركوا ما بهم لدعوة محمد من ضعف تعاهدوا على الا يعودوا لمثل فعلتهم ، وان ترك ما سيعوا من محمد فى نفوسهم من الأثر ما جعلهم يتساءلون فيما بينهم ، وكلهم تضطرب نفسه ويخاف أن يضعف وهو سيد قومه فيضعف قومه ويتابعوا محمدا وقد حدث الرواة أنهم بعد أن عقدوا مجالس الشورى ، وتبادل الرأى ، انتهوا الى معاهدة مكتوبة يعلقونها فى الكعبة ، يتفقون فيها على مقاطعة النبى صلى الله عليه وسلم هو ومن اختار سبيله ، واعتنق دينه ، وآمن برسالته ، وكانت هذه الصحيفة تقضى بعدم الزواج منهم ، أو الاصحار اليهم ، أو البيع والشراء معهم ، كما تقضى ألا يحبروهم ، أو يعيشوا المهوف منهم ، وألا يتبادلوا معهم المنافع بحال من الأحوال ، وأن يكون شأنهم واياهم شأن المنبوذين سواء بسواء ، واستتبع ذلك أن ينفصل كل من الفريقين فى الدار التى يعيش فيها دون حرية الانتقال أو الحركة ، وظل الأمر هكذا ثلاث سنوات ، كانت قسوتها شاقة ، ومرارتها بالغة ، حتى كانوا يأكلون ورق الشجر .

وقد بدا على المسلمين من هذه المحنة الهزال والشحوب ، والأسقام والامتناع ، والاصفرار والنحول ، وفشت فيهم الأمراض والأوبئة . ولم يكن من حق المسلمين أمام هذا الحصار والضغط المفروض عليهم أن يتجولوا أو ينتقلوا الا فى داخل هذا السور المضروب عليهم ، أو السجن الذى يحتويهم ، اللهم الا فى الأشهر الحرم ليطوفوا بالبيت اذا أرادوا أو يحجوا اذ رغبوا ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا يجد متنفسه الا فى موسم الحج حين يستقبل الوافدين على البيت ، ليمرض عليهم دعوته وكانت تجد طريقها الى قلوبهم وأفئدتهم ، وشعورهم وعواطفهم . وكان ما يعانيه من قريش فى هذا الوقت سببا فى عطف كثير من الناس عليهم ، وميلهم اليهم ، وتجاربهم معهم . وقد سرى ذلك كله الى صفوف المشركين فكاد

يبدد صفوفهم ، ويفرق كلمتهم ، ويشتت شملهم . ويشيع فيهم التفكك والتخاذل ، ويقول الدكتور هيكل « وهذا الحصار الذي أوقعته قريش ، واحتماله إياه صابرا في سبيل رسالته . كان من وراءه أن كسب كثيرا من الأنصار والقلوب التي لم تبلغ القسوة منها ما بلغت من قلب أبي جهل وأضرابه . . . على أن طول الزمن وكثرة ما أصاب المسلمين من عنت قريش وهم منهم واخوانهم وأصهارهم وأبناء عمومتهم جعل كثيرين يشعرون بفداحة ما ارتكبوا من ظلم وقسوة ، فلولا أن كان من أهل مكة رجال لهم على المسلمين عطف يحملون اليهم الطعام في الشعب الذي احتوا به لهلكوا جوعا . وكان هشام بن عمرو من أحسن قريش في هذا الطرف عطفًا على المسلمين ، كان يأتي بالبعير قد أقره طعاما أو برا فيسير به في جوف الليل حتى إذا استقبل الشعب - الذي حوصر فيه المسلمون - خلع خطام البعير ثم ضرب على جنبه فدخل البعير الشعب عليهم . ولما ضاق صبرا لما يلاقيه المسلمون مشى إلى زهير بن أبي أمية وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال زهير ، أقدر رضىت أن تأكل الطعام ، وتلبث الثياب ، وتكح النساء ، وأخالك حيث قد علمنا لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ، أما انى أحلف بالله أن لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبدا ، وتعاهد الرجال على نقض الصحيفة ، على أن يستعينوا على ذلك بغيرهم ، واتفق معهما المطعم بن عدي ، وأبو البختري بن هشام ، وزمعة ابن الأسود ، وأجمع الخمسة أمرهم وتعاهدوا على القيام في أمر الصحيفة حتى ينقضوها . . . وغدا زهير بن أمية فطاف بالبيت سبعا ، ثم نادى في الناس يا أهل مكة ، نأكل الطعام ، ونلبس الثياب ، وبنو هاشم لا يبتاعون ولا يبتاع منهم ، والله لا أقعد حتى تنشق هذه الصحيفة الظالة ، وما كاد أبو جهل يسمعه حتى صاح به ، كذبت والله لا تنشق ، فتجاوبت أصوات زمعة وأبي البختري والمطعم وهشام بن عمرو وكلهم يكذبون أبا جهل ، ويؤيدون زهيرا ، وأدرك أبو جهل أن الأمر قضى لبيل وأن القوم انفقوا عليه ، وأن مخالفتهم قد تثير شرا ، فأوجس خيفة وتراجع وقام المطعم ليشق الصحيفة ، فوجد الأرضة قد أكلتها إلا فاتحتها « باسمك اللهم » وبذلك أتبع لمحمد وأصحابه أن يعودوا من الشعب إلى مكة . وأن يبيعوا قريشا ، ويبتاعوا منها ، وأن بقيت صلات الفريقين كما كانت ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم من جديد يذيع دعوته في مكة وفي القبائل التي تجيء إليها في الأشهر الحرم ، ومع ما ذاع من أمر محمد بين قبائل العرب جميعا ، وما كان من كثرة الذين اتبعوه ، فانه ظل لا يسلم أصحابه من أذى قريش ، ولا يستطيع هولهم منعاً . .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد ترامي إليه من قبل أن الأرضة

قد أكلتها ، فأخبر بذلك بعض أصحابه ، ولم يلبث الخبر أن تطاير الى صفوف المشركين أنفسهم ، فظنوا لأول وهلة أنها بلبلة يريد بها المسلمون زعزعة الخواطر . واستدزار عطف الناس عليهم . ليكون ذلك تمهيدا لرضا قريش أن تعود المياه الى مجاريها ، ولكن خبيثا من خبثاتهم تسلل الى الصحيفة في مكانها من الكعبة ثم جاء يعلن أن ذلك الخبر صحيح لا ريب فيه ، وهنالك ذهلت قريش ذهولا عظيما . وبخاصة حينما ترامى اليها أن محمدا يقول ان الأرض لم تبق منها الا لفظة « باسمك اللهم » وفي هذه اللحظة خاصوا خيصة حمر الوحش ، وأخذوا يروحون ويخيئون ، ويفكرون فيما عساه أن يكون ، أو فيما عساه أن يتخذ أمام هذا الموقف الذي صيرتهم اليه الخواثر ، وأوقفتهم عنده الأقدار ، على اعتبار أنه خذلان لهم . وتقهقر الى الوراء في حربهم للمسلمين ، والقضاء على روحهم المعنوية التي كانت تدفعهم الى الأمام ، وتسوقهم للغيرة على محمد ، وعصبيتهم له ، ووقوفهم الى جانبه ، يدافعون عنه ، ويعلمون دعوته ، ويرفعون رايته ، وقد أصبح بنو هاشم وبنو عبد المطلب يشعرون بأن الصراع الذي كان قائما بينهم وبين قريش عصبى لا أثر للدين فيه . ولا صلة للعقيدة به ، وصار هم أبى طالب الاهتمام بابن أخيه ليتمكن نفوذه ، ويعلو شأنه ، وتمضى ارادته ، ويسود رأيه ، ويستقر له سلطانه وحكمه ، فلا تمتد اليه يد آئمة ، أو تتناول عليه نفس شريرة ، أو يقتله سيف ظالم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يتابع الدعوة لدينه ، والاعلان عن هديه ، ويواصل سيره لاكتساب أنصار يؤازرونه ، ويكثرون سواده ، ويقوون جبهته ، ورأت قريش أمام ذلك كله ألا مناص من نقض الصحيفة المكتوبة ، والمهادنة المبرمة ، واضطرت صاغرة الى التنازل عن كبريائها ، وعاد الاتصال ، ورفعت قيود حظر التجول ، وتبادلوا - مع المسلمين - السلع والحاجات ، الا أن النفوس كانت مع ذلك لا تزال تشعر بالجفوة ، والقلوب لا تزال تحس باللوعة ، والعيون لا تزال تتبادل النظر الشرز ، والجوانح لا تزال منطوية على الكراهية والبغضاء . والمسلمون كانوا يشعرون أنهم في دار غربة وهوان ، يتمنون من صميم أفئدتهم أن يبدلهم الله قوما خيرا من أولئك الذين يرون أنهم قذى في أعينهم ونكدا في نفوسهم ، وحرجا في صدورهم وأفئدتهم ، كما كانوا يتمنون كذلك وطنا غير هذا الذى يضيق بهم ، ويتجههم لهم ، ويزداد بشاعة فى عيونهم ، حتى لقد كانت الهجرة الى الحبشة تراودهم - من جديد - ليتخلصوا من ذلك العنت ، ويستريحوا من ذلك الضيق ، وبخاصة وقد رأوا أن الحرب لم تضع أوزارها بعد ، يقول الدكتور هيكل « قدم الطفيل بن عمرو الدوسى مكة وكان رجلا ليبيبا شاعرا ، فمشت اليه قريش تحذره من محمد ، وأن الخير فى ألا يكلمه ولا يستمع اليه ، وذهب الطفيل يوما الى الكعبة ، وكان

محمد هناك ، فسمع بعض قوله ، فاذا هو كلام حسن ، فقال في نفسه ،
واكل أمي ، والله اني لرجل لبيب شاعر ما يخفى على الحسن من القبيح .
فما يمنعي أن أسمع من هذا الرجل ما يقول فان كان حسنا قبلته ، وان
كان قبيحا تركته ، واتبع محمدا الى بيته ، وأظهره على أمره ، وما دار
في نفسه ، فعرض عليه محمد الاسلام ، وتلا عليه القرآن ، فأسلم وشهد
شهادة الحق ، ورجع الى قومه يدعوهم الى الاسلام ، حتى أسلم
أكثرهم . وانضموا الى النبي بعد فتح مكة ، وليس الطفيل الدوسي الا مثلا
من كثير وقد قدم مكة - كذلك - بعد حادث الصحيفة عشرون رجلا
من نصارى نجران الى النبي صلى الله عليه وسلم ، فجلسوا اليه ،
واستمعوا له ، واستجابوا وأمنوا وصدقوا ، مما غاظ قريشا حتى سبوه
وقالوا لهم « خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ،
لتأتوهم بخير الرجل ، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم
وصدقتموه بما قال » ولم تثن مقالة قريش هذا الوفد عن متابعة محمد ولم
ترده عن الاسلام . بل زادتهم بالله ايمانا على ايمانهم ، اذ كانوا نصارى
من قبل أن يحضروا الى مجلسه صلى الله عليه وسلم على ملة المسيح عيسى
ابن مريم عليه السلام . . .

عام الحزن

كان سنده النبي صلى الله عليه وسلم في دعوته ، ودرعه في رسالته ، وترسه التي يتلقى بها الأحداث ، وسناده الذي يذود به الأذى ، وركنه الزكين الذي يعتمد - بعد الله - عليه ، حيث لم يتكامل له من سواد المستلمين من يشد أزره ، ويقوى ظهره ، اذ كان يحس من نفسه بالغربة والوحشة ، والضعف وقلة الحيلة ، اثنان من الناس كلاهما كان بعيد ضخم ، وقوة هائلة ، وطاقة جبارة ، امرأة هي خديجة بنت خويلد الأسدية ، زوجته العزيزة لديه ، الحبيبة اليه ، ورجل هو عمه أبو طالب الذي كانت له مكانة في قومه وعشيرته . . . وخديجة رضى الله عنها لم تكن له صلى الله عليه وسلم زوجة ككل زوجة تكون تحت رجل لا هم لها منه الا أن تتمتع به ، وتلوذ بكنفه ، وتحتضى بظله ، وتترامى بين أحضانه ، وتطلب فيه دائما أبدا غناه وثروته ، وصحته وعافيته ، وشبابه وتضارته ، ومركزه وجاهه ، وأن يكون قلبه عامرا بها ، متلهفا اليها ، متراميا عليها ، لا يتسع لأحد سواها ، ولا تدق نبضاته الا لها ، فان رأيت شيئا من ذلك كله قد تحول أو نقص ، أو وجدت أنه لم يعد فيه ما يأخذ انتباهها ، ويملك اعجابها ، ويشغل تفكيرها ، فترت شواغلها به ، وبردت حرارتها له ، وماتت أحاسيسها التي كانت متأججة به ، وجعلته في تحفها القديمة ، أو ثيابها البالية ، لأنه لم يعد فتى أحلامها . . . الذي كانت تحن اليه ، وتهتف به ، وتنجذب الى ناخيته . . . نعم لم تكن خديجة تلك الزوجة وإنما كانت أمه وأخته وأهله وعشيرته ، وأحب الناس اليه ، وأدناهم منزلة من قلبه وروحه ، وكان هو عندها كل شيء تطلبه ، وكل حلم يدور بخاطرها ، أو يسبح بخيالها ، تؤمن ايماناً جازماً أنه يكمل نقصها ، ويكمل نفسها . . . ويرضى تطلعا وطوخها . . . ويشقى عليها وأوجاعها ، ويملا ذنباها باليمن والبركة ، والخير والسعادة ، والسرور

والبشر ، والأمان والاطمئنان ، والرضا والارتياح . . لذلك كان عندها نور عينيها ، ونبض فؤادها ، وخطرات خيالها ، وهمسات قلبها ، وحياتها المتجددة . واملها الذي تضيق به الدنيا ، فمالها في يده ، وثقتها في نفسه . وقومها من حوله ، وأهلها أطوع له من ظله ، وكأنه بها وحدها في جيل من الناس فيهم ألف ساعد وساعد ، وألف نصير ونصير ، وكلما غدا أو راح ، كان ظلها يتابعه بالأنس والبهجة . والأمل والحب . والصحة والعافية ، والشجاعة والاقدام ، والظفر والغنم ، والفراغ الذي كانت تملأه من قلبه لم يكن حل من قبل ، وهي مع هذا وهذا أم أولاده ما عدا ابراهيم الذي كان بعد ذلك من مارية القبطية . . . وكان موتها عند النبي صلى الله عليه وسلم فاجعة كبرى . ومصيبة عظيمة . شعر بعده أن الأيام تتنكر له ، وأن المحن تصطليح عليه ، وأن المصائب تنازله ، وأن الحوادث تصاربه ، وزاد من وطأة الألم في نفسه أنه لم يمض على موتها أكثر من خمسة وثلاثين يوما - كما يذكر الحضري - حتى مات عمه أبو طالب . فكان هذا العام - كما سماه المسلمون وسماه النبي صلى الله عليه وسلم - عام الحزن - . وإي حزن وراءه ، وأي فاجعة بعده . . . وقد روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول « اجتمعت على هذه الأمة في هذه الأيام مصيبتان لا أدري أنا بأيهما أشد جزعا » . .

ونحن نعلم أن قريشا ابتدأت بعد موت أبي طالب تعامل النبي صلى الله عليه وسلم معاملة أخرى ، وتقف منه موقفا جديدا . وتحشد له كل ما تملك من وسائل ، وما تستطيع من حيلة . لتشل حركته ، وتعطل سيره ، وتعوق ركبته ، وإن كانت هذه الشدائد كلها قد دفعت عجلة الزمن ، وحركت عقرب الساعة ، ولفتت أذهان كثيرين من الناس إلى الدخول في الاسلام ، والايهان بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لأنها كانت دعاية له ، واعلانا عنه ، وهكذا يأتي الشر بالخير ، ويأتي الفرج بعد الضيق . .

وعلى الرغم من أن قريشا انتهزت فرصة موت أبي طالب الذي كان للنبي صلى الله عليه وسلم درعه وسيفه . ومجنه وقرسه ، وخط دفاعه القوي . وبرهنت بهذا على أنها تجردت من الذوق ، وأنها قد جف معين الحياء من وجهها ، وأصبحت تفكر في الحد من حرите ونشاطه . والقطع لأوصاله ، والقضاء على حركة انتقاله . وكان هو مع هذا كتيب الحاطر . حزين الفؤاد . لا يستطيع الا أن يكون في هذا الجو القاتم الذي خلفه له موت خديجة وأبي طالب . لأن عواطفه التي امتلأت بها نفسه . وهواتفه التي امتلأت بها رأسه ، كانت لا تنقطع عن هذا الخيط ، ولا تنفك عن

تلك الهواجس ، وهو لا يعدو أن يكون بشرا تتحكم فيه بشرية الانسان ، ولم يكن أحد في هذا الوقت يراه يتسلل الى المجتمعات ، أو يتسرب الى المحافل ، أو يغشى المنتديات التي كان يغشاها . داعيا الى الله ، أو معلنا وحى ربه . وكان دخول من يدخل في الاسلام - حينئذ - أشبه بالعملية الآلية ، أو التجاوب الوجداني ، ليس معه جهد ولا معاناة . . . وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يبرهن للنبي صلى الله عليه وسلم من طرف خفي أن هذا الصنيع الذي تصنعه قريش لا يمكن بحال من الأحوال أن يرد قدرا ، أو يدفع ارادة ، أو يحول دون تبليغ الرسالة . . . وبينما هو من شدة ما ناله من الحزن ، وكثرة ما أصابه من التفكير ، مستغرق في ذهوله الذي أصابه . . . ممعن في وجوهه الذي اعتراه . . . سابح في خياله الذي يخلق به في هذا الملكوت . رأى نفسه متكئا الى جذع شجرة يقرأ القرآن والجن من حوله يستمعون اليه في صمت : وينصتون اليه في هدوء ، ويتأملون في قوله ، ويتدبرون هديه ، وكأنما هو ضالّتهم المنشودة . وحاجتهم التي ظلوا يبحثون عنها من زمن طويل . وقد سجل القرآن قصتهم هذه « وأنه تعالى جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا ، وأنه كان يقول سفيهما على الله شططا ، وأنا ظننا أن لن نقول الانس والجن على الله كذبا » . . . وكأنما كان جل جلاله يريد أن يعوضه عن هؤلاء الذين أعرضوا عنه ، وتجهموا له . ووقفوا في وجهه ، بأخريين يقبلون عليه ، ويرغبون فيه ، في لهفة الحريص ، وارتياح المشوق ، وقد كان في الحديث الذي صدر عنهم ، والتفكير الذي بدا منهم ، مسحة العقل والمنطق ، كأنما كانوا أساتذة حكمة ورأي ، وفهم وذوق « وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا وأنا من المسلمين ومننا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا » . . . وكان هذا الحدث في نظر العرب جميعا من الدهول والغرابة بمثابة بعيدة حملتهم على أن يشتغلوا بالتأمل والتفكير في أشياء كانت لا تخطر لهم ببال ، ولا تمر على ذهن ، وكان في مقدمة ذلك فهمهم للجن ، وتصورهم لهم ، وخذيتهم عن إيمانهم بالله ، وبحيثهم عن المعرفة ، وجريهم وراءها . وكانوا الى هذه اللحظة يظنون في الجن الظنون . . .

وقد تناقلوا هذه القصة ، وأخذوا يتحدثون بأن محمدا صلى الله عليه وسلم له محيط وراء محيطهم ، ودنيا أوسع من دنياهم ، وأن دعوته ان لم تجد منهم العون والنصير ، والرغبة والقبول ، فستجد من سواهم ، رضوا هم بذلك أم سخطوا ، وأنه ان كان اليوم يتودد اليهم في هديه ، ويلطفهم في دعوته ، ويصفح عنهم في ايدائهم له ، ومطاردتهم اياه ، فسيجيء اليوم الذي يكونون فيه مرغمين ، ويكون الأمر والنهي ، والحل والعقد ، له هو

وجده ، وأنهم أن كانوا يقولون سخرية به ، أو احتقارا له أمر ابن أبي
كبيشة ، فلا بد أن يقولوها حقا وصدقا ، لأن وراثة الإرادة الإلهية التي
لا ترد ، والقوة العليا التي لا تقهر . . .

ويقول المؤرخون أن أبا طالب لما حضرته الوفاة دعا وجوه قريش
فلما حضروا مجلسه قال لهم « يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه ،
وقلب العرب . فيكم السيد المطاع ، وفيكم المقدم الشجاع ، والواسع
التيار ، واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب في المآثر نصيبا إلا أحرزتموه ،
ولا شرفا إلا أدركتموه فلكنم بذلك على الناس الفضيلة ، ولهم به اليك
الوسيلة . والناس لكم حرب . وعلى حربكم الب ، واني أوصيكم بتعظيم
هذه البنية - الكعبة - فإن فيها مرضاة للرب ، وقواما للمعاش . وثباتا
للوظائف . صلوا أرحامكم ، فإن في صلة الرحم منسأة للأجل ، -
وزيادة في العدد . واتركوا البغي والعقوق ، ففيهما هلكت القرون من
قبلكم . أجيئوا الداعي ، وأعطوا السائل ، فإن فيهما شرف الحياة والمات ،
وعاليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة ، فإن فيهما محبة في الخاص
ومكرمة في العام . واني أوصيكم بمحمد خيرا . فإنه الأمين في قريش
والصديق في العرب ، وهو الجامع لكل ما وصيتكم به ، وقد جاءنا بأمر
قبله الجنان ، وأكزبه اللسان ، مخافة الشنان ، كاني أنظر الى صعاليك
العرب ، وأهل الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته ،
وصدقوا كلمته . وعظموا أمره . فخاض بهم غمرات الموت ، فصارت
رؤساء قريش وضناديدها أذنا ، ودورها خرابا ، وضعفاؤها أربابا ،
وإذا أعظمهم عليه ، أزوجهم اليه ، وأبعدهم منه ، أحظاهم عنده ، قد
محضته العرب ودادها ، وأصغت له فؤادها ، وأعطته قيادها . . . يا معشر
قريش كونوا له ولاة ، ولحزبه حماة . والله لا ينسلك سبيله أحد إلا رشد ،
ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد ، ولو كان لنفسي مدة ، ولأجلي تأخير ، لكففت
عنه الهزاهز - البلايا - ولدفعت عنه السواهي . . . ثم مات بعد ذلك بثلاثة
أيام . . . وهذه الوصية على الرغم من أن كثيرا من الناس ربما استبعد
حصولها من أبي طالب الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصا على
إسلامه وقد عرضه عليه فأبى ، إلا أنها تمثل نفسه الكبيرة ، وروحه
الطيبة ، وسلوكه الذي كان يسلكه مع النبي صلى الله عليه وسلم ، ذلك
السلوك الذي تمثله الآية القرآنية « صدق تمثيل » وهم ينهون ويناون
عنه ، لأنه كان معه بجوارحه دون قلبه . . .

مع ثقيف بالطائف

اشعر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفجوة الواسعة التي أحدثها، في نفسه موت خديجة رضى الله عنها فرأى ولم يمض على ذلك أكثر من شهر واحد أن يتزوج. وكان قد سئح له ذلك بشكل ما كان يتوقه، ولا يشغلهم ذلك أن سودة بنت زمعة العامرية القرشية كانت قد هاجرت إلى الحبشة مع زوجها وابن عمها السكران بن عمرو وكانت حين أسلمت رغم أنف أهلها وحين رجوعهما من هجرتهما من الحبشة مات زوجها، وكان موقفها في هذا الوقت من أشد المواقف حرجا لأنها بين أن تذهب إلى أهلها الذين يحملونها على الكفر، أو تبقى وحدها من غير عائل يعولها، ولا رجل يأويها، وهما أمران أحلاهما مر، وحينئذ وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن المروءة تقضى بانقاذها من الحرج، وانتشالها من تلك الورطة ولم يكن ذلك إلا بزواجها، وبخاصة وقد وجد صلى الله عليه وسلم أن أحدا لم يتقدم إليها، وبعد ذلك بشهر واحد عقد على عائشة رضى الله عنها إلا أنه لم يدخل بها إلا بعد الهجرة إلى المدينة . . وكل هذا منه صلى الله عليه وسلم كان بمثابة المحاولة لتخفيف الآلام التي كان يلاقها من أهل مكة بعد موت خديجة وموت عمه أبي طالب بعدها . لكن مطاردتها له، وتضييقها عليه، ووقوفها في وجهه، وصدها عن سبيله، كانت لا تزال كما كانت وأكثر منها كانت، فخطر بباله أن يذهب إلى ثقيف بالطائف . وكان الذي حمله على أن يذهب إليهم بالذات أمران اثنان عداوتهم لقريش بمكة، وقد ظن أن هذه العداوة ربما كانت مما يغري الثقيفيين بالاستجابة ليثيروا بذلك حفيظة أعدائهم الذين طاردوه، ولم يستجيبوا له، الأمر الثاني أن أم جندة هاشم بن عبد مناف عاتكة السلمية من بنى سليم بن منصور وهم حلفاء ثقيف، فلما توجه إليهم

ومعه مولاة زيد بن حارثة قابل رؤساءهم الثلاثة عبد ياليل ومسعود وحبيب أولاد عمرو بن عمير فعرض عليهم نصرته فرفضوا ذلك ، وردوه . أسوأ رد . ولم يكتفوا بهذا الرد والرفض . وإنما أبلغوا أمر هذه المقابلة المزرية الى قريش التي كانت تتشفي فيه ، وتزداد هي من ناحيتها ايداء له وايلاما حتى لقد زادوا على ذلك أيضا اغراء الأطفال والسفهاء بمطاردته ورميه بالطوب والحجارة . ومازال يتلافى رمياتهم ، ويتفادى قذائفهم ، حتى أضناه التعب ، وأنهكته المقاومة ، وهنالك احتمى بجدار بستان يملكه عتبة وشيبة ابنا ربيعة وهما من أعدائه صلى الله عليه وسلم فلما وقع نظره عليهما فى داخل البستان ، ورأى أنه يلتجئ الى عدوه الذى يتشفي فيه ، وقد يسره ما يعانیه ، دمعت عيناه وأخذ ينجى ربه بهذه الكلمات « اللهم اليك أشكو ضعف قوتى . وقلة حيلتى . وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى الى من تكلنى ؟ الى بعيد يتجهمنى ، أو الى عدو ملكته امرى ، ان لم يكن بك على غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات . وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك ، أو تحل على سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة الا بك » وكأنما رق قلب صبيحى البستان لهذا الدعاء ، فأخذتهما الشفقة بالداعى ، فبعثنا اليه غلامهما النصرانى بقطف من العنف ليرد به جوعه ، ويمسك به قوته المتداعية من جراء ما لاقى ، وحينما تناول قطف العنب لم ينس أن يقول وهو يتناول منه أول حبة بسم الله الرحمن الرحيم ، فهزت هذه الكلمة الغلام النصرانى « عداسا » وقال له هذه كلمة لا يقولها هنا أحد ، فسأله محمد صلى الله عليه وسلم وقد رأى منه هذا الانتباه ومن أى البلاد أنت فقال له من نينوى . على شاطئ دجلة بالعراق تواجهها الموصل . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم قرية الرجل الصالح يونس ابن متى . قال له وما علمك به ، فقرأ له من القرآن الكريم ما يتعلق نبيا يونس من سورة الصافات « وان يونس لمن المرسلين ، اذ أبق الى الفلك المشحون . فسأهم فكان من المدحضين ، فالتقمه الحوت وهو مليم فلولا أن كان من المسبحين ، للبت فى بطنه الى يوم يبعثون ، فنبذناه بالعراء وهو سقيم . وأنبثنا عليه شجرة من يقطين ، وأرسلناه الى مئة ألف أو يزيدون ، فآمنوا فمعتناهم الى حين » فلما سمع ذلك عداس أقبل عليه يقبل رأسه ويديه وقدميه . وقال له أشهد أنك عبد الله ورسوله . وكان على مقربة من هذا المشهد الرائع سيدا عداس - عتبة وشيبة - فلاماه على ذلك وقال له أتقبل رأسه ويديه وقدميه . فقال لهما ما على الأرض خير منه انه أخبرنى بأشياء لا يظلمها الا نبى ، وقد طلباه أن يخرج معهما فى غزوة بدر ليقاتل فى معسكر المشركين فأبى كل الأباء

وفى عقب هذه اللحظة الحرجة التى لاقاها النبى صلى الله عليه وسلم من ثقيف وبخاصة من الاخوة الثلاثة أولاد عمرو بن عمير الثقفى ، وعتبة وشيبة ابنى ربيعة ، ومن الأطفال الذين كانوا يتعقبونه رميا بالحجارة جاء اليه جبريل عليه السلام وقال له ان الله قد سمع ردهم عليك ، وايداهم لك . وهذا أخى ملك الجبال ان شئت أن يطبق عليهم الأخشبين - جيلين - فعل ذلك ، فمره وهو مأمور أن يستجيب لك ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم لا يا جبريل فانى أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به أحدا . . . وقد روت السيدة عائشة رضى الله عنها هذه القصة . . . قالت قلت يارسول الله هل أتى عليك يوم أشد عليك من أحد . . . قال لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، اذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل بن كلال فلم يجبنى الى ما أردت ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهى فلم أستفق مما أنا فيه من الغم الا وأنا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسى واذا أنا بسحابة قد أظلمتني . فنظرت فاذا فيها جبريل فنادانى فقال ان الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا به عليك ، وقد بعث اليك ملك الجبال لتأمره بما شئت ، فنادانى ملك الجبال ، فسلم على ، ثم قال يا محمد ، ان الله قد سمع قول قومك وما ردوا به عليك ، وأنا ملك الجبال ، وقد بعثنى اليك ربك لتأمرنى بأمرك ، ان شئت أن أطبق عليهم الأخشبين . . . قال النبى صلى الله عليه وسلم بل أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا شريك له . . . ولما كان بنحلة وهو عائد الى مكة قابله وفد من الجن كانوا رسل قومهم اليه لمعرفة أخباره ، والوقوف على أمر دعوته ، رجاء الايمان بها والدخول فيها ، وهو الذى تشير اليه الآيات « واذا صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولو الى قومهم منذرين ، قالوا يا قومنا انا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى طريق مستقيم ، يا قومنا أجبوا داعى الله وأمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين » ويظهر أن هذا الفريق الذى صرفه الله اليه ليستمع ثم ولوا الى قومهم مدبرين غير هذا الذى ذكر فى أول سورة الجن . . . وعلى كل حال فان هذه الرحلة الشاقة من النبى صلى الله عليه وسلم كان من الضروري أن تنتهى الى مكة ، وكان ذلك من المشاكل الجديدة التى يعانيتها ، لقد عاد منهزما - ولو فى نظر خصومه على الأقل - وعودته هذه من رحلة كان يرجو من ورائها أن يكتسب أنصارا يتقوى بهم على من يناوئه ، وينتصر بهم على من يحاربه ، والذين يناوئونه أو يحاربونه فى

مكة التي لا غنى له عن دخولها والانتهااء اليها وفيها القلة من أتباعه وأهله . . . وقد استحضر في ذهنه صلى الله عليه وسلم كل هذه المعاني فأرسل موله زيد بن حارثة ليبحث له عن رجل فيه من الجرأة والشجاعة ما يساعده على ألا يرفض جوار محمد . وأن يقف الى جانبه ، وأن يرد عنه عدوان من تحدثه نفسه بالعدوان عليه . فكان ذلك الرجل هو المطعم ابن عدي بن نوفل الذي تسليح هو وبنوه للقائه . ودخل صلى الله عليه وسلم مكة آمنا مطمئنا لم يتعرض له أحد بسوء ، وقد أعلن المطعم بن عدي هذا الجوار ، ليؤكد له أنه لا يتخلى عنه ، ولم يكتف بذلك حتى طاف معه حول الكعبة وفي أثناء هذا الطواف كان بعض المشركين يسألون المطعم ان كان تابعا لمحمد أم مجريا ، فيقول لهم مجبر ، فيقولون له لا تخف ذمتك . وقد عوده الله سبحانه وتعالى في كل موقف من مواقف الشدائد التي تصادفه . أن يرسل اليه بصيصا من الأمل ، أو شعاعا من الرجاء . وكان هذا البصيص أو ذلك الشعاع ، قصة الطفيل البوسى الشاعر الذى التقى به . واستمع اليه ، وملك عليه جوانبه ما سمعه من القرآن ، فأعلن إيمانه به . وكان داعية حصيفا لدى قومه الذين دخل منهم الكثير فى دين محمد صلى الله عليه وسلم . وكما سبق الحديث عنه . وكذلك وقد نصارى نجران الذين قبلنا انهم جاءوا . بادى ذي بدء . لتعرف أخباره . وتقصى أحواله . والوقوف على جلية الأمر . ليعودوا الى قومهم بالخبر اليقين . ولكنهم آمنوا به قبل أن تتحرك أقدامهم الى رحالهم ، وقبل أن ينقلوا الى قومهم الخبر . حتى غيرهم أبو جهل بسرعة الانقياد ، وأنهم جاءوا لغرض فعادوا بنقيضه ، وهكذا عود الله نبيه ألا يخذله ، ولا يتخلى عنه ، ينظر فاذا جبريل على مقربة منه ، يعرض عليه مسانيدته له . ووقوفه معه ، واستعداده لاستجابة أوامره ، ومع هذا كله فان قافلة الدعوة تسيير ، لا يتعطل لها سير . ولا تتوقف لها حركة ، ولا يخفت لها صوت . والذين يدخلون فى دين الله لا تحول خصومة قريش لمحمد ولا عداوتها بينهم وبين الايمان بهذا الدين الذى صار يجرى فى الناس مجرى الدم فى العروق .

الاسراء والمعراج

كانت حياة الدعوة الإسلامية التي تصدر لها منحة صلى الله عليه وسلم يأمر من ربه سلسلة متصلة الحلقات من المغامرات الشاقة والمصارعات المرهقة ، والصدام الدائم بين الكفار الذين وقفوا جهمهم على الكيد له ، والصناد عن دينه ، وأقامة العراقيين في مسيئته ، وأخلاق العيوب له ، وافتراء الكذب عليه ، واشعال نيران الحروب من حوله ، رجاء أن يحولوه عن غايته ، أو يشيعوا اليأس في نفسه ، ليرجع عن تلك المسيرة التي ابتدأها من الصفا والمروة ، ولا يزال يواصل الاسترسال فيها ، والامعان في دوامها ، لم يشنه عنها تعب يلاقيه ، ولا غناء يقاسيه ، ولا مشقة تصادفه ، ولا سفه يواجهه ، وكان من الطريف في هذا الكفاح المرير ، والحرب النفسية الظالمة ، أن قوى خفية كانت تسانده ، فلا تتحرك لليأس ، ولا تسلمه للأوهام ، ولا تدع روح القلق تتسرب اليه ، وربما تشيع فيه الأمل والرجاء ، بما تمد به من العناية ، وتقده له من الاهتمام ، وتستخر له من وسائل الفوز والنجاح ، فلم يصطلم بمشقة ، أو يواجه بأرهاق وعناء ، أو أيلام وتعذيب ، الا ويد الله تمسح عليه ، لتزيل عنه آثار ما لاقى من هوان ، أو صادف من متاعب ومصاعب .

والمعاملة القاسية التي عاملت بها قريش النبي صلى الله عليه وسلم في درجة أن ضاق ذرعا بمكة وأهلها ، فقطع الرجاء عن دعوتهم ، ونفض يديه من جوارهم ، وتطلع بفؤاده المكدود ، ونفسيه الكثيبة ، وقلبه الحزين ، الى جوار آخر يتنفس فيه الهواء النقي ، وينظر فيه الى وجوه مشرقة بالأمل ، باسمة بالرجاء ، لا تعبس له ، ولا تشيع بوجهها عنه وظل في قلبه بركان يغلي ومازال هكذا زمنا طويلا يترقب من ربه الفرج ،

وينتظر طلائع رحمته . كانت لونا من هذه المعاناة والشدائد . . . وقد كان ذلك مضافا اليه موت خديجة وموت أبى طالب والمقاطعة التى أحكمت أساليب اللؤم والغدر فيها قريش ، فجعل هو والمسلمون معه يحتملون منها ثلاث سنوات كاملة ما تنوء به الجبال الرواسى . . . والأجسام اذا لم تخلد الى السكون بعد العناء ، والراحة بعد التعب ، والنوم بعد الصحو الطويل . . . والسهر الدائم ، كملت وملت ، وأصابها الفتور والاعياء ، ووقفت عن العمل والحركة . . . وقد أراد الله سبحانه وتعالى من تلك الرحلة الممتعة ، راحة لنفسه صلى الله عليه وسلم ، وترضية لحاطره ، الى جانب ما هو فيها من المشاهدة لعالم آخر لم يكن ميسورا له أن يشاهده أو يتصل به ، حيث طوى له التاريخ ، وجمع له الأحداث ، وكشف له حقائق ، ومر به على عظات وعبر . . . ليعلم له مكانته عنده ، ومنزلته لديه ، حتى لا يتسرب اليه الشك فى أنه أفضل خلقه لديه ، وأكرم أنبيائه ورسوله عنده ، وهو عمل أشبه بما يصنعه ملوك الدنيا اذا ما وفد عليهم زائر كريم ، أو ضيف عظيم . فانهم يطوفون به على قصورهم الفخمة ، وأملأهم المتراصة . . . ومعالم حضارتهم وتقدمهم . . . واذا كانت الرحلات مع ما فيها من جوانب المتعة للنفس . . . والترويح عن خاطر ، تزيد فى المعرفة ، فقد كان ما رآه صلى الله عليه وسلم من مظاهر الكون ، واختلاف الألوان والأشكال ، والجزاء على أعمال الخير والشر ، وعقبي الظالمين والمتكبرين ، والمنحرفين أو المقترفين . . . تأكيداً للحقائق ، وتصويراً للمعاني ، وتنويعاً بمكانته عنده سبحانه وتعالى ، والحديث فى الاسراء والمعراج كان مثار خلاف وجدل بين العلماء - قديما وحديثا - ولم يكن الخلاف فى ثبوتها وحقيقتها . . . أما الاسراء فقد نطق به القرآن الكريم فى أول سورة الاسراء « منبجنا الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير » ومنكره كافر لأنه ينسكح القرآن الذى هو تنزيل من حكيم حميد . . . أما المعراج فان ثبوته جاء من طريق السنة وهى دليل على ما يقول العلماء ، ومن الأحاديث التى وردت فيه « عن أنس بن مالك رضى الله عنه . قال كان أبو ذر رضى الله عنه يحدث أن النبى صلى الله عليه وسلم قال فرج عن شققتى وأنا بمكة فتزك جبريل عليه السلام ففرج صدرى ثم غسله بماء زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماننا فافرغه فى صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فخرج به الى السماء الدنيا ، فلما جئت الى السماء الدنيا قال جبريل لحازن السماء افتح قال من هذا قال جبريل . . . قال هل معك أحد قال نعم معى محمد صلى الله عليه وسلم . . . فقال أو أرسل اليه قال نعم . . . فلما فتح علونا السماء الدنيا ، فإذا رجل قاعد

على يمينه أسودة وعلى يساره أسودة ، إذا نظر قبل يمينه ضحك ، وإذا نظر قبل شماله بكى . فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح . قلت لجبريل من هذا . قال هذا آدم صلى الله عليه وسلم وهذه الأسودة عن يمينه نسم بنيه ، فأهل اليمين منهم أهل الجنة ، والأسودة التي عن شماله أهل النار ، فإذا نظر عن يمينه ضحك وإذا نظر قبل شماله بكى حتى عرج بى الى السماء الثانية فقال لحازنها افتح فقال له خازنها مثل ما قال الأول ففتح قال أنس فذكر أنه وجد فى السموات آدم وادريس وموسى وعيسى وابراهيم صلوات الله عليهم ولم يثبت كيف كانت منازلهم غير أنه ذكر أنه وجد آدم فى السماء الدنيا وابراهيم فى السماء السادسة . . . قال أنس فلما مر جبريل عليه السلام بالنبي صلى الله عليه وسلم بادريس قال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح . فقلت من هذا قال هذا ادريس ثم مررت بموسى فقال مرحبا بالنبي الصالح والأخ الصالح قلت من هذا قال موسى ثم مررت بعيسى فقال مرحبا بالأخ الصالح والنبي الصالح قلت من هذا قال هذا عيسى ثم مررت بابراهيم فقال مرحبا بالنبي الصالح والابن الصالح قلت من هذا قال هذا ابراهيم صلى الله عليه وسلم وكان ابن عباس وأبو حبة الأنصارى يقولان قال النبي صلى الله عليه وسلم ثم عرج بى حتى ظهرت لمستوى أسمع فيه صريف الأقدام . . . قال أنس بن مالك قال النبي صلى الله عليه وسلم ففرض الله عز وجل على أمتى خمسين صلاة فرجعت بذلك حتى مررت على موسى صلى الله عليه وسلم فقال ما فرض الله على أمتك قلت فرض خمسين صلاة قال فارجع الى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فرجعت فوضع شطرها فرجعت الى موسى قلت وضع شطرها فقال راجع ربك فان أمتك لا تطيق فرجعت فوضع شطرها فرجعت اليه فقال ارجع الى ربك فان أمتك لا تطيق ذلك فراجعت فقال ارجع الى ربك . قلت استحييت من ربي ثم انطلق بى حتى انتهى الى سدة المنتهى وغشيتها ألوان ما أدري ما هى ثم أدخلت الجنة فإذا فيها خيائن اللؤلؤ وإذا ترابها المسك . . . ويلاحظ أن الحديث طوى ذكر الاسراء اعتمادا على ذكر القرآن له . . . وقد ورد حديث الاسراء والمعراج بصورتين مختلفتين باختلاف الرواة فالذى يرويه مالك بن صعصعة غير الذى يرويه مالك بن أنس . . . وإن كان كلاهما يتفق على أن الاسراء تقدمه إيقاف جبريل عليه الصلاة والسلام . . . وشق صدره . . . وصب وعاء من علم وحكمة فيه . . . كما يتفق كل منهما على أن الرسل كانوا موزعين على أبواب السموات ، يستأذن جبريل فيقول القائل منهم من ذلك الذى يطرق الباب فيرد عليه جبريل قائلا له أنا جبريل ، فيقول له ومن معك فيقول له محمد فيقول بعد الحفاوة به والترحيب أو قد أرسل اليه فيقول جبريل نعم . وهكذا

زوجه الاستقبال تدل على مقدار الاهتمام بالضيف ، والتعظيم له ، وتسخير
الأغوان والرؤساء لخدمته . . . والذي يتصور هذا الاستقبال وما أحاط به
من الاجلال والاحترام ، سينسى من غير شك استعراض الجيوش التي
كانت تعد لاستقبال الملوك ، ورؤساء الدول ، احتفالا بقدمهم ، وابتهاجا
بضيافتهم ، وتنويها بشأنهم ، وتخليدا لتاريخهم ، ولا ننسى أنه قبل
العروج الى السماء ومعه جبريل عليه السلام قد صلى بالأنبياء في بيت
المقدس . وقد كان هو الامام مع أن في هذا الجمع الذي صلى به آدم
أبا البشر . وأباه ابراهيم وكان فيهم - كذلك - أولو العزم من الرسل .
وهو دليل آخر على الحفاوة البالغة ، والتكريم الذي لا نهاية له . . . ويقول
رواة الحديث أن جبريل لم يتجاوز السماء السابعة ، أما هو صلى الله عليه
وسلم فإنه ارتفع الى سدة المنتهى ، ورأى فيها مثل قلال هجر ، وورقها
مثل آذان القيلة ، ثم تجاوزها الى البيت المعمور ورأى أفواج الملائكة تدخل
اليه أو تخرج منه . وهكذا رأى صلى الله عليه وسلم ما لا عين رأت ،
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . . وفي ذلك كله دليل آخر على
أن قدره يتجاوز هؤلاء جميعا بما فيهم جبريل الذي تخفى له عن السبق ،
وقال له ليس من حق أن أزيد عن ذلك أما أنت فلك الى ما وراء سدة
المنتهى « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى ، فأوحى الى عبده
ما أوحى ، ما كذب الفؤاد ما رأى ، أفتمازونه على ما يرى ، ولقد رآه نزلة
أخرى . عند سدة المنتهى ، عندها جنة المأوى ، اذ يقضى السدرة ما يغشى ،
ما زاغ البصر وما طغى ، لقد رأى من آيات ربه الكبرى » .

والاسراء هو السير بالليل ومشيبه السري وزان الهدى والنهاي
والنيل . . . وهو قطعه صلى الله عليه وسلم المسافة من المسجد الحرام بمكة
الى الميصب الأقصى بالمقدس . على الدابة المسماة بالبراق ، وكان العرب
لا يقطعونها الا في شهر كامل ذهابا وآخر ايابا . . . ولذلك هالهم الامر .
واستعظموا ذلك الحديث . وطالبوه صلى الله عليه وسلم بالدليل على أنه
جنادق في ذلك . فأخبرهم بأن في الطريق عرا لبنى فلان وأخرى لبنى
فلان ومن أوصافها كيت وكيت . فطالبوه أن يصف بيت المقدس نفسه .
فأخذ يصفه كأنما هو حاضر أمامه . . . وهي يتحدث لهم عن جدرانها ونوافذها . . .
وفي الحديث عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، أنه سمع رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول « لما كذبتني قريش فميت في الحجر فجعلني الله
بيت المقدس فطفقت أخبرهم عن آياته وأنا أنظر اليه » على أنهم مع هذا
البيان كله كذبوه صلى الله عليه وسلم وقالوا لعلها رؤيا نائم ، أو وهم
جالم . . . وارتد بعضهم عن الاسلام بسببها « وما جعلنا الرؤيا التي أريناك
الا فتنة للناس » . . .

والمعراج هو الصعود . ومنه قوله تعالى في سورة المعارج « تعرج الملائكة والروح اليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » وقد صعد معه جبريل عليه السلام من غير سلم ولا آلة أخرى يرتفع بها . بل بقوة الهية كانت تجذبه الى فوق كأنما كان يمتطي مصعدا مما صنعه العلم الحديث الآن . وللعلماء اختلاف في حصوله للنبي صلى الله عليه وسلم ، هل كان بجسمه وروحه أم انه كان بروحه فقط ، والذين يؤيدون أنه كان بروحه فقط . يقولون ان نظرية الضغط الجوى هي التى تحدد ذلك لأن الانسان اذا ارتفع الى طبقة خاصة من الجو خرج دمه من مسام جسمه فمات ، وقد ثبت أنه صلى الله عليه وسلم لم يمت من المعراج فدل هذا على أن المعراج كان بالروح فقط . ويلزم من هذا القول انتفاء الاعجاز والخصوصية . والذين يقولون انه كان بالروح والجسم يبطلون هذا الدليل بأنه قياس غائب على شاهد وهو باطل . ويقولون انه كان معجزة من معجزاته صلى الله عليه وسلم ، والمعجزة هي الأمر الخارق للعادة ، ويستدلون بأن الله سبحانه وتعالى في تسجيل هذه الحادثة يقول : « سبحانه الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله » والعبد اسم للروح والجسم معا ، ولو كان بالجسم فقط لقال بجسم أو جسد أو ما شاكل ذلك مما يدل على الهيولى مجردة على الروح ، وكذلك لو كان بالروح . على أن الروح وحدها لا يصح أن تكون مجال بحث أو نظر ، لأن الأرواح - مطلقا - من خصائصها التحليق والطواف دون أن تحدها أبعاد أو غايات ، لأن التحديد للمادة وهى ليست كذلك . .

وفى عروجه صلى الله عليه وسلم فرضت الصلاة - كما ثبتت قصتها فى الحديث - خمسين صلاة فى اليوم واليلة . ومازال صلى الله عليه وسلم يراجع فيها ربه خوفا من المشقة على أمته حتى صارت خمسا فقط ، ومن عجيب أمر هذه المراجعة أو المحاورة أن يكون موسى عليه السلام هو الطرف الثالث فيها دون غيره من الأنبياء والرسل ، وفيهم من هو أمس رحما برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جده ابراهيم ، ولعل السر فى هذا يرجع الى أن موسى أكثر الأنبياء معاناة ، وأعظمهم تجارب ، لأن بنى اسرائيل لم يتركوا معه بابا من أبواب العنت الا ولجوه ، ولا أسلوبا من الأساليب فى الكيد الا سلكوه ، وكانت حياته معهم سلسلة من الصراخ الدائم ، والكفاح المرير . وهو من هذه الناحية أبعد نظرا ، وأحزم رأيا ، ولا يطعن هذا فى غيره من الأنبياء والرسل . لأن التخصص بالمرية لا يقتضى الأفضلية - كما يقول علماء الأصول - وليس معنى مشروعية الصلاة فى هذه الرحلة الخالدة أنه صلى الله عليه وسلم لم تكن فى عبادته

لربه صلاة ، فانه كان يصلي . وكانت الصلاة ركعتين ركعتين كما صح
في الحديث الشريف . ويظهر أن الرحلة الأخيرة التي فرضت فيها الصلاة
كانت هي الرحلة الثانية في تدرج المشروعية . ونحن نعلم أن التدرج
كان في كثير من التكاليف والعبادات . على أنه صلى الله عليه وسلم كان
يتعبد في أول أمره على ملة أبيه إبراهيم وربما كانت الصلاة هكذا في ملة
إبراهيم .

مبايعة العقبة

لم يعرف عنه صلى الله عليه وسلم أنه سكت عن الدعوة لحرب واجهته ، أو شدة صادفته ، أو تدبير شرير قام به خصومه ، أو هياه له أعداؤه . ولكنه كان دائب العمل ، دائم الجهد . لا يثنيه صعب . ولا يرده مستعص . ولا يثنى عزيمته جاف غليظ . . . وكان خصومه كلما حاولوا أن يعطلوا مسيرته ، أو يعوقوا ركبه . أو يفلقوا في وجهه الأبواب . مهد هو بجلده وكفاحه وعزيمته وثقته في الله بابا آخر يدخل منه الى قلوب الناس وأفئدتهم . ونحن نعلم أنهم كانوا يتابعونه في المجالس والطرقات والأسواق ليقولوا للناس لا تلتفتوا اليه ، ولا تأخذوا عنه ، ولا تصدقوا له قولا ، لأنه يكفر بالآلهة . ولا يؤمن بالآوثان . ويفرق بين الرجل وعشيرته ، والمرء وزوجه ، وما زالوا به مطاردة وازدراء وتضييفا حتى قطعوا عليه منافذ الطرق ، ومسالك السبل ، وجعلوه يضيق ذرعا بهم ، وينفض يديه منهم . وقد كن يخرج الى الأسواق يطلب من يجيره ، وينشد من يحميه . ويقول لمن يلتقى به من الوافدين على مكة انه مضطهد في أهله . غريب في وطنه ، محارب من قومه ، لا يشعر بالحرية ، ولا يتمتع بالكرامة ولا يحس بالانصاف من الناس ، ثم يطلب من هؤلاء الذين يوجه اليهم خطابه . ويخصم بشكايته ، أن يحموه من عدوان أهله ، وظلم قرابته ، وكثير من أولئك الذين كان يلوذ بهم . ويفزع اليهم . كانوا يردونه ردا غبر كريم ، ويقابلونه مقابلة جافة ، وكان من الطريف من هذه الطوائف التي عرض نفسه عليها في الأسواق أنهم اشترطوا في ايمانهم به . وانضمامهم اليه ، أن يجعل لهم الرياسة على الناس فاعتذر لهم أن دعوته لا تقوم على السيادة ، ولا تقدس الزعامة « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا » ومع كل هذا فإنه كان

يعلق أملا كبيرا على الوافدين على مكة مرتادى الأسواق من أهل الأطراف
البعيدة ، وبخاصة أهل المدينة ، وكأنما يرى أن بينه وبينهم روابط تحذبهم
عليه ، وترقق قلوبهم له . وتهوى بأفئدتهم إليه . وساعده على
هذا الأمل أو زاد من مطامعه في ذلك أن بنى النجار أخوال جده هنالك ،
وأن قبر والده هنالك أيضا . لكن الواقع الذي لا شك فيه أن أهل
المدينة من العرب واليهود كانت بينهم احن وعداوات . دعت العرب
أنفسهم أن يحالفوا اليهود لينتصروا بهم ويهدد بعضهم بعضا ، فالأوس
حالفت بنى قريظة ، والخزرج حالفوا بنى قينقاع وبنى النضير ، وكان
ذلك امتدادا للعداوة التي خلفها يوم بعث الذي أفنى كبارهم ورؤساءهم ،
على أن اليهود كانوا يعتبرونهم سوقة ليست لهم سيادة ولا جاه ، إذ
كانوا يعملون لهم ويشغلون في أراضيهم ، وكانوا كلما اختلفوا معهم
هددوهم بالنبي الذي حان حينه ، وقرب أوانه ، وكانت عائشة رضى الله
عنها تقول كان يوم بعث يوما قدمه الله لرسول الله صلى الله عليه
وسلم . وذلك لأنه هو الذي جعل كلا من الأوس والخزرج تحرص على
أن تسبق الى الايمان به لتنتصر به على صاحبها ولما جاء موسم
الحج تعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم لنفر من الخزرج يبلغون
الستة ودعاهم الى الاسلام والى معاونته في تبليغ رسالة ربه فامنوا به
وقالوا له ان يجمعنا الله بك فلا رجل أعز منك لدينا ووعدوه المقابلة
في الموسم القادم وفي العام الذي بعده جاؤا اليه وقد كمل عددهم
اثنا عشر رجلا فعاهدوه على ألا يشرك أحدهم بالله شيئا ولا يسرق
ولا يزنى ولا يقتل أولاده ولا يأتى ببهتان يفتريه بين يديه ورجليه
ولا يعصيه في معروف وأرسل النبي معهم مصعب بن عمير يقرئهم القرآن
ويعلمهم الاسلام ، وكان لمصعب أثر بارز هنالك إذ أسلم على يديه سعد
بن معاذ رئيس الأوس وابن عمه أسيد بن حضير وأسلم باسلامهما خلق
كثير . وفي العام الثالث أقبل خمسة وسبعون رجلا وكانت مبايعتهم
ذات دوى صاحب جعل قريشا تهتز . وكان مع النبي صلى الله عليه
وسلم عمه العباس الذي لا يزال على دين قومه ، وقد كان يقدر في هذا
الوقت خطورة هذا الحلف الذي يعقده معهم مع أهل يثرب . فقال
يا معشر الخزرج ان محمدا منّا حيث قبل علمتم . وهو في عز من
قومه ، ومنعة في بلده ، وقد أبى الا الانحياز اليكم ، والحق بكم ، فان
كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتوه اليه ، وما نعوه ممن خالفه .
فانتم وما تحملتكم من ذلك ، وان كنتم مسلموه وخاذلوه بعد خروجه
اليكم فدعوه فقالوا قد سمعنا ما قلت . . فتكلم يا رسول الله .
فقال أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم
وكان فيهم البراء بن معرور فقال بايعنا يا رسول الله فنحن أبناء الحروب
ورثناها كابرا عن كابر فقال أبو الهيثم بن التيهان أترجع الى قومه

وتدعنا ، فقال النبي أنتم منى وأنا منكم أحارب من جاربتهم وأسلم من سالمتم . . . ومدوا أيديهم فبسط النبي يده وبأيهم وجعل منهم اثني عشر نقيبا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس . ولما وصل نيا هذه المبايعة الى قريش غضبت أشد الغضب وذهبوا الى الخزرج وقالوا لهم آتيتم الى أرضنا لتأخذوا صاحبنا وتبايعوه على حربنا فاعتذر لهم من لم يحضروا المبايعة ولم يبلغهم خبرها .

وكان اليهود بالمدينة يهددون الأوس والخزرج بأنهم سيطفرون بهم ، وينتصرون عليهم بالنبي الجديد الذى سيسارعون الى اعتناق دينه ، عندما يصل اليهم العلم بظهوره . وقد كان لهذا التهديد أثره فى الدخول فى شريعته . والايامن به ، وكل طرف من الأطراف فى هذه الآونة كان حريصا على أن يكون أسبق من غيره اليه . . . أما قريش فانها أخذت تتوجس لأنها أصبحت تعتقد أن دعوة محمد قد انتقلت الى مرحلة جديدة تجاوزت بها كونها ديننا وشريعة يختلف الناس عليها بين التصديق والتكذيب ، والايامن والكفر ، والاذعان لها أو الخروج عليها ، وصارت دولة من حقها أن تهدد وتتوعد ، وتحمى حدودها ، وتدافع عنها ، ثم هى فى وضع يسمح لها أن تردع وتخيف ، لأنها تستطيع أن تقطع الطريق على قريش ، وتجعلها بين أمرين إما أن يظل مرورها وتجاريتها من هنا مع الخطر الذى تستهدف له ، أو أن تتحول عنه ، وكلا الأمرين يكلفها الكثير من العناء . وقد كان محمد فى مكة مع القلة التى آمنت به تحت اسم قريش وبصرها تستطيع أن تحدد موقفها اذا خرج من مكة الى المدينة فقد خرج الأمر من يدها وتجاوز استطاعتها ، وحتى اذا لم يخرج وظل بين ظهرانيتها . فقد صار له معسكران لا معسكر واحد . . . ويقول الدكتور الشريف « ثم تسلل المسلمون أفرادا وجماعات مهاجرين الى يثرب . يستخفى بهجرته من يخشى على نفسه ، ويستعلن بها من يجد فى نفسه القدرة على التحدى ، وحاولت قريش أن ترد من استطاعت رده الى مكة لتفتنه عن دينه ، أو لتعذبه وتتكلم به ، وبلغت من ذلك أنها كانت تحول بين الزوج وزوجه ان كانت المرأة من قريش فلا تدعها تسير معه ، وأنها كانت تحبس من لم يطعها وتستطيع حبسه ، لكنها لم تكن تقدر على أكثر من ذلك حتى لا تكون حرب أهلية بين مختلف بطونها ان هى همت بقتل واحد من هذه البطون . وان كان بعض الموالى لقي حظه فى هذا السبيل . لكن الهجرة مع ذلك تمت وهاجر معظم المسلمين الا من قدرت عليه قريش ، وبقي محمد صلى الله عليه وسلم لا تدري قريش ولا بدرى أحد أبقى هو كما حدث فى الهجرة الى الحبشة ، أم بهاجر فى هذه المرة مع أصحابه ، وهذا الاحتمال الأخير هو الذى أخاف قريشا . فانه يستطيع من مهاجرة الجديد أن ينظم جماعته أو ينظم يثرب التى فشا فيها

الاسلام بصورة تنبىء عن أنها ستكون مدينة اسلامية بعد وقت وجيز ، ولو تم هذا لكانت مكانة قريش الدينية والأدبية مهددة لقيام هذا الدين الجديد الذى يعمل لتحطيم الوثنية فى بلاد العرب ، ولقضى بذلك - كذلك - على زعامة قريش الروحية . وكانت تجارة مكة على خطر اذا وقف منها محمد موقف العداء والمخاصمة ، وهو لابد واقف هذا الموقف ان عاجلا أو آجلا ، لما ألحقته به وبأصحابه من أذى ، ولأنه يسعى لاقرار مبادئ جديدة لابد لاقرارها من تشكيل اجتماعى وسياسى جديد . ولذلك مشى رجال قريش الى بعضهم وعقدوا اجتماعا عاما فى دار الندوة تداولوا فيه الأمر ، واستعرضوا كافة احتمالات الموقف . ثم قر رأيهم على ضرورة التخلص من هذا الرجل بالقتل . . .

ونحن نعلم من سيرنا مع الحوادث ، ووقوفنا على الخطوات التى سلكوها معه من قبل ، أنهم كانوا يتهيئون قتله . ويعتبرون الاقدام عليه ضربا من الحماسة والطيش . لذلك لم يقبلوا رأى من يشير به ، أو يفكر فيه ، تفاديا لعداوة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، ولكنهم أصبحوا مع محمد على حال تحتم عليهم أن يفكروا فى قتله ، لأنه بسلكه الذى يسلكه ، ونهجه الذى يسير عليه ، منته الى قتلهم من غير شك . . والحصافة تقضى اذا تربص عدوك لك ، وتجههم فى وجهك ، وأخذ منافذ الطرق عليك ، أن تحذر منه ، وتستعد له ، وقد أيقنت قريش منذ أدبر عنها وفد العقبة الأخير أن عليها أن تحتاط للشر قبل وقوعه ، الا أن هذا الشر الذى كانت تحذره ، وتأخذ الأهبة لوقوعه شائك الى أبعد حد . وقتل محمد اذا هى أقدمت عليه سيجعلها فى حرج لا قبل لها به ، لكن محمدا سيقتلها ان لم تبادر بقتله ، فماذا هى صانعة ، أخذت تقلب المسائل على وجوهها المختلفة لنجعل بنى هاشم وبنى عبد المطلب أمام الأمر الواقع - كما يقولون - حتى لا يفكروا فى الأخذ بثأره اذا قتل . . فقال قائل نجعله على ظهر بعير يضل به فى الصحراء الى أن يموت . فسفهوا رأيه . وقالوا له انه لا يعدم بمنطقه الحلو . وعقله الكبير ، ورأيه السديد ، وتفكيره الحكيم ، أن يجمع اليه الجموع الغفيرة التى تقبل عليه ، وتتجاوب معه ، وتقدم نفوسها قربانا له ، وتفك وثاقه ، وتخوض معه الحرب الطاحنة لقتل عدوه ، والقضاء على خصومه وقال آخر نحبسه الى أن يموت فردوا عليه بما يشبه الرد السابق . . وقال أبو جهل نأخذ من كل قبيلة فتى جلدا ، ثم يجتمع هؤلاء الفتيان ليضربوه ضربة رجل واحد ، وبذلك يتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطع أهله أن يثأروا له . . . وبينما كانوا جادين لانجاز تلك الفكرة التى وصلوا اليها . كانت الأنباء تأتى اليهم أن المسلمين الذين كانوا فى الحبشة والذين كانوا فى مكة قد أخذوا طريقهم الى يشرب التى تتطلع الى لقائهم ، وتهفو الى

جوارهم ، وتستعد كل الاستعداد لايوائهم ... وكان على كرم الله وجهه
في المكان الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم ينام فيه مبالغة في
تضليلهم . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد خرج هـ وأبو بكر
رضى الله عنه متوجهين الى المدينة ...

والى هنا نستطيع أن نقول ان قريشا قد تفلت الزمام من يدها ،
وان الأرض التي تقف عليها لم تكن صلبة وان تفاديتها للموقف ، أو
علاجها للأمور ، لم يعد ممكنا . وأن كل خطوة كانت تخطوها للكيد لمحمد
أو النيل منه ستلاقى جزاءها مضاعفا . وستحاسب عليها حسابا عسيرا ،
وسوف يكون وضعها في مكة غير محسود عليه . وسنرى من سير
الحوادث ، وجريان عجلة التاريخ ، أن أوراقها ستذبل ، ونضارتها
ستزول ، وتيجانها سوف تتساقط تساقط أوراق الخريف ، لأن دولة
محمد صلى الله عليه وسلم التي تقوم في المدينة ستأخذ في الاعتبار
حينما تزحف زحفها المقدس في الأرض . لتمكين الحق ، وقرار العدل ،
وانصاف المظلومين ، وعبادة الله . وتصحيح الأوضاع ، أن ذلك كله
لا يكون الا اذا تحطمت أصنام مكة ...

هجرة الرسول

لم يكن هنالك بد وقد أفرغت قريش كل ما في جعبتها أن يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم هو ومن كان معه من المسلمين مكة ، بعد أن أصبحت الحياة فيها مليئة بالقلق والاضطراب ، والأيلام والأذى ، والمطاردة والخوف والعنت والارهاق ، والكيد والتعذيب ، لكن كيف يقدم على ذلك وهم لا يغمضون أعينهم عنه • كأنما هم موكلون بحراسته ، إذا نام أو صبحا ، أو تحرك أو سكن ، أو نطق أو سكنت ، أو راح أو جاء ، حتى البيت الذي يأوى إليه لا يفوتهم أن يعرفوا أن كان يحتويه أو خاليا منه ، ينظرون من فرجة منه ليروه ببرده الخضمي الأخضر ملتقا مستغرقا في النوم • فإذا لم يكن على مقربة منهم ، وفي الأمكنة التي يعهدونها ثارت نفوسهم ، واختل توازنهم ، وأخذوا يبحثون عن مكانه ليطمئنوا على أنه في قبضة أيديهم ، وفي مناطق نفوذهم • • لهذا كان من الصعب على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يخفى عن أنظارهم • أو يغيب عن أعينهم ، أو لا يكون لهم علم بمكان وجوده ، وكل واحد منهم ديدبان على باب داره ، ومناطق تحركه ، ومجالات نشاطه لبث دعوته ، وإعلان دينه ، وهذا هو السر في أنه لم يخرج إلى البلاد المجاورة له طيلة هذه المدة التي أقامها بينهم مع ما كانوا يصنعون معه ، وقد هاجر المسلمون إلى الحبشة فرارا بأنفسهم ، لكنه لم يخرج معهم وربما كان في خروجه غنم له وللدعوة التي ينادى بها ، إلا أن هذا البقاء الذي كان على غير رغبته • كان خارجا عن إرادته • ولو استطاعه لبادر إليه • على الرغم من أن فراقه لمكة لم يكن يسيرا على نفسه • أو مما تقر به عينه ، لأنها مجال صباه ، ومراد طفولته ، وموطن أهله وعشيرته • ولهذا فان الظروف التي ساعدته على أن يفارقها لم تنتج له إلا بعد تفكير طويل • ودراسة واعية • وتخطيط عميق • شارك فيه مجموعة من الناس كان لكل منهم

دوره الجاد ، وجهده المشكور . فعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه يجعل نفسه فى مكان النبى صلى الله عليه وسلم ينام فى فراشه ويعرض حياته للموت وهو يعلم أنه ينام فى فراش وفى مكان انسان يطلبه أعداؤه للموت . وأبو بكر رضى الله عنه يهين راحلتين يشتريهما بماله الخاص ، وعبد الله ابن أريقط يضع نفسه تحت تصرف الراكبين ليكون دليل الطريق . وعبد الله بن أبى بكر يلتقط أخبار قريش لينقلها الى الرجلين فى الغار . وكان عامر بن فهيرة راعى غنم أبى بكر يعفى آثار أقدام عبد الله بن أبى بكر بسير الغنم وهو غاد أو رائج الى أبيه ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأسماء بنت أبى بكر تحمل الزاد . وغار ثور الذى يختفى فيه الرسول ومعه صاحبه تنسج العنكبوت نسجها على بابه ، والحمامة تصنع لها عشا لتبيض فيه . وشجرة بعد ذلك كله تميل بفرعها على باب الغار . وهكذا منظر يمل على أن الغار مهجور منذ زمن طويل لم يمر ببابه حيوان ولا انسان .

عناية الهية تجاوزت حدود العقل من غير شك تلك التى تولت باب الغار بنسج العنكبوت وعش الحمام وفرع الشجرة . الا أن السياسة التى أخذ النبى صلى الله عليه وسلم نفسه بها لتنجح تلك الخطة التى رسمها . والرحلة التى ابتدأها ، كانت هى أيضا عنوانا على بعد النظر . ودقة التفكير . إذ أنه اختار للاختفاء غار ثور على بعد ساعة من الزمن من مكة ، ثم ظل مختفيا ثلاثة أيام ، وهو يعلم أن عدوه الذى يطلبه سينطلق فى طلبه الى الطريق العام بين مكة والمدينة . فلا يفكر أنه على مقربة منه ، أو أنه لا يزال مقيما معه . ويضاف الى ذلك أنه بعد هذا الاختفاء لم يسلك الطريق المألوف وانما سلك أخرى . وكل هذه الوسائل التى اتخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم لخروجه من مكة وهجرته من مكان يلاقى من أهله العنت كانت عبقرية رائعة تدل على سياسة حكيمة . وعقل كبير ، ربما كان خارجا عن نطاق المألوف فى أصحاب العبقريات الجبارة

كل هذا تلموز به عجلة الزمن . ويمضى به التاريخ قدما . وقريش لا تزال على يقينها الكاذب ، وهمها الباطل . أن محمدا صلى الله عليه وسلم بين ظهرائها ، والفتيان الذين وقع عليهم الاختيار ليفرقوا دمه فى القبائل على باب داره ينتظرون خروجه منها ليضربوه ضربة رجل واحد ، وما يدرون أن النعاس قد غلبهم فى لحظة من اللحظات ، كان خروجه حينها وقد غفر رؤوسهم بالتراب قائلا شاهت الوجوه . فلم يتنبه منهم أحد . لكنهم ظلوا على هذا الاعتقاد حتى قال لهم قائل لقد رأيت ثلاثة من الرجال على رواحهم أشبه بالمسافرين وكانما محمد واحد منهم . وحينئذ سقط فى أيديهم . ورأوا أنهم قد ضلوا . فجعلوا لمن يأتهم بخبر صادق

عن تلك الرحلة مائة بعير . وكان سراقه بن مالك حاضرا فقال أنا آتيكم
 بخبر هذه الرحلة ، وكأنما ظن أنهما لا يأخذان الطريق المألوف . فعدا
 بفرسه في طريقهم فلما أدركهم سساخت به فزجرها بعنف فنهضت به
 نهوضا طائشا ألقى به على الأرض وهنالك أحس كأن الدنيا تلعبه ،
 والحياة تلفظه ، والسما تنطبق عليه . والهواء يخنقه ، وأن إيمانه بمحمد
 هو الذي ينقذه مما تورط فيه . فطلب منه الأمان فأعطاه إياه ، ثم رجاه
 أن يعطيه كتابة تدل على أنه أدركه في الطريق والتقى به ، ليأخذ الجائزة
 التي رصدوها لمن يدلهم على محمد . . والى هنا كانت قریش على يقين أن
 محمدا صلى الله عليه وسلم قد فارق مكة متجها الى المدينة وأنه خرج من
 قبضة يدها لا تستطيع أن تدركه ولا أن ترده أو تصده ، وأن هذا هو
 الفصل الأخير من الرواية . . لكننا نسأل هل انتهت الرواية حقا ، وهل
 هذا هو الفصل الأخير منها . وهل نطمأن خاطرنا لمطاردتها لمحمد ،
 واذائتها له ، وصدها عنه ، ووقوفها في وجهه . الى هذا الحد الذي جعله
 يطلب جوارا غير جوارها ، ومناخا غير مناخها ، وقوما سواها لا يكون
 فيهم شراستها ، وسوء معاملتها ، وغلظ أفئدتها ، وجمود أفكارها .
 وانصراف قلوبها ، وجحود عقولها ، أظن ذلك بعيدا كل البعد . وأنها
 ستعاني من بعده عنها أكثر مما كانت تعانيه من قربها منها ، ويدلنا على
 ذلك أنها قد ابتدأت تفكر في أمر محمد على نطاق أوسع مما كان .
 فهو لم يعد في نظرها داعيا الى دين يخالف دينها . ويصطدم بآلهتها ،
 وإنما هي تفكر فيه كرئيس دولة لها كيائها الاجتماعي والسياسي لا يقل
 في شأنه عن الدول الأخرى التي تجاورها مثل الفرس والروم . وأنها
 اذا كانت في الماضي تحسب هؤلاء الذين كانوا يغيرون على حدودها ،
 ويطمعون في السيطرة عليها . فعليها أن تحسب هذا الحساب على نطاق
 أوسع لرجل يتنافس على الخضوع له ، والدخول في دينه الأوس
 والخزرج وطوائف اليهود في داخل المدينة أو على حدودها . وهو لا محالة
 ستحدثه نفسه بالعودة الى الأرض التي طرد منها ، والقوم الذين باعوا
 جوارها ، وفرطوا في وده ، وخاسوا بعهوده ومواريقه ، وكل وجداناتهم
 وعواطفهم كانت تدل على أنهم كانوا يعدون عدتهم لهذا اليوم الذي
 يخافونه ، والمصير الذي يترقبونه ، ولو كانوا يعلمون الغيب ما عاشوا
 هذه المدة التي فارقهم فيها محمد يعملون للظفر به ، أو النيل منه .
 لأن محمدا كان يعيش في قلوب هؤلاء الذين آمنوا به . والتفوا حوله ،
 أما هم فانهم كانوا يعيشون في قلوب أنفسهم وكفى . وهي قلوب خربة
 من الايمان . خالية من اليقين ، وكل واحد من أصحاب محمد بألف ،
 أما هم فكل ألف بواحد ، وشتان بين محمد وبينهم ، ولكنهم لا يفقهون » .

فى الطريق الى المدينة

كان خروج النبى صلى الله عليه وسلم من مكة دون أن يعلم به أحد من كفارها الذين كانوا مشغولين به يحصون عليه تحركه وسكونه ضربة قاصمة لم تكن تترقبها . ولا تتوقع حدوثها ، وهذا هو السر الذى جعلها تجعل لمن يدل على جهة تحركه ، او ناحية قصده مائة ناقة من أجود ابلها ، وهى جائزة على ضخامة قدرها . وعظم شأنها . لم يحصل عليها أحد . لأنهم لم يهتدوا الى الجهة . ولم يعرفوا الطريق . ولم يقفوا مع البحث المتواصل . والاهتمام الكبير . على خبر شاف . يطمئنون به الى ابن محمدا سلك طريقا بعينه يمكن أن يلحقوا به ، أو يواصلوا السير الى ناحيته ، وكل ماترامى اليهم من الاخبار ، أو وصل اليهم من علم أن رجلا كان يغنى بيت شعر أرادوا أن يجعلوا منه بصيصا من النور . أو شعاعا من المعرفة . ذلك البيت هو قول القائل الذى لا يعرف أحد من هو وما قصته .

جزى الله رب الناس خير جزائه رفيقين حلا خيمتى أم معبد

وأم معبد على الطريق لمن يكون متجها الى المدينة يعرف الناس مكانها ، ويعرفون أنها امرأة رقيقة الحال لا تملك من المال . ولا من ثروة الدنيا ، ما تجود به على معدم ، أو تسخو به على محتاج ، لينطلق لسان أحد بالثناء عليها ، أو المدح لها ، بشعر هكذا يتغنى به أحد فى خلوته ، ويردده بينه وبين نفسه . قطعاً لوقت ، أو دفعا لملالة وسأم ، لهذا كان لابد أن يدفع الفضول كثيرا من الناس أن يبحثوا عن قصة أم معبد هذه ، وما الذى دفع هؤلاء الذين يرددون اسمها ويتحدثون عنها . أن يولوها هذا الاهتمام . وتلك العناية . . وتطوع من تطوع بسؤالها عن هذين الرفيقين اللذين حلا خيمتها - ولم يكن لأم معبد حظ فى اخفاء هذا الحديث أو انكاره ، وهى لم تعرف صاحبيه ، ولم يوصها واحد منهما ان تحتفظ بسره ، أو أن تخفيه على الناس ، وبخاصة وهو فيه من الطرافة والغرابة

ما يجعله فى باب الأفاضيل التى يتناقلها الناس . وكان مبلغ علم أم معبد عن هذين الرفيقين أنهما قصدا الى خيمتها رغبة فى طعام يدفعان به غائلة الجوع . أو ماء يفتلان به حدة الظمأ . ولم يكن عندها شئ من ذلك . فلما ينسا من هذا كله مع الجوع والظمأ . نظرا الى شاة هزيلة فى الخيمة وقال أحدهما أليس فيها لبن نحلبه قالت لهما ان الهزال قد أقعدها عن الخروج الى المرعى مع بقية الغنم وهى لهذا لا أمل فيها . ولا رجاء منها ، لكن أحدهما تقدم اليها ومسح على ضرعها فدر لبنها فشرب وشرب جميع من كان هنالك . . وهذا هو كل ما تعرف أم معبد عن هذا البيت من الشعر وعن قصتها معه . . ولعل هذا البيت - كذلك كان هو الخيط الذى وصل سراقه بذلك الطريق الذى سلكه ليدرك محمدا صلى الله عليه وسلم وان كان جهده الذى بذله لم يعد منه بظائل . . وقد عاتبته قريش فى بطئه فى العودة لأنها كانت ترجو أن يعود اليها مسرعا لتدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يدخل الى المدينة لترده على عقبه الى مكة « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وقد كان يهون المسافة الطويلة التى قطعها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين مكة والمدينة أن أبا بكر كان يقص من التاريخ ، ويروى من حوادث الأيام ، ما يطرد به الهموم عن النبى ، ويشيع فى نفسه الغبطة والمرح ، فلا يحس بتعب ، ولا يشعر بألم ، وأبو بكر حبيب الى نفسه ، قريب الى قلبه ، يستريح لمصاحبتة ، ويأنس بجواره . . وبطيء خاطرا بوجوده معه . . ومع ما كانت عليه تلك الرحلة من المشقة التى ظن محمد صلى الله عليه وسلم يعانى منها هو وأبو بكر . فانها كانت حبيبة الى نفسيهما . . سهلة الوقع عليهما ، لاحتساستهما العميق أن المدينة سوف تكون الدار الطيبة ، والبيئة الصالحة ، والتربة الخصبة ، والوطن العزيز . والمنطلق الذى تجد الدعوة فيه من الازدهار والنمو ، والكمال والذيع . والاستقرار والثبات ، والقوة والتمكن . ما كانت تترقبه وتصبو اليه ، وتأمله وترجوه . . وقد كان من العوامل المهمة فى الاستهانة بهذه المتاعب كلها عامل له تقديره ولا يصح اغفاله فى تاريخ الهجرة ، والحديث عنها ، أو السرد لأخبارها ، ذلك أن محمدا صلى الله عليه وسلم . فى كل خطوة يخطوها . وفى كل مكان يمر به ، كانت تتفتح له قلوب الناس . وتتهافت اليه أفئدتهم . وتحفه من كل جانب ضمائر كانت تتأجج بنار الشوق ، وتشتعل بلهب الود ، وتخف من مكانها لاستقباله ، والحفاوة به . وتطلب منه أن ينزل اليها ويحل ضيفا عليها ، ولم يكن يصل الى قباء - وبينها وبين المدينة ثلاثة أميال أو خمسة كيلو مترات - كما يقول لبيب البتانوفى - حتى كان على بن أبى طالب رضى الله عنه قد أدركه . وهنالك طلب منه بنو عمرو بن عوف أن ينزل عندهم ،

ويستريح في جوارهم هونا ما من الوقت ثم يواصل سيره بعد ذلك اذا اراد فبقى عندهم اياما وضع فيها اساس مسجد كان هو اول مسجد أسس على التقوى ، واستأنف بعد ذلك سيره الى المدينة على راحلته .
ومعه أبو بكر على راحلته أيضا . وكان وفود أهل المدينة في صفوف متراصة على طول الطريق من أول النهار حتى يشتد لفتح الشمس عليهم فيعودوا الى منازلهم . وكان مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو داخل الى المدينة أربعة رجال عبد الله بن أريقط دليل الطريق ، وغلامه زيد بن حارثة ، وعلى بن أبي طالب ، وأبو بكر ، ولا يعرف النبي صلى الله عليه وسلم من هذا الجمع الحاشد على جانبي الطريق الا أصحاب بيعة العقبة الأولى والثانية وهم لا يتجاوزون الثمانين بقليل . وقد ترقب صلى الله عليه وسلم اذا عرفه هؤلاء المستقبلون أن يرهقوه بالسلام عليه ، والاستقبال له . وكانوا يعرفون أبا بكر لكثرة أسفاره وتجارته .
وهم اذا أرادوا أن يتبينوا النبي صلى الله عليه وسلم من هذا فسوف لا يكون المسئول عنه الا أبا بكر . لهذا أوصاه النبي صلى الله عليه وسلم ألا يدلهم عليه . حتى لا يحس بالارهاق والتعب أكثر مما لاقاه من سفره فكان أبو بكر اذا سئل عنه أجاب انه رجل يهديني الطريق . ثم ما لبث أن عرفه الناس . وبخاصة الأنصار الذين كانوا يطلبون منه أن ينزل عليهم ويقولون له « هلم الينا يا رسول الله فنحن أهل العدد والعدة والمنعة » يأخذون بزمام ناقته وهو يقول خلوا سبيلها فانها مأمورة ، وعرض عليه مثل ذلك بنو النجار أخوال جده عبد المطلب ، وكان رده كذلك انها مأمورة ، وما زالت القصواء تسير وحدها حتى بركت بمربد ليتيمين من بنى رافع ثم قامت وبركت على باب دار أبي أيوب الأنصاري الذي نزل ضيفا عليه ، وبني في مربد اليتيمين مسجده الشريف ، وظل عند أبي أيوب الأنصاري سبعة أشهر حتى بنى بيوت نسائه بجوار المسجد ، وكان قد أرسل زيد بن حارثة وأبا رافع ومعهما دليل الطريق عبد الله بن أريقط الى مكة ليحيثوا بمن تخلف عنه من أهله فجاؤا بفاطمة وأم كلثوم بنتيه . وسودة بنت زمعة زوجته ، وأم أيمن زوجة زيد وابنها أسامة ، أما ابنته زينب فمنعها زوجها أبو العاص بن الربيع .
وخرج مع الجميع عبد الله بن أبي بكر بأمر رومان زوجة أبيه ، وعائشة أخته ، وأسماء أخته أيضا زوجة الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبد الله وهو أول مولود للمهاجرين بالمدينة ، وتلاحق بعد ذلك المسلمون من مكة الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة فلم يبق الا مغلوب على أمره ، أو مفتون في دينه ، واستقر المسلمون في المدينة يمثلون قوة ضاربة لا يمكن لقريش أن تصمد أمامها ، أو تقف بجانبها ، أو تحملها على خطة لا ترضاهما . وقد صارت جبهة من حقها أن تحسب حسابها .

فى المدينة

وصل النبى صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون الى المدينة والغبطة
 ثملاً نفوسهم . والفرح يفيض من جوانحهم ، والبشر باد على وجوههم .
 والاطمنان ظاهر عليهم . وكأنما كان ذلك انتصارا على المشركين ،
 واذلالا لنفوسهم ، وكيدا لهم ، وايلاما سوف يظل متمكنا منهم . مسيطرا
 على هواجسهم وضمايرهم مدى الحياة . فلا يغيب عن مشاعرهم .
 ولا ينأى عن وجداناتهم ، ولا يتخلف عن ادراكهم . ولقد كانت الحفاوة
 التى استقبلوا بها هنالك عاملا قويا فى الاعتقاد بأن عهد الارهاب الذى
 كانوا يعيشون فيه بمكة قد انتهى الى غير رجعة ، وأنهم منذ هذه اللحظة
 قد صاروا قوة يحسب الناس حسابها قبل أن تحدثهم نفوسهم بالنيل
 منهم ، أو الاعتداء عليهم . وهو معنى لم يكن من الميسور عليهم أن
 يصلوا اليه . وهم قلة مطاردة ، وفئة مستضعفة ، وجماعة لا تجد من
 يحذب عليها ، أو يقف بجانبها . وهذه هى الغاية التى كانوا ينشدونها ،
 ويرجون أن يصلوا اليها . والنبى صلى الله عليه وسلم لم يستقبل تلك
 الحال الجديدة بالاستسلام لها . والتفرغ لما يقتضيه الفرح والابتهاج .
 والغبطة والسرور . من التبطل والانقطاع لطرب النفس . وغبطة القلب
 أو لهو الفؤاد ، شأن كثير من الناس الذين يلهمهم الحاضر عن المستقبل ،
 وانما استقبلها بما يناسبها من العمل الجاد ، والاستعداد الجازم ،
 والاهتمام البصير .

أبتدا أولا بالمسجد الذى يفزع فيه المسلم الى ربه يناغيه ويناجيه ،
 ويرجوه ويطلب منه . ويضرع اليه ، أن يلهمه السداد والرشاد ، والهداية
 والتوفيق . فى كل ما يأخذ فيه من عمل . أو يضره من نية . وأن تكون
 عزته به ، وقوته منه . وأن يشمل به عنايته دائما أبدا ، فلا يتركه لجبار

يتحكم فيه . ويتسلط عليه . والصلاة الى جانب كونها تزرع هذا المعنى في قلب المسلم . تحببه في الجماعة ، وتعوده على الطاعة ، وترغب اليه النظام ، وتجعله يحس بكونه واحدا من هذه الكتل البشرية التي تتكون منه ومن غيره ، وقد كان المسلمون بحاجة الى الاحساس بهذا الاعتقاد ليرفعوا عن أنفسهم ضيم المطاردة ، وعار النفي ، وذل التفرق . وهو ما شغل النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن اطمأن به المقام هناك . . . وقد وصل الى المدينة والمسلمون معه ، وكلهم - كما يقول الحريري - بآدى الانفاض ، خاوى الوفاض . وما منهم الا وله في مكة آب وأخ وأم أو أخت أو زوجة أو انسان عزيز عليه أن يفارقه ، أو يرى نفسه بعيدا عنه . الى جانب أنهم لا يملكون زادا يتبلغون به ، ولا ماء يشربونه ، ولا دارا يأوون اليها . . . والفقر اذا ما تناول الناس في ناحية من هذه النواحي كان هو الموت الأحمر ، ولكنه القدر القاسى يأبى الا أن يضيف الى مرارة الاغتراب ، وفراق الأهل والأصحاب مرارة الحاجة والحرمان . والقلق والبؤس . والمسلمون في المدينة اذا اتسعت صدورهم ودورهم للنازحين عليهم ، أو النازحين اليهم . فهل تتسع أموالهم . وأرزاقهم . وهم كما وصفهم القرآن الكريم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يركز اهتمامه في أن يأخذ كل واحد من المهاجرين في عمل يحصل منه قوته ، ويضمن له لقمة العيش . حتى لا يكون عائلة على أخيه من الأنصار ، على الرغم من أن الأنصار لم يتركوا بابا من أبواب البر باخوانهم المهاجرين الا فتحوه لهم . ليشعروا أنهم لم تنزع بهم الدار ، أو تنقطع بهم الأسباب ، أو توصل في وجوههم الأبواب ، أو تقتصر عليهم الأرزاق ، ولم يمض وقت طويل على هذه التجربة المبررة التي مر بها المهاجرون - حينئذ - الا وهم لا يفلون في ثرائهم وثروتهم ومستواهم الاقتصادى عن أهل المدينة من المسلمين وغيرهم ، وكانت أروع صورة أعلنها رجل من المهاجرين في هذا الوقت تلك التي أعطاها من نفسه عبد الرحمن بن عوف التي كانوا يصفونه بأنه لو تاجر في التراب لصار ذهباً . . . وقد أخذت هذه المؤاخاة التي حدثت بين المكين والمدنيين تتحكم أو اصراها . وتزيد أسبابها . وتتمكن روابطها بمباشرة النبي صلى الله عليه وسلم لها بنفسه بين المهاجرين والأنصار ، يقول الأستاذ أمين دويدار « وعلى هذا الاساس آخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار فجعل لكل رجل من المهاجرين أخا من الأنصار . فكان الأنصارى يشاطر أخاه المهاجر داره وماله ، وهو بذلك طيب النفس قرير العين ، حتى لقد عرض سعد بن الربيع الأنصارى على عبد الرحمن بن عوف أن يطلق له احدى زوجتيه ليتزوجها ، فضرب الأنصار بذلك مثلا في الأخوة لا نظير له في

تاريخ الانسانية كلها . . . لكن المهاجرين لم يستغلوا هذه العاطفة الكريمة في اخوانهم الأنصار ليعيشوا كلاً عليهم ، بل أخذوا يسعون ويكدون في سبيل العيش . فاشتغل بعضهم بالتجارة في أسواق المدينة ، واشتغل بعضهم بالزراعة في أرض الأنصار ، وكانوا يجهدون أنفسهم في العمل حتى يتسبب العرق منهم ، وتظهر آثاره عليهم . . . ولقد قاسى المهاجرون في المدينة كثيراً من ضنك العيش . ومرت بهم أزمات شديدة قاسية ، ولم يكن ذلك تقصيرا من الأنصار في معونتهم . بل ان عدهم قد جعل يتزايد في المدينة ، حتى غدا أكثر مما تحتمله طاقتهم . لكن رابطة الأخوة الرحيمة الصادقة التي جمعت بينهم قد هونت عليهم كل شدة . وسهلت لهم كل صعب ، وعوضتهم من شقاء الأجسام نعيم الأرواح .

لقد كانت هذه الأخوة الجديدة شيئا جديدا على المجتمع العربي ، الذي قطعت أوصاله عصبية القبيلة ، وفككت روابطه قرابة الدم . بل كانت نوعا فريدا في تاريخ الأخوة الانسانية ، قضى على كل تعصب للجنس واللون والقرابة والوطن .

ومن المعروف في هذه الآونة أن محمدا صلى الله عليه وسلم جعل بعد وصوله الى هنالك يثرا كان قد اشتراها أحد المسلمين من يهودي بأربعين ألف درهم عامة للمهاجرين والأنصار ، حتى لا يشعر المهاجرون أنهم دخلاء أو غرباء ، وحتى لا يشعر الأنصار كذلك أنهم شيء آخر غير المهاجرين . . . لكن هذا كله لا يعنى أن النبي صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه قد اطمأنت ضمائرهم كل الاطمئنان في بلدهم وافدون عليه . أو نازحون اليه . تعاودهم ما بين آونة وأخرى فكرة أنهم انتهت بهم المطاردة عنده ، وأن حياتهم هنالك ليس فيها من الاستقرار والاطمئنان ما يحملهم على الرضا بالأمر الواقع ، أو ينسيهم بلدا فيه البيت الذي جعله الله للناس مثابة وأمنا . . . وهم في المدينة لا يعدو حالهم أن يكون أشبه بحال المسافرين الذي ينتظر الأوبة . ويرجو لقاء أهله وعشيرته . . . وقد كان رسول الله نفسه يظهر حنينه لمكة . ويبدى اليها الشوق ، وان كان بنى المسجد الى جانبه بيوت زوجاته لاصقة به . ليغرس في قلوب الذين هاجروا معه الحب لهذا الوطن ، والاعتقاد بأنه الوطن الأصلي الذي لا تحول عنه . ولا نزوح الى غيره . . . وقد أخذت جذور الدعوة الاسلامية تمتد وتتمكن في المدينة وشرع الله الأذان والصيام والزكاة وبين معالم كثيرة مما يتعلق بالحلال والحرام ، والمعاهدة التي جمعت بين اليهود والمسلمين كان لها الأثر البالغ في تكوين جماعة من شأنها أن تجعل قريشا في مكة تخشى بأس المسلمين ، وتخاف أن تحدثهم نفوسهم باعلانهم الحرب عليهم . وغزوهم في عقر دارهم . انتقاما لأموالهم المختصبة .

واهلبيهم المعذبين ، ودينهم المضطهد ، وحريرتهم المسلوقة ، وكرامتهم المضيعة ، لذلك أخذت حمى الخوف والهلع ، والجزع والفرع ، تسرى فى أفئدة طواغيت الشرك هنالك . مما عساه أن يلحق بهم ، أو يطرأ عليهم ، فلم يكن لهم شغل شاغل وراء الاستعداد للأجهاز على تلك الدولة التى يؤسسها محمد صلى الله عليه وسلم فى المدينة ، لهذا كانت لا تفتأ تتجسس أخباره ، وتحاول أن تعرف تحركاته ونواياه ، وتبذل لذلك كله ما تبذل لتسرى الى أى مدى تبلغ قوته مداها اذا هى حاربتة .

أو خرجت للملاقاة ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بدوره يتبع أخبارهم ، ويحاول أن يعرف ما يبيتونه له . وكان عمه العباس هنالك يكتب له أنباء تحركاتهم وشيورهم التى يضمرونها . . . وكان التشريع السماوى ، والأدب النبوى ، يسيران معا جنبا الى جنب . فى تكوين الوحدة الاسلامية ، والمبادئ الانسانية ، والأخلاق النبيلة ، لتتلاقى القلوب . ويجتمع الشمل ، وتذوب القوارق ، وتسود المحبة بين الناس ، وينسى كل انسان عصبية لأهله وذويه ، أمام دينه الذى كان له منه نسب وصهر . . . وليست هذه المعانى بالأمر اليسير فى نظر مشركى مكة الذين كانوا يشغلون أنفسهم بمحمد وأصحابه . فقد كانت قلوبهم تغلى بالحقد عليه . والكراهية له . من جراء هذا الزحف المنتظر الذى سينظمه للقضاء عليهم على الرغم من علمهم أن عناصر أخرى تشاركهم فى عداوة محمد وأصحابه ، لأن القوة التى صار الاسلام يعتمد عليها بعد تلك العناصر التى تلاقى فى الأهواء والميول والعواطف والشعور هنالك فى المدينة بعد أن ألف الدين بينها . وجعل منها قوة لا تستطيع أية قوة أن تصد زحفها ، أو تقاوم تيارها ، أو تحول سيرها ، أو تسكت صوتها ، أو تعاند ارادتها ، أصبحت لها السيادة .

تكوين الدولة

الأوس والخزرج واليهود هم سكان المدينة الذين وفد عليهم المهاجرون من مكة . والأوس والخزرج على الرغم من لحمية القرابة والدم التي كانت تجمعهم كانت قلوبهم متباعدة . وأهواؤهم متنافرة ، وخلافاتهم لا تنتهي . والحروب بينهم لا تضع أوزارها ، الا وهي تنتهي لحرب أخرى . أكثر ضراوة . وأشد اندلاعا . واليهود - كذلك - لهم خلافات وعداوات وحزازات . بينهم وبين أنفسهم أو بينهم وبين العرب من الأوس أو الخزرج وكانوا فيما بينهم وبين ضمائيرهم لا يودون أن يروا على موقع أنظارهم واحدا من الأوس أو الخزرج . وكانت صياصبيهم التي اتخذوها . وحصونهم التي بنوها من المتانة والقوة . والاستحكام والاستعداد بدرجة تشير الدهش ، وتلفت النظر ، وتدعو الى الغرابة والعجب . ودعاهم الى اقامتها على هذا الوضع . عدم اطمئنانهم الى العرب الذين كانوا يجاورونهم . حتى اذا ما اختلفوا معهم فحاربوهم أو ترقبوا منهم الشر كانت هذه الحصون قلاعهم التي يتحصنون بها ، أو بروجهم التي تعصمهم من عدوان مغير ، أو اعتداء كاشع . وهي على هذا الوضع رمز لصلة الطرفين بعضهما مع بعض ، أو عنوان على أن الرابطة التي تجمعهما كانت قائمة على الحذر والخوف ، لا على الاطمئنان والثقة ، ولهذا كله فان مهمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وصوله الى المدينة لم تكن من السهولة واليسر بالقدر الذي يجعله مستريح البال ، هادئ الخاطر . قرير العين ، نعم تكلمت رحلته بالتجاح ، ونجاه الله سبحانه من شباك الكفار التي نصبوها له ، ولم يستطيعوا أن يلاحقوه ، ولا أن يتالوا منه . لكنه لم يكن يشك في أنه يواجه بمسئولية شاقة تحتاج منه الى سياسة حكيمة ، وتفكير سديد ، ونظر ثاقب ، وبصيرة نافذة . وعقل رشيد .

وقد أخی بین الأنصار والمهاجرين واطمأن على أن الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق قد عوضهم الله خيرا مما فقدوا ، وأنهم قد نشطوا للعمل فى الأسواق والتجارة والزراعة وعادت لهم الحياة أحسن مما كانت ، لكن ذلك وحده لا يكفي أو لم يكن هو كل ما يبغيه محمد صلى الله عليه وسلم وهو لم ينس بعد أنه مطارد من أهل مكة • وأن مطاردتهم له لم تنته باخراجه منها ، وبعده عنها ، وإنما هى مطاردة تتبعها ملاحقة • لأن العداوة القائمة بينهم وبينه لم تزل أسبابها ، ولم تنقطع بواعثها • وبخاصة وقد صار محمد فى طريق تجارتهم • ومن حقه أن يحمى دولته الجديدة ، ويتحكم فى سبلها • ومنافذ الدخول إليها أو الخروج منها ، وهذه أعراف دولية لا ينكرها عليه أحد ، ومعنى هذا أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد صار مع قريش فى وضع المحارب وأنها هى أيضا صارت معه فى وضع المحارب ، رضى هو أم أبى ، ورضيت هى كذلك أم أبت ، على أن المقدمات التى قدمتها قريش كانت من غير شك مقدمات حرب • لذلك كان يؤرق النبى صلى الله عليه وسلم هذا الوضع الجديد أكثر مما كان يطمئنه ، والمؤاخاة التى جعلها بين الأنصار والمهاجرين لم تكن هى كل ما يبتغيه ، فإن هنالك عنصرية قائمة بعنوان يهود وعرب وهى فى حاجة الى ما يقضى عليها ، أو يكف من جذتها على الأقل ، وكان ذلك متمثلا فى معاهدة مكتوبة يوقع عليها الأطراف ، ويلتزمون بها ، وهذه هى خلاصة هذه المعاهدة كما جاءت بها كتب التاريخ ونشرها الدكتور الحيدرى أستاذ الحقوق بالجامعة العثمانية بحيدر أباد فى كتابه « الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة » « هذا كتاب من محمد النبى رسول الله بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن تبعهم لحق بهم ، أنهم أمة واحدة من دون الناس • المهاجرون من قريش يتعاقلون بينهم ويفدون عانيهم • • وبنو عوف يتعاقلون ، وكل طائفة تفدى عانيها • • وبنو الحارث يتعاقلون وكل طائفة تفدى عانيها • • وأخذ يعدد الطوائف التى تتناولها هذه المعاهدة والذين هم يتعاقلون ويفدون عانيهم • من بنى ساعدة ، وبنى جشم ، وبنى النجار ، وبنى عمرو بن عوف ، وبنى النبيت ، وبنى الأوس ، وأن المؤمنين لا يتركون مشقلا بدين دون أن يعاونوه فى فداء أو عقل ، وأن أيديهم على من بغى ، ولا يقتل مؤمن مؤمنا فى كفر ، ولا ينصر كافرا على مؤمن ، وأن من تبعنا من يهود فإن له النصر ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، ولا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفسا ، وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثا أو يؤويه ، وأنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده الى الله والى محمد • »

وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين ، وأن يهود
بنى عوف أمة مع المؤمنين . لليهود دينهم وللمسلمين دينهم ، وأن لليهود
بنى التجار وبنى الحارث وبنى ساعدة وبنى جشم وبنى الأوس مثل
ما لليهود بنى عوف . . . وأن على اليهود نفقتهم ، وعلى المسلمين نفقتهم ،
وأن بينهم النصر على من جارب أهل هذه الصحيفة ، وأن بينهم النصح
والنصيحة ، والبز دون الأثم ، وأن يشرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ،
وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأنه لا تجار قريش ولا من
نصرها . . . وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم . وأنه من خرج
آمن ، ومن قعد آمن ، إلا من ظلم وأثم ، وبهذا الميثاق تكونت الدولة
تكويناً قانونياً ، وأصبح لها دستور تلتزم به ، وتدافع عنه ، لا فرق
بين مسلم ومسلم ، ولا بين مسلم ويهودي ، كلهم رعايا دولة عليهم أن
يصنوا حدودها ، ويحاربوا من أجلها ، وليس من حق واحد منهم أن
يضمن عليها بنفسه أو ماله ، ويعلق الدكتور أحمد الشريف على هذه
الوثيقة فيقول « ويدل هذا الدستور على مقدرة فائقة من الناحية
التشريعية ، وعلى علم كثير بأحوال الناس . وفهم لظروفهم ، ولا نكاد
نعرف من قبل دولة قامت منذ أول أمرها على دستور مكتوب غير هذه
الدولة الإسلامية ، فانما تقوم الدول أولاً ثم يتطور أمرها إلى وضع
دستور ، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ما كاد يستقر في المدينة وما كاد
العام الأول من هجرته إليها ينتهي ، حتى كتب هذه الصحيفة التي جعل
طرفها الأول المهاجرين والطرف الثاني الأنصار ، والطرف الثالث اليهود
. . . وهذه الصحيفة مهمة جداً لأنها حددت شكل الدولة الإسلامية . وقد
بدأ كأنما ابتلعت الجماعة القائمة على أساس الدين تلك الجماعات القديمة
القائمة على أساس الدم ، ولكن تلك الجماعات في الحقيقة بقيت كما هي ،
وإن كان الشأن الأول قد انتقل منها إلى الجماعة الكبرى ، فدخلت
الطوائف التي كانت موجودة في ذلك الحيز ، ونعني بها القبائل والبطون
والعشائر في الجماعة الكبرى الجديدة ، واحتفظ لها الدستور
بشخصيتها ، ولكنه نقل منها اختصاصاتها كوحدات قبلية إلى الدولة ،
وإن أبقى لها كل ما من شأنه أن يحفظ على الناس الروابط فيما بينهم ،
وبذلك تكونت في المدينة جماعة موحدة ، ولكن ذلك لم يكن دفعة
واحدة فقد ظل يتحقق بخطى مستمرة ثابتة » وفي هذه الفترة التي سكن
فيها المسلمون إلى دينهم ، والتفوا حول نبيهم ، ووثقت هذه الوثيقة بينهم
وبين طوائف هؤلاء اليهود ، لم يكن قد دخل معهم الجماعات الكبرى من
اليهود أمثال بنى النضير وبنى قينقاع وبنى قريظة . وكانوا أكثر طوائف
اليهود حقداً على المسلمين لما علموا من أن دينهم يأمرهم بالعمل الذي يرفع
من شأنهم ولا يجعلهم أدنى حالا من غيرهم . ويحرم الربا والفواحش

ما ظهر منها وما بطن ، وهى أشياء تحدد من طغيانهم ، وتقاوم خداعهم ، وتحارب سلوكهم . وقد تحالف منهم بنو قريظة مع المسلمين وان كانوا قد خانوا ما عاهدوا الله عليه فيما بعد - حينما كانت غزوة الأحزاب - ويظهر أن هذا الصنيع الذى صنعه النبى صلى الله عليه وسلم مع المسلمين واليهود بالمدينة كان أشبه بالمفاجأة لكثير من العناصر الذين ارتبطوا به وهم له كارهون ، لذلك ظهر فيهم من كان موقفهم المت تردد ، لم يستطيعوا أن يعلنوا الامتناع فراحوا يتعاملون مع المسلمين حينئذ بأسلوب الوجهين « وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا الى شياطينهم قالوا انا معكم » لكنهم لم يكونوا من الكثرة بحيث يحولون تيار الدعوة ، أو يؤثرون على موقف النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكان أبرزهم عبد الله بن أبى بن سلول الا أن مواقفه كلها كانت مفضوحة ، وكيدية كان ضعيفا . وكان النبى صلى الله عليه وسلم لا تخفى عليه دسائسه . وكلما هم واحد من المسلمين بقتله ، منه النبى اكراما لابنه الذى كان من أصدق المسلمين ايمانا ، وأخلصهم عقيدة ، على أن ذلك كله لم يؤثر فى سير الدعوة التى كان أتباعها يزدادون كل يوم كثرة وتمكينا فى الأرض .. وفى هذا الوقت الذى كانت الدعوة قد قر قرارها . وصارت لها دولة لا يتناول عليها متناول ، ولا ينال منها غاشم . كان صوت الدعوة الى الصلاة فى أوقاتها يدوى من المرتفعات والشرفات « الله أكبر الله أكبر » فتبعث المهابة والخوف ، والرعب والفرع ، فى قلوب المترددين أو المنافقين فلا يسعهم الا أن يكتبوا الغيظ ، ويكتبوا الحقد ، ولا يستطيع أحد منهم أن يفعل ما كان يفعل أبو جهل وأضرابه ممن كانوا بمكة يلاحقون المسلمين بالأذى ذلك لأن محمدا لم يعد داعيا يحتال لدعوته ، أو يتخفى بندائه . ولكنه أصبحت له دولة من حقها أن ترد العدوان ، وتدفع الظلم ، وتخرس صوت الباطل ، وتكبت حقد الحاقد ، وتقلم أظافر الطغيان .

غليان القدر

لم يكن من السهل على قريش بمكة أن يطيب لمحمد المقام بالمدينة ، وأن يؤلف من حوله هذه القلوب التي عاهدته على أن تحميه مما تحمى منه نساءها وأموالها وأبناءها وأن تبذل في سبيل نصرته كل ما تملك من مرتخص وغال ، لاتضن به عليه . ولا تحول بينه وبينه ، وليسوا من القلة بحيث يتفاضون عنهم ، أو يتغافلون لشأنهم ، ولكنهم هذه الكثرة الكثيرة من الأوس والخزرج الذين كانوا يتنافسون على المسارعة اليه . والدخول في دينه ، وإن كان ذلك تنافسا في بادئ أمره لم يكن لاحقاق حق وإبطال باطل . وإنما كان لكبت العدو . وإرغام الخصم . والانتصار في معركة كان كل واحد من طرفيها يستعرض عضلاته للآخر . ليشيع في نفسه الرعب منه ، حتى يظل دائما أبدا يحسب حسابه ، ويخاف منه ، وقد تحولت بعد ذلك الى عقيدة امتزجت بدمائهم . وتمكنت من نفوسهم ، وصارت ديننا يسيطر على أهوائهم وميولهم ، لكن الحال بعد أن استقرت لمحمد صلى الله عليه وسلم وللمسلمين معه . وعقدت المؤاخاة القائمة بين المهاجرين والأنصار برباط وثيق عز على اليهود أن يحصل ذلك كله ، لأنهم لا يحبون أن يلتئم الجرح بين الأوس والخزرج ولا أن يجتمع الشمل بينهم وبين سواهم . وإلى جانب هذا فقد كانوا يرجون وهم أهل كتاب أن يكون لهم الأولوية والتقدم لدى محمد فيجعل منهم بطانته وأعوانه ، وربما كانت مطامعهم تتجاوز ذلك ويتربعون أن يلقي اليهم الرسن ، ويترك في أيديهم الزمام ، ويجعل لهم رسم سياسته ، وارتباطاته وسلوكه مع الناس ، ولما لم يتحقق لهم من هذا كله قليل ولا كثير ، غليت نفوسهم بالكراهية والحقد . والغضب والسخط ، وودوا لو أنهم كانوا فيما بين طرفه عين وانتباهتها يستطيعون تغيير

الأحوال ، وتصحيح الأوضاع ، وهم لا يملكون من السخط والحقد ، والكراهية والغضب ، أكثر من أن تكون سخائمهم سوداء ، وضماثرهم قاتمة ، أما ما وراء ذلك من حرب أو قتال • وطعن ونزال ، فهم أبغض الناس له ، وأزهدهم فيه • لذلك ركزوا جهودهم فى الإيقاع والدس • وتعكير الصفو ، واشاعة البهتان ، والترويح للباطل • والتفريق بين الناس ، واختلاق الأخبار ، والعمل على زعزعة الايمان فى نفوس المسلمين • حتى اذا باؤا من ذلك بالفشل نمقوا الاعتراضات ، وزخرفوا الأسئلة ، وموهوا الحديث ، وزعموا أنهم يريدون من محمد صلى الله عليه وسلم أن يعلمهم علم ما يجهلون • وهو فى الواقع تعنت الجاحد ومكابرة الحاقد ، ويقول الدكتور هيكى « هنالك بدأ اليهود يفكرون من جديد فى موقفهم من محمد وأصحابه ، لقد عقدوا معه عهدا وكانوا يطمعون فى أن يضموه الى دينهم • وفى أن يزدادوا على النصارى منعة وقوة ، وهذا هو أقوى من هؤلاء جميعا ، وهذه كلمته تزداد ثباتا ، بل هذا هو يفكر فى أمر قريش وإخراجها له من مكة ، وفتنتها من استطاعت من المسلمين عن دينه ، أترى اليهود يتركون دعوته تنتشر ، وسلطانهم الروحى يمتد ، مكتفين بالأمن فى جواره أمنا يزيد فى تجارتهم سعة • وثروتهم ربعا ، تعلمهم كانوا يسيغون هذا لو أنهم أمنوا ألا تمتد دعوته الى اليهود وألا تنشروا فى عامتهم على حين تقتضيهم تعاليمهم ألا يعترفوا بنبى من غير بنى اسرائيل • • وهنا بدأت حرب جدل بين محمد واليهود أشد لدا ، وأكبر مكرًا من حرب الجدل التى كانت بينه وبين قريش بمكة • فى هذه الحرب البثرية تعاونت الدسيسة والنفاق والعلم بأخبار السابقين من الأنبياء والمرسلين ، أقامتها اليهود جميعا صفوفًا مترابطة يهاجمون بها محمدًا ورسالته وأصحابه من المهاجرين والأنصار ، دسوا من أحبارهم من أظهر اسلامه ومن استطاع أن يجلس بين المسلمين يظهر غاية التقى ثم ما يلبث الحين بعد الحين أن يبدى من الشكوك والريب • ويلقى على محمد من الأسئلة ما يحسبه يززع فى نفس المسلمين عقيدتهم به وبرسالة الحق التى يدعو اليها • • وانضم الى اليهود جماعة من الأوس والخزرج الذين أسلموا هم أيضا نفاقا ليسألوا وليوقعوا بين المسلمين ، وبلغ من تعنتهم أن اليهود منهم كانوا ينكرون ما فى التوراة ، وأنهم جميعا يسألون محمدًا اذا كان الله قد خلق الخلق فمن خلق الله • • وفطن المسلمون لأمر خصومهم وعرفوا غاية سعيهم • ورأوهم يوما فى المسجد يتحدثون بينهم خافضى أصواتهم قد لصق بعضهم ببعض ، فأمر بهم محمد فأخرجوا من المسجد إخراجا عنيفا • ولم يشبه ذلك عن دسائسهم وسعيهم فى الوقعة بين المسلمين • وقد مر - منهم - شاس بن قيس على نفر من الأوس والخزرج فى مجلس جمعهم فغاظه

صلاح ذات بينهم . وقال فى نفسه قد اجتمع ملائكة بنى قيلة - امهم -
 بهذه البلاد ، ومالنا معهم اذا اجتمع ملوهم بها من قرار ، وأمر فتى شايبا
 أن يذكر لهم يوم بعث وما كان فيه من ظفر الأوس على الخرج وتكلم
 الفتى فذكر القوم ذلك اليوم وتنازعوا وتفاخروا واختصموا وقال بعضهم
 لبعض ان شئتم عدنا الى مثلها . وبلغ النبى الامر . فخرج اليهم وذكرهم
 بالاسلام الذى آلف بين قلوبهم وجعلهم اخوانا متحابين ، وما زال بهم
 حتى بكى القوم وعانق بعضهم بعضا واستغفروا الله جميعا . . . وبلغ
 الجدل بين اليهود والمسلمين حدا كان يصل أحيانا الى الاعتداء بالأيدى .
 وهذا هو أبو بكر الرجل الهادى الوادع يتحدث اليه يهودى وكان يدعوه
 الى الاسلام فيقول ذلك اليهودى ما بنا من فقر الى الله وهو الفقير الينا .
 يستقرضنا أموالنا ولو كان غنيا ما استقرضنا ، فضربه أبو بكر على
 وجهه ، وشكى أمره الى النبى وأنكر ما قاله ، فنزل فيه « لقد سمع الله
 قول الدين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء
 بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق » . . . ولم يكتف اليهود بهذا الايقاع
 وذلك الدس فراحوا الى النبى يقولون له بيننا وبين قومنا خلاف فان جئنا
 اليك فاحكم لنا لتؤمن بك الكثرة التى تجلنا وتتبعنا فنزل فيهم « وأن
 احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن
 بعض ما أنزل الله اليك فان تولوا فاعلم انما يريد الله أن يصيبهم ببعض
 ذنوبهم وان كثيرا من الناس لفاسقون أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن
 من الله حكما لقوم يوقنون » وتسوق كتب السيرة من أمثال هذه المواقف
 المخزية التى كان يقفها اليهود مع النبى صلى الله عليه وسلم الكثير ،
 وربما كان أقربها دليلا على الحق الكامن فى نفوسهم اغراءهم له بترك
 المدينة الى بيت المقدس رجاء أن يستقلوا بها وتعود لهم فيها مكانتهم
 القديمة ، ومجدهم الزاهب . فقد قالوا له ان المقدس كانت مهجر كثير
 من الأنبياء والمرسلين . وقد دعموا ذلك بأنها قبلته فى الصلاة حينئذ .
 وغاب عنهم أنه يضم فى نفسه اللفة الى مكة ويشتاق اليها ويتمنى أن
 تكون هى قبلته فى الصلاة ، وكان يوجه نظره الى السماء انتظارا لوجه
 ربه الذى يعلن اليه أنه استجاب رجاءه ، وحقق أمنيته ، فلما أراض الله
 سبحانه وتعالى بتحقيق ما كان يرجو ، وجاءه بقوله جل جلاله « قد نرى
 تقادح وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر
 المسجد الحرام وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره » أخذوا ينكرون هذا
 الانتقال . ويعيبون ذلك التحول . وهنالک نزلت هذه الآيات . . .
 « سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله
 المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، وكذلك جعلناكم أمة
 وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا وما جعلنا

القبلة التي كنت عليها الا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه
وان كانت لكبرة الا على الذين هدى الله » وكانت نجران عامرة بالنصارى
الذين يحملون علم المسيحية ويزعمون أنهم على شيء من العلم بالأديان
وقد جاؤوا الى المدينة بعد أن علموا أن الجدل قائم بين اليهود وبين محمد
صلى الله عليه وسلم فأرادوا هم كذلك أن يدلوا بدلوهم في الدلاء وأن
يكونوا طرفا ثالثا في الجدل والمناظرة ، واجتمعت على صعيد واحد في
المدينة الأديان الثلاثة النصرانية واليهودية والاسلام . وقالت النصارى
المسيح ابن الله ، وقالت اليهود عزيز ابن الله ، وغير ذلك وذلك من الزعم
الباطل ، والاعتقاد الفاسد . والهرء المرفوض ، الذي يأباه العقل ، وينكره
الذوق والطبع ، والقرآن يدحض حججهم ويفند أقوالهم . ويطارد أوهامهم
ثم ينتهي معهم الى رأى يشبه أن يكون محايدا ، لا يأباه الا مكابر أو جاهل
حين يقول « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم
ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا آربابا من دون الله
فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وهى عقيدة لا تدين بربوبيّة
الانسان للانسان . ولا بسيادته عليه . ولا ملكيته له ، ولا عبوديته إياه .
والله وحده هو صاحب هذا الحق على الناس ، وهكذا كان العقل والمنطق .
والاحتكام الى الفطرة والذوق هو المنهج الذى يلتزم به محمد صلى الله عليه
وسلم فى كل جدل يجرى بينه وبين اليهود أو النصارى ، وقد سجل
القرآن الكريم تهافتهم فى الجدل . وانغماسهم فى الباطل ، وامعانهم فى
التمادى وغطرستهم فى الحق . ويأبى الله سبحانه وتعالى الا أن يرد كيدهم
فى نحورهم وأن تتحول خصومتهم للاسلام الى خصومة بينهم تتمكن
جذورها ، وتتحكم أسبابها ، بينهم وبين أنفسهم . فلا يزالون يلعن
بعضهم بعضا ، ولا تزال عقائدهم مكشوفة الجوانب للناس ، لا يستترها
ذوق ، ولا يؤيدها عقل ، ولا يسندوها دليل . ومحمد صلى الله عليه وسلم
تقبس البشرية من نوره . وتأخذ من هديه . وتنهل من معينه ، وتنتفع
بسمنته ، وتباهى بتاريخه ، ولا يستطيع أحد أن يتقول عليه عيبا ،
أو يلحق به نقصا ، وكأنما كانت حروب أعدائه له ، وتطاولهم عليه اعلانا
عن فضله ، وتنويها بقدره ، واعترافا بأياديه على الناس .

شاكى السلاح

فى المعاهدة التى ربطت النبى صلى الله عليه وسلم بها أفراد الدولة الجديدة • وكان بمقتضاها أن تتماسك الجماعات من الانصار والمهاجرين • والمشركتين واليهود ، وأن يعرف كل منهم ما له وما عليه ، تجاه نفسه وحده أو مندمجا مع غيره سواء فى ذلك الاندماج فى العمل أو الاختلاط أو المجاورة • كان صلى الله عليه وسلم قد نص على أنه لا يجبر أحد قريشا أو يصل نفسه بها بأسلوب ما ، وكان ذلك يعنى أن الدولة الجديدة قد تم تأليفها ، ووضحت معالمها ، وتبين لها الصديق من العدو ، لتجرى أمورهما على هذا الاعتبار • وكانت الدولة فى هذا الوقت لها السلطان على الطرق التى تتأخم حدودها شرقا وغربا وجنوبا وعقدت بينها وبين هؤلاء ، الذين يقيمون على هذه الحدود معاهدات تربطها بها • وتجعل جوارها معها آمنا ، لا يكدره خلاف ، ولا ينقصه نزاع • • وكان من الضرورى والدولة لها عدو يتقرب مصرعها ، وينتظر أن تمكنه الظروف من الاجهاز عليها ، والفتك بها ، أن تكون على حذر دائم ويقظة تامة • فلا تنام أعينها ، ولا تهدأ جوارحها ، ولا تطمئن نفوسها ، وانما تظل عيونها مفتوحة على ما يدور حولها ، ويجرى بجوارها حتى لا يباغتها عدو ، أو يفاجئها مغتال • • وقد رأى المسلمون أن يبعثوا بطلائع من فتيانهم ليتحسسوا الطريق • وليعرفوا حاله من الأمن والسلامة ، والهدوء والاستقرار ، كما كانت قريش التى لم تغل تلك الطرق من تجارتها المارة ذهابا وإيابا لم تهدأ عن ارسال طلائعها كذلك ، على الرغم من أن قوافل هذه التجارة كانت مزودة بالفرسان والرجالة الذين يحرسونها ويؤدون عنها ، وربما كانت هذه الدوريات المتبادلة بين الطرفين لا تخلو من احتكاك مشوب بالحدار أو النظر الشزر ، وبخاصة اذا نظرنا الى أن

روح الخصومة هي التي كانت تسود الطرفين لامن أجل الاختلاف في المبدأ ، أو التباين في العقيدة ، وانما لشيء آخر كذلك له تقديره ووزنه ، ذلك الشيء هو الشار القائم بين الطرفين ، والخصومات التي كانت في الصميم ، ولا ينسى هؤلاء الذين يمرون بقوافلهم في هذه الطرق ، ويتلاقون بأولئك الناس أنهم من غير شك ينظرون اليهم بعين ملؤها الحقد والبغضاء ، لأنهم أرغموهم على ترك ديارهم وأموالهم . ومفارقة أهليهم وذوي قرابتهم . ولو استطاعوا أن يأخذوا بثأرهم المبيت . وحققهم المسلوب ، لشفى ذلك غليلهم . ودأوي غلتهم . على أن هذا كله كان لا بد أن يحصل وما من واحد من هؤلاء الذين يخرجون الى الطريق . ويلتقون بتلك القوافل الا له شيء هنالك قد تركه . وحمل حملا على أن يتركه ، أولئك الذين يلتقى بهم ، أو يراهم في قوافلهم مغتصبون لحقه ، آخذون له على وجه غير مشروع ، ومن حقه أن يسترد منهم ما أخذوه على أى وجه من الوجوه ، لذلك كان اللقاء بين الطرفين لا يخلو عن احتكاك يدل على ذلك ، وينبئ على أن حصوله وشيك . ويدل على هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد ثمانية أشهر فقط من خروجه من مكة قد بعث عمه حمزة بن عبد المطلب ومعه ثلاثون راكبا فالتقى بأبي جهل الذي كان معه ثلاثماية وكان حمزة على أهبة أن يفتك بأبي جهل ومن معه لولا مجدى بن عمرو الجهني الذي كان صديقا للطرفين . . . وقد سار بعده على الطريق عبدة بن الحارث في ستين راكبا فالتقى بأبي سفيان الذي انسحب من غير قتال . . . وقد خرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد مضي عام ونصف عام على رأس مائتين من المهاجرين ليلتقى بأمية بن خلف الذي كان يقود قافلة تجارية ضخمة معها ألفان وخمسماية وكان يحميها مائة محارب. ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يدركها لأنها غيرت طريقها فرجع الى المدينة ثم عاد بعد شهرين أو ثلاثة ليقطع الطريق على قافلة كان على رأسها أبو سفيان بن حرب ففاته أيضا . . . وقد ظلت هذه المناوشة ، وتلك الحركات الاستطلاعية مستمرة من جانب المسلمين لا تنتهي ولا تنقطع الى أن كانت الحادثة التي كانت بمثابة دوى القنبلة في آذان أهل مكة جميعا . . . تلك هي سرية عبد الله بن جحش الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم ومعه ثمانية فقط ليذهب الى مكان يسمى « نخلة » بين مكة والطائف ليستطلع أخبار قريش فلعلها أن تكون متهيئة لحربه من جراء تلك المناوشات التي تخيف طريق تجارتها ، وكان اثنان من أصحابه قد دخلا مكة يطلبان بعيرا لهما قد ضل ، فأسرتهما قريش . وكان لهذا الأسر وقع سييء في نفس عبد الله بن جحش واخوانه صمما بعده على الانتقام . وكانت قد مرت بهم عير لقريش على رأسها عبد الله بن الحضرمي فقتلوه وأسروا رجلين ممن كان معه وفر الباقون وكان هذا في

الملحظة الأخيرة من شهر رجب فاتخذت قريش من ذلك القتل ذريعة للتشنيع على محمد وأصحابه بانتهاك الأشهر الحرم ، ولم يسكتهم عنه إلا صوت السماء يوبخهم وينعى عليهم أنهم ارتكبوا أشنع من ذلك « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه ، قل قتال فيه كبير . وصند عن سبيل الله وكفر به ، والمسجد الحرام وأخرج أهله منه أكبر عند الله ، والفتنة أكبر من القتل ، ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا » .

والذى يلاحظه المؤرخون أن هذه المناوشات كانت تقوم على المهاجرين دون الأنصار ، ووجهة نظرهم أنهم هم دون الأنصار أصحاب الحق المختص ، وأنهم هم الذين وقع عليهم العدوان ، وقد كان يشفى غليلهم أن ينالوا من أهل مكة ١٠ وأن يوقعوا بهم الإيلام ٢٠ على أن المعاهدة التى أخذها النبى صلى الله عليه وسلم على الأنصار - فى العقبة - كانت تقتضيهم أن يدافعوا عنه إذا هوجم ، أما وهو يهاجم أو يهاجم أصحابه فليس عليهم أن يكونوا معهم . أو أن يقفوا بجانبهم ٣٠ . ويبقى بعد ذلك سؤال قد يتوارد على الذهن ، وهو هل كانت هذه المناوشات من النبى صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه حرباً - والأمر بها لم ينزل بعد - أم انها تخويف لا أكثر ولا أقل أراد به أن يكون له ما وراءه .

وفى مكة التى هاجر من وجه أهلها لا يزال بها الخطر الذى يتهدهده ، ويتحين الفرصة لايلامه وايدائه . والقضاء على دعوته ، واسكات صوتها ، والاجهاز عليها ٤٠ وكذلك كان الحال فى المدينة التى ظن أنه سيجدها فيها جواً أئقياً . وحالا أهدأ . ولكنه وجد اليهود الذين يضمرون الشر ، ويكتمون العداوة . ويلهبون فى قلوب المنافقين نيران الحقد والبغض ، ويرسمون لهم خطوط التمرد والعصيان ، واشاعة التفكك فى صفوف المسلمين . حتى لا تقوى لمحمد شوكة . ولا تقوم للإسلام دولة ٥٠ . ومن أجل هذا كله فالنبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة على حال لا يحسد عليها ، وقد حمله هذا على أن يلتزم بالمبدأ القائل « أطلب الموت توهب لك الحياة » وطلب الموت كان مصوراً فى تلك الخطوة التى أخذ نفسه بها فى معاملة هؤلاء الناس . وكأنما أراد أن يفهم قريشاً أنه لا يصح لها أن تستمر معه على موقف القوة الذى تقفه منه ، وأن تعامله معاملة الفار من وجهها ، الهارب من عدوانها ، وأن تظل على تفكيرها فى قتله . أو الظفر به ، وقد تبدلت به الحال وأصبح على استعداد لأن يقنعها أن تحسب له حسابه ، ولم يجد لذلك وسيلة أحسن من أن يرسل إليها السرايا من المهاجرين لتقطع عليهم طريق التجارة الى الشام . ولتشيع هنالك الفرز والخوف ، فلا يجرؤ واحد على اقتحامه ، أو السير منه الا بقوة الحديد والنار ، وحينئذ يحسبون حساب الحركة والانتقال ،

أو يتحولون بتجارتهم الى طريق آخر أكثر مشقة ، وأبعد مسافة ، وفي هذا تعطيل لرحلاتهم . وكساد لتجارتهم ، وإيلاء لنفوسهم ، وإثارة لحفيظتهم ، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم بالأحلاف التي ربط بها بينه وبين القبائل المختلفة التي تستوطن هذا الطريق . ذلك المعنى الذي قصده به من حرب العصابات التي تشنها جماعاته على قوافل التجارة . وكان الهدف الذي يرمى اليه أن تفكر قريش في تسوية حسابها معه ، فتبرم - على الأقل - معاهدة عدم اعتداء يستطيع المسلمون في مكة أن يعيشوا بفضلها في سلامة من شرهم . ومنجى من إيلائهم وبعد عن إيذائهم . . . ويترتب على ذلك - أيضا - أن المناققين واليهود في المدينة يكفون عن نوايا السوء التي يضمرونها ، والخطط الخبيثة التي يرسمونها ، ولم يمتض غامان كاملان على اغترابه عن مكة حتى كان في استطاعته أن يلتقي بهم وجها لوجه ملاقة الند للند ، وكان له جيش يمكن أن يهددهم ، ويشيع في صفوفهم الهلع والفرع ، وأصبحت قريش تفكر تفكيرا جادا وخادا في سلامة تجارتها وأمن طريقها . . . وكان هذا الخطأ الذي ارتكبه عبد الله بن جحش وجماعته لا يساوي شيئا بجانب ما ارتكبوه هم من الصد عن دين الله ، ومحاربتهم للحق ، وانحرافهم عن الجادة ، والتوائهم عن الصراط السوي ، وكأنما كان ذلك المنطق الذي سمعوه ، والأسلوب الذي جوبهوا به ، بمثابة الصواعق تصيب أفئدتهم ونفوسهم ، وتنزل على رؤوسهم ، لأن من أشد الحرق ، وأقبح الكباثر ، أن يرى الانسان القذى في عين أخيه ، ولا يراه في عين نفسه « والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله » وهكذا عرفوا أن محمدا صلى الله عليه وسلم لم يفارق وجوههم عن ضعف ، ولم يترك مكة مهزوما ، ولم يهاجر فارا ، وإنما كان يعد نفسه ، ويجمع قوته ، ويسوى صفوفه ، ويضرب الضربة التي تصيب الهدف ، وتربك العدو ، وتكتب له النصر على عدوه الذي كان ينظر اليه بالمنظار الأسود .

شبهات الحرب

ربما ظن بعض الناس من تلك السرايا التي كان يرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم من جماعة المهاجرين . الواحدة تلو الأخرى ، مكرنة من هذا العدد الضئيل لتقطع الطريق على المسافرين من قريش الى الشام أو الآبيين منها من أجل تجارتهم التي كانت هي الوسيلة الوحيدة لجلب أرزاقهم ، ونماء أموالهم . ووفرة أقواتهم أن هذه حرب بمعنى الكلمة ، يعتدى فيها مسلح على آمن . ويغير فيها معتلا على وادع . ويقتحم فيها مختصب دار أعزل من السلاح ، أو يساغت فيها واغل وطن مطمئن هادئ ، وأن هذا العدوان لا يصح أن يجعله الداعية سبيله الى ابلاغ صوته ، واقرار مذهبه ، وتمكين دينه بين الناس . . . وقد بالغ قوم في هذه الشبهة فزعموا أن دين محمد انتشر بالسيف ، وتمكن بالعنف ، وارتفعت رايته بالقوة ، وجبروت الكثرة الكاثرة . ممن وضعوا أرواحهم في قبضة الرسول ليرمى بها في المخاطر ، ويقذف بها في المعامع ، ويطوح بها في ميادين القتال . تحقيقا لمطامعه في الفتوح ، وآماله في التوسع ، ورغبته في السلطان ، وأحلامه في الملك . . . وهو قول انما يقول به من يتجرد من العقل ، ويخلع عنه المنطق ، ويتجافى عن الحق والانصاف ، ويناقش مناقشة الأطفال ، ويجادل بلغة المجانين . اذ يزعم أن دعوة محمد كانت تسلطا أو ملكا أو رياسة أو قيادة لجماعة بربرية ظمأى الى الدم ، يسوقهم رجل له مطامع عدوانية ، وشهوات مسفة . وكبرياء أهوج . وتطلع محموم . كما كان الفراعين أو القياصرة ، في حين أنه كان مأمورا بالوحي ، ومكلفا من قبل الله ، وأن لسان حاله كان يقول « ان أريد الا الاصلاح ما استطعت » وأن رسالته كانت « فطرة الله التي فطر الناس عليها » لا تعاند الطبع . ولا تخالف

الذوق . ولا تعارض التقدم ، ولا تقود الانسان الا الى البر والخير .
 والفلاح والنجاح . والسعادة والفوز ، ولا يمكن للبشرية أن تحيا الحياة
 الصحيحة دون أن تلتبس منها الرشد ، وتستمد منها الهداية ، وتجعل
 منها طب نفوسها ، وعلاج أمراضها . ومع أنها كذلك فما صبح أنه أرغم
 عليها أحدا ، أو ألجأ اليها انسانا ، وانما كان أسلوبه « لا اكراه فى
 الدين قد تبين الرشد من الغي » وهو فى الوقت الذى يجعل الأخذ بهذا
 الدين ، والايمان به ، قائما على الاختيار والحرية . والترجيح والمقارنة ،
 والتأمل والتفكير ، والعقل والمنطق . والتروى والانتباه ، يشرع للمسلم
 القتال دفاعا عن دينه وعرضه وماله ونفسه . . . وإذا نحن حققنا النظر
 فى هذه السرايا ومناوشاتها - على الرغم من أنها لم تأخذ صفة الحروب
 بمعنى الكلمة وجدنا أنها لا تخلو من أن يكون الباعث عليها واحدا من
 هذه الأربعة المتقدمة ، التى جعلناها أسبابا واضحة تبرر التحام الجيوش
 فى ساحة القتال ، فأموالهم فى مكة قد اغتصبت . ودينهم يناله الايلام
 والايذاء ، والمطاردة والصد . ونفوسهم مهددة بالفناء ، فهم يقفون من
 كفار مكة الموقف الذى لا بدليل عنه ، ويساقون الى حربهم بحكم الدفاع
 الذى لا بد منه ، وحينما انتهى قرار المسلمين بالمدينة . واتخذوها الوطن
 الدائم كانت بحكم هذه الاقاعة الدولة التى يتحتم عليهما أن يحموا حوزتها
 ويحافظوا عن حدودها ، ويردوا من يغير عليها ، أو ينال من أهلها فى
 دينهم أو أموالهم أو كرامتهم . . . وتلك الطريق التى كانت تسلكها قريش
 وتنتهك حرمتها ، وتستعرض عضلاتها وقوتها لأهل المدينة ومن حولها .
 كانت فى حدود الدولة ، وكان عليها لتمر منها ، أو تستخدمها لمصلحتها ،
 أن تستأذن أصحاب السيادة عليها ، كما تقضى بذلك النظم الدولية .
 والأعراف المتبعة . . . على أن الرسول صلى الله عليه وسلم ظل يكتفى
 منها بهذا النفر القليل الذى أراد به أن يثير الرعب والفرع فى قلوب
 هذه القوافل المارة لتتخذ قريش لنفسها موقفا آخر ، يضمن سلامة
 رجالها وأموالها ، بالاتفاق مع رئيس الدولة على ما يسمى بحسن الجوار
 لا أكثر ولا أقل ، فلم يجعلها حربا بمعنى الكلمة ، يتخذ لها الأهبة ،
 ويوفر لها الاستعداد ، أو يجمع لها السلاح والذخيرة والرجال ، لأن القصد
 الأولى كان تعرف التحركات ، والوقوف على الأخبار والاطمئنان الى ما هو
 وراء عداوة قوم يشتغلون به ، ويفكرون فيه ، ويضمرون له أسوأ النوايا
 وينطوون له على أقذر العواطف ، ويتحينون هلاكه . . . والمنصفون من
 المؤرخين انما يعيبون على المصلحين وأصحاب المبادئ والآراء الحرب
 الهجومية التى يبتدئون بها الناس ، أو يفاجئون بها الشعوب ، أما اذا
 كانت زدا لعدوان ، أو صيدا لهجوم ، أو وقفا لشر ، أو ازالة لعراق
 تعرضها ، أو حدود تسد الطريق عليها ، فانها مشروعة ، ومثل هذا

الاسلوك لا يقضى على المنطق ، ولا يطارد الحرية ، ولا يلجئ الى الارغام ، ولم تكن حروب الاسلام فى يوم من الأيام هجوما ولا بطشا . وانما كانت لرد الظلم ، ودفع البغي ، وكبح جماح الباطل . ويقول الدكتور أحمد الشريف فى كتابه - الدولة الاسلامية - « ان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقم بحرب هجومية اطلاقا فى أثناء المعارك الكبيرة التى وقعت بينه وبين قريش ، فان موقعة بدر التى حدثت فى السنة الثانية للهجرة حدثت داخل حدود اقليم المدينة ، وعلى أثر تحدى المكين للنبى صلى الله عليه وسلم . وتسببهم قوافلهم بأراضى المدينة ممتنين حق السيادة الشريفة فأبو سفيان حين مر بقافلته فى المنطقة كان يتحدى أهل يثرب بقوته ، ويستئثل شأن النبى ، ولهذا خرج النبى اليه ، وأراد أن يصادر هذه القافلة . أو أن يحاربها . وكان أمرها يشغله منذ خرجت من الشام ، حتى رأى فى منامه قبل أن تعود رؤيا تبشره بأن إحدى الطائفتين ستكون له ، والطائفة الأولى هى القافلة ، والطائفة الثانية هى قوات قريش التى كان من المحتمل أن تخرج لنجدتها ، ومنع النبى من مصادرتها . »

وواقعة أحد فى السنة الثالثة وقعت فى جوار المدينة مباشرة ، وعلى نحو ميلين منها - وكان المكين فيها مهاجمين يطالبون بشار بدر ، ثم ان النبى خرج فى السنة الرابعة الى بدر الثانية لوعده بالحرب كان بينه وبين المكين يوم أحد ، فلما كان فى العام الخامس وهو العام الذى وقعت فيه موقعة الخندق كان النبى مستقرا فى يثرب ، وعدوه هو الذى جاء اليه متحديا له ، منتهكا لحقه فى السيادة ، كما كان الحال فى أحد . . وقد حرص حين فتح مكة أن يتفادى الاصطدام بالمكين ، وكان فتحا خلا من القتال بوجه عام ، ومع ذلك فان النبى حرص على الجهاد ، ونزل القرآن الكريم بآيات كثيرة ترفع من شأن المجاهدين ، الا أن الجهاد لم يكن يقصد به الا الدفاع واعزاز الدولة الاسلامية . بحيث تعيش فى أمن عام يساعدها على اعلان مبادئها بحجة وبرهان ببرهان ، دون أن تقف القوى المسلحة المادية فى طريقها . فتصدها أو تعطل سيرها . »

ومن هنا يتبين أن المسلمين لم يحملوا السيف ليرغموا غيرهم على الاسلام ولكن ليدافعوا عنه عدوان الكفر ، وجبروت الظلم . وبتش الجبارين ، وتسلب المعتدين ، وعناد الحمقى ، وسفه المتطاولين ، على أن دعوى الاكراه والارغام اذا صح أن يرددها مكابر مغرض فى وقت من الأوقات فهل يروج الآن ترديدها بعد أن أثبت التقدم الحضارى . والنضوج الذهنى . والازدهار العلمى ، أنه يغزو العقول والأفئدة ،

واعترف فلاسفة الدنيا أنه الذى يجب أن تأخذ الدنيا بتعاليمه ، والانسانية بهديه . لأنه الدين الذى لا تصلح الحياة الا به ، ولا يستقيم الأمر الا عليه ويقول الدكتور هيكىل « وما دامت الحرب فى فطرة الناس ، فتهديب فكرتها فى النفوس . وحصرها فى أدق الحدود . هى غاية ما تحتل فطرة البشر ، وما يحقق للانسان اتصال تطورها ، فى سبيل الخير والكمال ، وخير تهذيب لفكرة الحرب ألا تكون الا للدفاع عن النفس ، وعن العقيدة ، وعن حرية الرأى والدعوة اليه ، وهذا ما قرره الاسلام ونزل به القرآن » .

ومن غريب أمر هؤلاء الذين يخوضون فى حديث هذا الاكرا المزعوم أو الموهوم ، ممن يتهمون الاسلام بالعنف ، واراقة الدماء ، واشغال نيران الحرب ، فى سبيل اعلاء كلمته ، وانصواء الناس تحت رايته ، أن مبلغ علمهم به هذا الزيف المفترى ، والكذب المختلق ، والتمويه المفضوح ، فاذا مرت بهم على ما به من ارشاد ، وما فيه من اصلاح ، وما تضمنه من هداية ، وما نادى به من أدب . وما رسمه من خطوط . وما دعا اليه من خير ، لم يتخلف به عن تقدم ، ولم يعجز به عن نفع ، ولم يقصر به عن تطلع ونهوض ، عموا وصموا وظلوا فى طغيانهم يعمهون . . . وكنا نود فى هذا الوقت الذى يرمونه بالقسر والقهر ، والعنف والتسلط ، والارغام والالقاء ، واراقة الدماء ، وازهاق النفوس ، أن يرجعوا الى تاريخهم ، ويحاكموا رجال دينهم ، ويلتمسوا لهم العذر فيما سودوا به وجه الانسانية من ارهاق وظلم ، وبطش وعدوان ، وقتل وسفك ، باسم الدعوة الى الله وانقاذ البشرية مما تعانيه ، ثم يغمزوا بعد ذلك جانبه ، ويلمّزوا تكاليفه ، ويعيبوا نهجه ، أو يتهموا أساليبه فى الأخذ بيد الناس الى البر والمعروف ، لتنتطى دعوى اتهامه ، والاختلاق عليه ، لكن شيئاً من ذلك لم يكن ، ولا يمكن أن يكون . . . ولو كان عندهم قليل من الانصاف لقارنوا تلك الدماء التى أراقها محمد صلى الله عليه وسلم للمتبعين لدينه ، ونشر دعوته ، بما أراقوه هم باسم عيسى وموسى ، وبما لوثوا به وجه الأرض وظهرها ، وتلك الأموال التى أنفقوها على الحملات التبشيرية للصد عن الاسلام ، وتحويل القلوب والأنظار عنه « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا الى جهنم يحشرون » ولا يستطيع أحد أن ينكر أن الولايات التى تعانيها البشرية هنا وهناك لا تحتمى الا باليهودية والمسيحية وهما منها براء ما فى ذلك شك . . أما الاسلام فهو لا يزال سلاماً على الانسانية والناس . ويعجبني فى هذا أن المؤرخين الذين أرخوا للاسلام فى الأندلس وهم يفضحون هؤلاء الذين يرددون مثل هذا القول ويردون عليهم الرد الذى يخرس ألسنتهم

اذ يقولون ان الاسلام حينما دخل هذه البلاد لم يحمل مسيحيا واحدا
على الاسلام وحينما دالت دولته هنالك لم تترك المسيحية مسلما واحدا
على اسلامه ، وانما أرغمته على النصرانية ٠٠ ويقول الأستاذ أمين دويدار
« وكان الاسلام فى حاجة الى أن يدافع عنه أهله ، وأن يحموه من اذى
أعدائه وأن يعملوا على عرضه للناس فى جوهر الحرية والأمن والطأأينة ،
ولكل امرئ بعد ذلك أن يختار لنفسه ٠٠ » فمن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر » ومن أجل هذا أذن الله للمؤمنين فى القتال ، لأنه الوسيلة
الوحيدة لحماية العقيدة ، وتأمين المؤمنين بها ، حين لا تجدى وسائل
السلم ٠٠٠ على أن الله سبحانه حين أذن للمؤمنين فى القتال ٠ لم يأذن
لهم فيه الا دفاعا عن عقيدتهم ، وحماية لها ممن يعتدى عليها ٠ وفى
حدود الدفاع عن العقيدة وحمايتها ، نزلت آيات القتال والحث عليه فى
القرآن الكريم ٠٠٠ فالذين يقاتلون المؤمنين يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم
« وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب
المعتدين » والذين يخرجون المؤمنين من ديارهم يجب على المؤمنين أن
يقاتلوهم « واقتلوهم حيث ثقتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم »
والذين يفتنون المؤمنين عن دينهم يجب على المؤمنين أن يقاتلوهم
« والفتنة أشد من القتل » والذين يحاولون الوقوف فى سبيل دعوتهم
يجب على المسلمين أن يقاتلوهم « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون
الدين لله » وهكذا يخزى الله الكافرين ، ويفهم المبطلين ٠ وبفضله
المعاندين ٠

اليهود في الطريق

دل تاريخ البشرية منذ العهود الطويلة ، والآباد البعيدة . على أن اليهود لم يكونوا في يوم من الأيام في سلوكهم مع الناس . ومعاملتهم معهم . الا جرتومة شر . وعنصر فساد . وعاملا من عوامل الفرقة والكراهية . والنفور والبغض ، والحسد والحقد ، والايلام ، والتنقيص وما من حرب تدور رحاها ، ولا فتنة تشتعل نيرانها ، أو خلاف يقوم بين اثنين ، الا كان وراءه يهودى ، وفى القرآن الكريم كثير من خلالهم ، وعديد من أوصافهم . وهى تدل على أنهم عنصر هدام ، لا ينزع الى الاصلاح ، ولا يهفو الى الخير . ولا يميل الى تلاقى الأهواء ، واتلاف النفوس ، وصفاء القلوب ، واتحاد الكلمة . والتسام الشمل ، وحب الانصاف ، وانما يميل الى تمكين الشر ، ومعاونة الباطل . وغرس بذور الفساد ، وحسبهم أنهم كانوا يقتلون الأنبياء بغير حق كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يعانى شدة فى طريق دعوته الى الله . وابلاغ رسالته الى الناس . أفدح ولا أعظم من تلك الشدة التى كان يعانىها من المنافقين واليهود . غير أن حال المنافقين كان شائكا لأنهم يعلنون الاسلام ، وليس من حقه أن يدخل الى قلوبهم ، ولا أن يهتك أسرارهم ، ولا أن يعاملهم الا بظاهر ما يبدو منهم . . . لكن اليهود كانوا يزعمون فى أنفسهم أنهم أصحاب دعوة سماوية أخرى لا تقل فى تقديرها واحترامها عن دعوة محمد ، وهم لهذا يجب أن يجعلوه مطية لمجدهم الذى يحلمسون به ، وأوهمهم التى يتخيلونها فى السيادة على العالم ، والسيطرة على الناس ، والتعالى على الأوس والخزرج ، الذين يعيشون معهم فى مشادة ، ويحيون معهم فى صراع ولا سبيل الى ذلك الا اذا أزالوه من طريقهم ليكونوا وحدهم فى الميدان لا ترتفع عليهم صيحة . ولا يزاحمهم منافس وسياستهم التى

يسلّونها في كل زمان ومكان تقوم على الدين المشوب بالذلة والخسوع المختلط بالضعف ، والتواضع الذي يصل الى حد الهوان ، من أجل الوصول الى أغراضهم ، فان أمكنتهم الفرصة من عدوهم أخذوه بالعنف . وعاملوه بالقسوة ، وأرغموه على أن يركب حد السيف . وقد كان في المدينة المهاجرون والأنصار ، وكان بها المشركون من الأوس والخزرج الذين لم يتابعوا محمدا صلى الله عليه وسلم على دينه ، ولم يتبعوا دعوته ، ثم كان اليهود - كذلك - على الحدود القريبة منها كبنى النضير وبنى قريظة ، أو في داخلها كبنى قينقاع ، والمهاجرون والأنصار قد ألف بينهم الدين الجديد ، وربط بينهم بأوثق رباط وأمتنة ، وان كانوا مهملين بالاحن القديمة ، أو الخلافات الطارئة ، التي لا تخلو منها أمثال تلك المجتمعات التي تؤلف بين طوائف في عاداتها من التباين والاختلاف ما يبعد بينها . وكان النبي صلى الله عليه وسلم وهو على مقربة منهم يعالج أمراضهم ، ويدني ميولهم ، ويقاوم فرقتهم . وقد كان المشركون يحسون من أنفسهم بالضعف الذي سببته المعارك القديمة واكتفوا بالوقعة بين العناصر الأخرى من المسلمين واليهود . . واليهود بادروا في أول الأمر الى حسن استقبال محمد صلى الله عليه وسلم اعتقادا منهم أنهم يستطيعون أن يهودوه ، ويجعلوه داعية لهم في الجزيرة العربية كلها التي تمكنت فيها النصرانية والوثنية . ولم يعد فيها مجال لهم . ولا حديث عن دينهم . على الرغم من كونهم شعب الله المختار - كما يعتقدون - ولما لم تتحقق لهم أمنية الاستيلاء على محمد . وتسخيرهم لتحقيق أهدافهم . عملوا على أن يكونوا حربا عليه هو وأصحابه ، والدعوة التي ينادي بها ، والرسالة التي تلقاها عن ربه .

وكان من شعراء اليهود شاعر سليط مقذع وقف شعره على هجاء النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، هو أبو عفاك ، وهو من بنى عمرو ابن عوف يرسل الأشعار تلو الأشعار في الاستهزاء به ، والاستخفاف بدعوته . ويسخر منه ومن أصحابه ، ولم يكن واحد من المسلمين الا وفي نفسه منه شيء من الألم ، وظل شككا ينال من المسلمين ويغري بهم حتى بعد بدر التي رفع الله بها من شأنهم ، وأعز رايتهم ، وأعلى كلمتهم . وقد تطوع واحد من المسلمين باسكات صوته ، والقضاء عليه . ذلك الرجل هو « سالم بن عمير » الذي ذهب اليه في جوف الليل ودخل عليه داره وهو نائم ووضع السيف في كبده . . وكذلك كانت عصماء بنت مروان - من بنى أمية - تعيب الاسلام وتؤذي النبي وتحرض عليه ، فجاءها يوما عمير ابن عوف ودخل عليها دارها وهي ترضع ولدها فنجاه عنها ، ووضع سيفه في بطنها حتى أنفذه من ظهرها ، وكان قوم من بنى خزيمة - قومها - يكتمون الاسلام فلما أعلن عمير بن

عوف أنه هو الذى قتلها وأنه لو واكبها على هذا أحد لقتله أعجبته
شجاعته وأظهروا اسلامهم غير مبالين بما يلاقون فى سبيله .

وتان كعب بن الأشرف اليهودى الشاعر كذلك ممن يشتغلون بهجاء
النبي وهجاء المسلمين ، ولقد ساءه أن ينتصر المسلمون ببدر ، فأخذ
ينثر الكلام ما هنا وما هنا طعنا فيهم ، وتبريضا عليهم ، وهجاء لهم ،
وحينما وصل اليه الخبر بقتل صناديد قريش فى غزوة بدر ، وقال
هؤلاء أشرف العرب ، وصناديد قريش ، والله لئن كان محمد فعل بهم
ما فعل لبطن الأرض خير من ظهرها ، وذهب الى مكة ليحرض أهلها على
الأخذ بالثار من محمد وأصحابه . . ولما عاد الى المدينة أخذ يشيب بنساء
المسلمين ويفضح أعراضهم . فامتلات النفوس بالغيظ منه . وهنالك
أجمعوا على قتله ، وقصة قتله كما جاءت فى كتب الحديث هكذا « عن
جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه
وسلم . من لكعب ابن الأشرف فقد آذى الله ورسوله . فقام محمد بن
مسلمة فقال يا رسول الله أتحب أن أقتله قال نعم . قال فأذن لي أن
أقول شيئا قال قل . فأتاه محمد ابن مسلمة ، فقال ان هذا الرجل قد
سألنا صدقة . وأنه قد عنانا ، واني قد أتيتك استسلفك ، قال وأيضا
والله لتملنه . قال انا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر الى أى
شئ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا وسقنا أو وسقين ، فقال نعم
أرهنونى ، قالوا أى شئ تريد ، قال أرهنونى نساءكم ، قالوا كيف
نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب ، قال فأرهنونى أبناءكم ، قالوا كيف
نرهنك أبناءنا فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين ، هذا عار
علينا ، ولكننا نرهنك الامة . فوعده أن يأتيه ، فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة
وهو أخو كعب من الرضاعة - فدعاهم الى الحصن فنزل اليهم . . فقالت
له امرأته أين تخرج هذه الساعة . فقال انما هو محمد بن مسلمة وأخى
أبو نائلة ، قالت انى أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم . قال انما هو
أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة ، ان الكريم لو دعى الى طعنة
بليل لأجاب ، قال ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين . . وفى رواية
أبو عيسى بن جبر ، والحارث بن أوس . وعيساد بن بشر ، فقال اذا
ما جاء فانى قائل - آخذ - بشعره فأشمه فاذا رأيتونى استمكن من
رأسه فدونكم فاضربوه ، وقال مرة ثم أشمكم . فنزل اليهم متوشحا وهو
ينفخ منه ريح الطيب ، فقال ما رأيت كاليوم ريحا أى طيب ، فقال عندي
أعطر نساء العرب ، وأكمل العرب ، فقال أتأذن لي أن أشم رأسك ،
قال نعم فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال أتأذن لي ، قال نعم فلما استمكن
منه قال دونكم فقتلوه ، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه ،
وكذلك كان من اليهود الذين يعانون على النبي صلى الله عليه وسلم

الحرب ، ويجاهره بونه بالعداوة . ويحرض عليه المشركين « أبو رافع سلام ابن أبي الحقيق » وكان من فضل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم أن كلا من الأوس والخزرج كانا يتنافسان في مرضاته وينسابقان إلى أن يحلا من قلبه محل الرعاية والاهتمام ، وكانت الأوس قد قتلت كعب ابن الأشرف ، فأرادت الخزرج أن تصنع صنيعا يكافئ صنيعها . وكانا يتصاولان تصاول الفحلين لا تصنع احدهما شيئا فيه للنبي صلى الله عليه وسلم رضا الا فعلت الأخرى مثلها . . . ولما أصابت الأوس كعب ابن الأشرف قالت الخزرج والله لا يذهبون بها فضلا علينا . وتذاكروا رجلا في عداته للنبي كابن الأشرف فذكروا ابن أبي الحقيق . وهو بجهات خبير فاستأذنوا النبي في قتله فأذن لهم فخرج اليه خمسة فيهم عبد الله بن عتيك وقد أمره النبي عليهم ، وقصته كذلك في كتب الحديث هكذا « عن البراء رضى الله عنه قال بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أبي رافع اليهودى رجلا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله بن عتيك ، وكان أبو رافع يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعين عليه ، وكان في حصن له بأرض الحجاز ، فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم ، فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فاني متطلق ومتلطف للبواب لعل أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنم بثوبه كانه يقضى حاجة وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله ان كنت تريد أن تدخل فادخل فاني أريد أن أغلق الباب فدخلت فكمنت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق على وتد ، قال فقلت الى الأغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده . وكان في علالي له فلما ذهب عنه أهل سمره سعدت اليه فجعلت كلما فتحت بابا أغلقت على من داخل . قلت ان القوم نذروا بى لم يخلصوا الى حتى أقتله ، فانتهيت اليه ، فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله ، لا أدري أين هو من البيت ، فقلت أبا رافع فقال من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئا ، وصاح فخرجت من البيت فأمكنك غير بعيد ، ثم دخلت اليه فقلت ما هذا الصوت يا أبا رافع فقال لأملك الويل ان رجلا في البيت ضربنى قبل بالسيف ، قال فأضربه ضربة أثخنه ولم أقتله ، ثم وضعت طبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت انى قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت الى درجة له فوضعت رجلى وأنا رأى أنى قد انتهيت الى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة . فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أنى قتلته فلما صاح الديك قام الناعى على السور فقال أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت الى أصحابى فقلت النجاء فقد قتل الله أبو رافع . فانتهيت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فحدثته فقال لي ابسط رجليك فبسطت رجلي فمسحها فكانها لم أشتكها قط . . .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظا لختلهم . بسيرا بكيدهم عالما بما تمتلئ به قلوبهم العفنة وضماثرهم الخبيثة . وطواياهم الفاسدة . ونواياهم الشريرة ، ولقد رأيتهم يأخذهم بحذق . ويقلم أظافرهم بحكمة . ويقص أجنتهم ببراعة ، ويستريح من كيدهم بمهارة . وينتهي بهم الى الاذلال الذي كتبه الله عليهم . ولم تكن ما نعتهم حصونهم التي أحكموا بناءها . . . وقد كان بنو قينقاع بداخل المدينة يعملون في صياغة الذهب والحلي . وكان المال الذي في أيديهم يملا نفوسهم بالخلاء . ورؤوسهم بالكبر ، وظنوا أنهم يستطيعون أن يسيروا على جماجم المسلمين ، ويطأوا بأرجلهم أشلاءهم ، لأن اقتصاد المدينة وتجارها وأسواقها بأيديهم لا يزاحمهم في ذلك كله أحد ، وفي ذات يوم قدمت الى بعض أسواقهم امرأة من المسلمين لتشتري شيئا من الذهب . فتناول أحدهم عليها ، وعبت بحياتها . وعرى ثوبها عن جسدها فأخذت الغيرة رجالا من المسلمين فقتل ذلك اليهودي الذي تناول على المرأة المسلمة . وكانت هذه هي الشرارة الأولى في اشعال نار الحرب بين يهود بني قينقاع والمسلمين ، على الرغم من المعاهدة القائمة بينهم وبين المسلمين التي أخذها النبي عليهم أن يكونوا سلاما على المسلمين ، فلا ينالونهم بسوء ، ولا يساعدون عليهم عدوا . . . وقد أعلنوا عدم التزامهم لهذه المعاهدة ، وتحديدهم للنبي صلى الله عليه وسلم ، وقالوا له لا يغرنك أنك قد لقيت قوما لا علم لهم بالحرب فأصبحت منهم . أنا والله لئن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس ، ولم يكن هنالك بلد من أن يضرب محمد صلى الله عليه وسلم ضربته الأولى ليزيل عن المدينة شبح الفوضى التي تهددها . والرعب الذي يسيطر عليها . وحينئذ حاصر بني قينقاع خمسة عشر يوما لا يخرجون من بيوتهم ولا يدخل اليهم أحد في بيوتهم ، وكان هذا الشلل الاقتصادي الذي أصابهم . والفرع الشديد الذي حل بنفوسهم ، داعيا الى أن يظهر عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين على شاشة المسرح ، ويقول للنبي صلى الله عليه وسلم انهم حلفائي ، وقد أعرض عنه النبي مرارا ، فلم يصغ اليه ، ولم يأبه به . الا أن عبادة بن الصامت رجاء أن يضيق الخرق على الراقع . ليصبح هو والمشركون الموالون أبنى قينقاع مدينين لاحسانه وعطفه ، وكان الرأي الذي انتهى اليه النبي عو استئصال شأفتهم . وبادتهم جميعا ، الا أن الرأي الذي استقر عليه بعد ذلك كان هو خروجهم من المدينة تاركين أموالهم وديارهم ، وكان هذا الخروج الى وادي القرى ثم الى أذرعات على حدود الشام ، وبهذا الخروج أصبحت المدينة في مأمن من الفتن الداخلية . والدسائس التي

تحاك هنالك . وان كان يهود بنى النضير ويهود بنى قريظة على حدودها القريظة . . . وكان طبيعيا بعد هذا الذى حل ببنى قينقاع أن يتعطل به اليهود والمشركون وأن يصيبهم الرعب جميعا لكن أبا سفيان جمع مائتى رجل وأغاروا على المدينة وقتلوا بعض الرجال ، وحرقوا بعض المنازل والأسلح . يقصدون بذلك الى اشاعة القلق والاضطراب فى قلوب المسلمين . وقد نذب الرسول صلى الله عليه وسلم بعض أصحابه ليلحقوا بهم فوجدوهم يلوذون بالفرار . ويرمون فى الطريق بما كان معهم من المتاع والطعام . وكان أكثر هذا الطعام سويقا لذلك سميت هذه المطاردة بغزوة السويق . وعلى أثر هذا المطاردة بقليل من الزمن كان مقتل كعب بن الأشرف ، وبهذه الأحداث كلها متلاحقة كان الرعب فى قلوب اليهود يهددهم فى عقر دارهم ، أو فى داخل حصونهم . . .

أما ما كان من أمر بنى النضير فهو لا يبدو أن يكون صورة كذلك من صور الخداع والمؤم ، والمكيدة والغدر ، والخنوع والذلة ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ذهب اليهم يستعين بهم على دية قتيلين قتلتهما أحد المسلمين بطريق الخطأ . وكان القتيلان من حلفائهم وحلفائه - بنى عامر - وقد أظهروا الاستعداد كله لتحقيق طلبه فى دفع دية القتيل . لكنهم أخذوا يسوفون ويماطلون ويروحون ويجيئون كأنما يزورون أمرا ، أو يبيتون غدرا ، ثم انتهى بهم التدبير الى خطة لقتله صلى الله عليه وسلم بالقاء الحجر فوقه من أعلى الحصن الذى كان جالسا بجواره انتظارا للذين وعدوه أن يعودوا اليه بحاجته التى يطلبها ، وكان الله جل جلاله قد أوحى اليه علم ما انتهى تفكيرهم اليه . فتسأل من مكانه خلسة دون أن يشعر به أحد . ولما افتقدته أصحابه فلم يجدوه ذهبوا الى المدينة . ولما وجدوه هنالك سألوهم فأخبرهم الخبر ، ثم أرسل صلى الله عليه وسلم الى بنى النضير محمد بن مسلمة يحمل اليهم الانذار بخروجهم من مكانهم لأنهم غدروا به ، وكانوا يعدون عدتهم لقتله رميا بالحجر ، وفى هذه الأونة أخذتهم الحيرة والارتباك ، وبينما هم كانوا يتهيأون للرحيل جاء اليهم رسول من عبد الله بن أبى يامرهم بعدم الخروج لأنه سيقف بجانبهم ومعه ألفان من المقاتلين يدخلون معهم حصونهم ليموتوا عن آخرهم قبل أن يصل اليهم أحد من المسلمين . . . وقد أخذوا يقلبون هذا الرأى . ويفكرون فيه ، ثم انتهوا الى عدم الثقة فيه ، أو الاطمئنان اليه ، لأنه قال من هذا القول لبنى قينقاع ولم يغن عنهم شيئا . وبنى قريظة الذين هم على مقربة منهم لا يستطيعون أن يقدموا لهم صنعا لأنهم يرتبطون مع محمد بمعاهدة تجعلهم ملزمين أن يقفوا الى جانبه لا الى جانبهم ، وقال كبيرهم حبي بن أخطب سأرسل الى محمد لا نخرج من ديارنا وأموالنا وليستع بنا ما يريد ، وسنحتفى بحصوننا وأموالنا وأقواتنا وأسلحتنا ،

فلما حاصرهم المسلمون عشرين يوما أذاقوهم فيها الويل والدمار سألوا
 محمدا أن يؤمنهم على دمائهم وأموالهم ليخرجوا من غير أذى يلحق بهم .
 وقد رضى صلى الله عليه وسلم أن يخرجوا ولكل ثلاثة منهم حمل بعير
 من مال وطعام وشراب ليس لهم غيره ، فخرجوا ومعهم حيي ابن أخطب
 الذي كان يغريهم بالتمرد والعصيان ، ونزل منهم من نزل بخيبر وذهب
 الباقون إلى أذرعات ، وأسدل الستار على قوتين ضاربتين من قوى الشر
 التي كانت تناوئ الدعوة ، وتقاوم الإصلاح ، وتطارد الهداية ، وتكيد
 للإسلام ، وتصد عن سبيل الله ، وتبغى في الأرض الفساد . . . ولم يجد
 اليهود بعد ذلك وعلى رأسهم حيي بن أخطب طريقا يسلكونه للانتقام
 لأنفسهم من محمد ومن حوالة من المسلمين إلا أن يؤلبوا عليهم قريشا
 والمشركين جميعا لتتلاقى معهم في حرب تكون قضاء على الدعوة واسكاتا
 لهذا الصوت ، وإبطالا لهذا التخطيط الذي يخططون له . . . ولهذا خرج
 حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق ، ومعهم من بنى وائل هودة
 ابن أبي قيس وأبو عمار حتى قدموا على قريش بمكة فسألهم أهلها عن
 قومهم . فقالوا هم بخيبر والمدينة ينتظرون مجيئكم لتنكلوا بمحمد
 وأصحابه ، وسألوهم عن بنى قريظة فقالوا أقاموا بالمدينة مكرا بالمسلمين ،
 ولم يلبشوا أن جئتم إليهم أن يميلوا معكم عليهم ، ولم تخدع قريش بهذا
 القول ولم تصدقه ، فسألت أديننا خير أم دينه ، فقالوا لا بل دينكم ،
 وهنالك نزلت فيهم الآية « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون
 بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدي من الذين آمنوا
 سبيلا أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيرا » . .
 ولم يزل ابن أخطب حيي يسعى سعيه ، ويغلي حقه ، حتى جاء إلى كعب
 ابن أسد ليغريه أن يحمل بنى قريظة على الغدر بمحمد ، والتخلي عنه
 إذا ما جاءت الأحزاب إلى المدينة واغلة على أهلها . محاربة للمسلمين .
 وكان بنو قريظة قد عاهدوا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه أن
 يلقوا إلى جانبهم ، ويهدوا لهم يد المساعدة . وقد تردد كعب أن يستجيب
 لحيي بن أخطب لكن حياء لم يزل به حتى استماله واتصل نبأ هذا الغدر
 بالنبي صلى الله عليه وسلم فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس . وسعد
 ابن عباد سيد الخزرج ، وعبد الله بن رواحة ، وخوات ابن جبير ليقفوا
 على جلية الأمر ، فلما رأوا منهم روح الشر ، وقال كعب بن أسد من
 رسول الله ، لا عهد بيننا وبينه ، ووجد المسلمون أنهم قطعوا عنهم المدد
 والمعونة ، وفتحوا الطريق للأحزاب ليدخلوا المدينة ، لم يجدوا بدا من
 أن يتجهنموا لهم ، ويعاملوهم معاملة أخرى ، فحاصروهم خمسا وعشرين
 ليلة طالبا بعدها الخروج إلى أذرعات تاركين ما يملكون ولم يرض
 الرسول صلى الله عليه وسلم ولا المسلمون بهذا العرض . . . وعرض

عليهم الرسول أن يختاروا رجلا يحكمونه بينهم وبينه فاختاروا سعد ابن معاذ فحكم بقتل المقاتلين رسيبي الذراري والنساء ، وكانما كانت وجهة نظر سعد أن يعاملهم بمثل ما كانوا يترقبونه للمسلمين اذا انتصروا عليهم وهو الاستئصال من غير شك . وقد كان لهذا القضاء على بنى قريظة الأثر البالغ فى قوة المسلمين وتمكن دولتهم وعندئذ اتجهت الأنظار الى يهود خيبر الذين وفد عليهم فلول النازحين من اليهود الآخرين من كل مكان وقد أصبحت تضم اليها بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة ، والى جانبهم قريبا منهم يهود تيماء ووادى القرى ، وكانوا يترقبون ما بين وقت وآخر أن يغزوهم المسلمون ، لذلك كان الاستعداد بينهم قائما على قدم وساق . فتارة يفكرون فى الدخول فى حلف مع النبی صلی الله عليه وسلم ليزيلوا من نفوس المسلمين ما علق بها من العداوة التى غرسها حىي ابن أخطب من جراء تأليبهم العرب لاقتحام المدينة وتارة أخرى يفكرون فى تكتل يهودى عام يضمهم ومعهم وادى القرى وتيماء والمسلمون كانوا قد سبقوا من قبل بقتل زعيمين من زعمائهم هما سلام بن أبى الحقيق ، واليسير بن رزام ، وبهذا القتل حصلت خلخلة فى صفوف اليهود الا أن كثيرا من القرشيين كانوا يتوقعون أن الدائرة ستدور على المسلمين ، وذلك لمناعة حصون خيبر ، وقيامها فوق جبال صخرية ، وكان أبرز زعماء أهل خيبر فى هذا الوقت سلام بن مشكم الذى أشار عليهم أن يوزعوا أنفسهم على الحصون . فيجعلوا الأموال والأولاد فى حصن والذخائر فى حصن والمقاتلة فى ثالث وهكذا وضيق المسلمون عليهم الحصار وهم مستميتون فى الدفاع ، وقتل سلام ابن مشكم فتولى القيادة بعده الحارث بن أبى زينب ، وما زالوا صامدين وقد أرسل النبی اليهم أبا بكر فرجع من غير جدوى ، فأرسل عمر فرجع كذلك فأرسل عليا ودعا له بالنصر وقد خرج اليه يهودى فضربه فسقط ترسه ، فتناول بابا كان عند باب الحصن . فتترس به ولم يزل يقاتل حتى اقتحم الحصن واقتحم المسلمون بعده ، وسقطت خيبر وصالحهم النبی على البقاء فى أرضهم يزرعونها بالنصف ، لأن المسلمين لم يكن فيهم من يحسن القيام على فلاحة الأرض وزراعتها ، وقد قبل يهود فدك ووادى القرى هذا المبدأ ولكن يهود تيماء قبلوا دفع الجزية ولكن أمرها بعد الفتح عاد الى الاذعان والقبول

قبل غزوة بدر

كانت سرية عبد الله بن جحش حدثا هاما في أوساط قريش بمكة لأنها قتلت رجلا وأسرت اثنين وأخذت ما كان مع القافلة القادمة من الشام فجعلته غنيمة للمسلمين تولى محمد صلى الله عليه وسلم توزيعها ثم هي مع ذلك أحدثت ضجيجا في صفوف المسلمين والمشركين في آن واحد . . وقال القائلون لقد انتهكت الأشهر الحرم . . وكان القرآن الكريم فيصلا في الدفاع عن المسلمين . ودحض الافتراءات التي افترها الكفار عليهم . وقد كانت قريش ألحت في فك قيده الأسيرين اللذين كانا في حوزة المسلمين في مقابل فدية تدفعها وقبل النبي صلى الله عليه وسلم ما عرضته قريش بشأن الأسيرين على أن يتقدم ذلك رد الأسيرين المساجين اللذين كانا قد ذهبوا إلى مكة طلبا لراحتهما المفقودة . . الا أن المسألة من الجانبين لم تنته إلى هذا الحد فإن قريشا أدركت أن محمدا وأصحابه قد ابتدأوا معها سياسة جديدة سوف تأخذ طريقها على مدى الأيام لوضع حد فاصل بين الطرفين لا يعلم الا الله ماذا يكون وراءه ، وكذلك المسلمون أخذوا يتطلعون إلى تصحيح الأوضاع القائمة بينهم وبين المشركين ، وربما كان قد وقر عندهم أنهم منذ هذه السرية قد اهتموا إلى الأسلوب الذي يحسن أن تعامل به قريش لتتنازل عن غطرسيتها ، وتعديل من خطتها ، وتثوب إلى رشدها . . وها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أن أبا سفيان خارج إلى الشام بتجارة لقريش بذلت لها أموالها ، ورصدت لها كل ما تملك فيخرج للقائها فلا يدركها فيتربص عودتها ليأخذها لقمة سائغة للمسلمين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم بغير حق ويصل إلى علم أبي سفيان نبا هذا الخطر الذي يتهدد تجارة قريش فيرسل رسولا إلى مكة لتنبه على بكرة أبيها لتحمي تجارتها ، وتدافع عن أموالها ، وبينما هي في هذا الفزع والاستعداد للخروج ولقاء أبي سفيان كانت القافلة

فقد وصلت الى مكة سالمة لم يصيبها سوء لأنها غيرت طريقها فلم يدركها محمد صلى الله عليه وسلم ٠٠٠ الا أن خروج محمد بنفسه ليقطع الطريق كان له مغزاه البعيد جدا عند قريش لأنه يعنى على الأقل أن الأمر من الجدية بدرجة عظمى ، وأن على قريش أن تحسب حساب هذه الجدية ٠٠٠ وقد أخذ أهل مكة يفكرون فيما يجب أن يأخذوا به ، فمن قائل ان الغرض الذى من أجله كنا ننتهي للخروج الى لقاء محمد لنرده عن عدوانه ، ونمنعه من تطاوله قد أصبح لا غيا ، والحروب ليست من السهولة بحيث يستجيب الناس اليها بهذه السرعة ، ومن قائل لا نترك محمدا يطمع فينا ، ويستهن بالعدوان علينا ، ولو أن الخلاف كان مجرد تعارض آراء لهان عليهم أن يختلفوا لكنه تحول الى ناحية حساسة فى صلة الفرد بالفرد والجماعة بالجماعة ، تلك الناحية الحساسة هى القرابة والنسب الذى كان يربط بين أهل مكة والمسلمين الذين آمنوا بمحمد وهاجروا معه ، وهذا خلاف - أو اختلاف - اذا انتهى بالخروج الى محمد واللقاء له وجهها لوجه . وعلان الحرب عليه ، كان معناه أن يقتل الرجل أخاه أو أباه أو ابن عم أو خال له ، لأن هؤلاء المهاجرين قد تركوا فى مكة أهلا وذوى قرابة . ورحما موصولة ، من الصعب أن يريقوا دماءهم ، أو يزهقوا نفوسهم ، لذلك فان الذين تحدثوا عن القعود عن القتال ، ولم يستقبلوا فكرة الخروج الى محمد ، ما دامت العير قد نجت . والتجارة قد وصلت سالمة ، لم يقابلوا بالرضا والارتياح من كثير من المتحمسين للقتال بحجة أنهم يتفادون قتال من تربطهم بهم قرابة أو نسب من أصحاب محمد ٠٠٠ على أن هنالك جماعة أخرى من المثبتين عن الخروج كانت ترى أن محمدا وأصحابه انما يأخذون بحقوقهم ، ويثأرون لأنفسهم ، لأن المعاملة التى عوملوا بها ، والتى انتهت بهجرتهم من مكة كانت غير كريمة ، وأن الظلم الذى وقع عليهم ، والغبن الذى لحق بهم . هو الذى دفعهم الى هذا الصنيع الذى يصنونه مع قريش فى تجارتهم وقوافلها التى تغدو وتروح ، وكل هذا كان من حقه أن يستبعد عن الأذهان فكرة الخروج الى محمد والحرب له ٠٠٠ ولولا أن فريقا آخر بحكم النخوة الجاهلية كان متحمسا للخروج والحرب ، وتأديب هؤلاء الذين يقطعون الطريق على التجارة أو يحاولون أن يظهروا بمظهر الهزيل الضعيف أمام محمد وأصحابه ، تمسكوا بالحرب والدعوة اليها ، واعتبروا أن الذين يصرفون الأذهان عنها ، أو يقابلونها بالفتور والبرود ، لا يجرى فيهم الدم العربى ، وكان على رأس هؤلاء أبو جهل الذى كان موقفه دائما أبدا من النبى صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه موقف العداء والكراهية وكان منهم كذلك عقبة بن أبى معيط ، وقد جاء هذان الرجلان بمجرة فيها بخور ومرود ومكحلة لأمية بن خلف وقالوا له استجمر وتكحل فانما أنت من النساء

لأنه كان يرى أنه لا داعي لقتال محمد ما دامت العير قد نجت ووصلت إلى مكة سالمة لم يصبها أذى ، وكان على رأس أصحاب هذا الرأي أبو سفيان نفسه الذي كان على رأس هذه العير إلا أن رأي أبي جهل الذي كان يدعو للحرب قد تغلب ٠٠٠ وكان عتبة بن ربيعة ممن لا يزون حرب محمد وأصحابه موافقة للصواب ، وكان يقول « يا معشر قريش انكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا ٠٠٠ والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل قتل ابن عمه أو ابن خاله من عشيرته فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم وإن كان غير ذلك لم نتعرض منه لما تكرهون فلما بلغ ذلك أبا جهل ذهب إلى عامر الحضرمي - وهو أخو عمرو الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش - وقال انظر ماذا يقول حليفك ٠٠٠ وإلى هنا كانت فكرة خروج قريش إلى الحرب قد نضجت ولم يبق أحد من أهل مكة إلا وقد أعد نفسه للخروج أو أرسل من ينوب عنه إلا بنو زهرة التي نزلت على رأي زعيمها الأخنس بن شريق الذي كان يرى عدم الحرب ٠٠٠ وانتهى الأمر بتجميع قريش التي أعدت نفسها لحرب محمد وأصحابه بالعدوة القصوى ٠٠٠ وقد كان خبر هذا التجمع قد انتهى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وإلى أصحابه ٠ وكان لابد له أن يأخذ رأيهم في ذلك فكانت موافقتهم عامة لم يشذ منهم أحد ، وقال المقداد بن عمرو يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك ولا نقول لك ما قال بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ولكننا نقول اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، وسكت الناس بعد ذلك فلم يتكلم أحد فقال النبي صلى الله عليه وسلم أشيروا علي أيها الناس وكانما كان يعني الانتصار لأن الوضع الذي كن بينهم وبينه أن يحموه مما يحرم منه نساءهم وأبناءهم وكان معلوم أن ذلك في داخل المدينة فقط ٠ ومعنى هذا أن يقفوا معه موقف المدافع لا المهاجم - والحرب هجوم - وفي هذا الوقت تصدى له سعد بن معاذ سيد الأوس وقال له كأنك تمنينا يا رسول الله ، فقال له الرسول أجل ٠ فقال سعد قد آمنا بك وصديقناك وأعطيناك عهدنا فامض لما أمرك الله به ، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لنخوضه معك ٠ وما نكره أن تأمى عدونا غدا ، إنا لصبر عند الحرب ، صدق عند اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك ٠ فسر على بركة الله ، فأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ٠ وقال أبشروا والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم ٠ وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بعث عيوته يلتصقون له خيل قريش ليعرف مدى استعدادهم للحرب ٠ فجاء إليه علي بن أبي طالب والزبير ابن العوام وسعد بن أبي وقاص بخلامين من قريش قالوا له إن قريشا وراء

الخبيب بالعدوة القصوى فسألهما النبي صلى الله عليه وسلم عن عدد مقاتليهم فأجابا انهما لا يستطيعان أن يقطعا في ذلك بقول ، فقال لهما كم يذبحون من الابل كل يوم فقالا له أن ذلك يتراوح بين تسعة أو عشرة من الابل فعلم أن عدد الجيش يتراوح بين التسعمائة أو الألف ٠٠ كما جاء اليه أيضا اثنان من هذه العيون يقولان له ان قريشا ترد بدرا غدا أو بعد غد ، وكان ذلك بناء على أن جارية كانت تطالب أختها بدين عليها ، فقالت لها غدا أو بعد غد تأتي البعير وسأعمل لها وأؤدي لك حقك ٠٠٠ وكان صلى الله عليه وسلم قد نزل بعيدا عن البشر المسماة بدرا ، فقال له الحباب بن المنذر بن الجموح بابي أنت وأمي يا رسول الله أهذا منزل أنزلك الله اياه لا نستطيع أن نتحول عنه ، أم هو الرأي والخذاع والحرب ، فقال له هو الرأي والحرب والخذاع ، فقال له يا رسول الله ان الحرب والخذاع والرأي تقضى أن تنزل على الماء نتحكم فيه ونأخذ منه ، ونذود سوانا عنه ، فاستراح النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الرأي . وانتقل المسلمون اليه ، وبنوا حوضا عليه ، وظلوا يمتنعون عنه من تجديده نفسه بالاقتراب منه ، وكان أخذ النبي صلى الله عليه وسلم يراى واحد من أصحابه ارتياحا لضمائهم ، وسرورا لأنفسهم ، وعلانا عن احترام المشورة والأخذ بها ، وأنه لا ينفرد وحده بتنفيذ الأمور ، وإبرام القضايا ٠٠ ولما انتهى المسلمون الى وضع أيديهم على ناصية البشر والاقامة حولها ، والاطمئنان الى أن مصيرها بأيديهم ، اقترح رئيس الأوس سعد بن معاذ أن يبنى للنبي صلى الله عليه وسلم عنده عريشا يأوى اليه ، وتجعل الى جانبه ركائبه ، فاذا قاتل المسلمون كان هو بعيدا عن الخطر ، أو بمنجى من الشر ، فإن انتصر المسلمون عاد معهم باليمن والظفر ، والا بقى للعدوة يتم ما بعثه الله به ، وأرسله من أجله . فليس هو فردا وإنما هو أمة وتاريخ وتحويل لمجرى الحياة كلها ٠٠

غزوة بدر الكبرى

كانت قريش من غير شك تقف موقف التحدى من النبى صلى الله عليه وسلم ، اذ أنها تعلم أنه خارج لا محالة للقاء عيرها التى يقودها أبو سفيان والتى كانت تحمل ما تقدر قيمته بخمسين ألف دينار - كما يقول المؤرخون وهو تحد أرادت به أن تضع حدا فاصلا لهذه المناوشات التى يقوم بها أصحاب محمد ليجعلوا طريق تجارتها غير آمن . وقد كانت ترى أن هذا الحد الفاصل هو الذى يسدل الستار على الفصل الأخير من الرواية ، وربما كان المسلمون أيضا يريدون أن تكون هذه المعركة هى الحد الفاصل لكن قلة المسلمين لا تدل على أن هذا الموقف بينهم وبين قريش سيكون هو الحد الفاصل لأنهم كانوا قلة متهاففة فى حين كان المشركون ثلاثة أمثالهم فى العدد ٠٠ الا أن عناية الله سبحانه وتعالى بالمسلمين كانت تلفت النظر . وتجعل العقل لا يتردد فى أن النصر للمبادئ التى يؤمن بها أصحابها ، وللعقيدة التى تعمر بها نفوسهم ، والتى تصورها الآية القرآنية الكريمة « اذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكم كثيرا لفشلتم ولتنزعتم فى الأمر ولكن الله سلم انه عليهم بذات الصدور واذ يريكموهم اذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا والى الله ترجع الأمور » ولم يكن واحد من الذين خرجوا مع محمد صلى الله عليه وسلم يضع فى اعتباره قلة وكثرة ، وانما كانوا يرون أنهم خرجوا لحماية العقيدة التى يؤمنون بها . والدين الذى اختاروه لأنفسهم . وقد كانوا يشعرون بهذه القلة لا محالة لكنهم لم تزرع فى نفوسهم التردد ، ولا فى قلوبهم الرعب ، وبخاصة بعد تلك الطاقة التى زودهم بها صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم قبل أن ينزلوا الى ميدان المعركة « أما بعد فانى أحثكم على ما حثكم الله عليه ، وأنهاكم عما نهاكم عنه ، فان الله عظيم شأنه .

يامر بالخير ويحب الصدق ، ويعطى الخير لأهله على منازلهم عنده ، وانكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحق لا يقبل الله فيه من أحد الا ما انتفى به وجهه ، وان الصبر في موطن البأس مما يفرج الله به الهم ، وينجى به من الغم . وتدرك به النجاة في الآخرة . فيكم نبي الله يحذرکم ويأمرکم . فاستحيوا اليوم أن يطلع الله عز وجل على شيء من أمرکم يمقتكم عليه ، فان الله يقول « لملت الله أكبر من مقتكم أنفسكم » وأبلاو ربكم في هذه المواطن أمرا تستوجبوا به الذي وعدكم من رحمته ومغفرته ، فان وعده حق ، وقوله صدق . وغنايه سبحانه ، وإنما أنا وأنتم بالله الحي القيوم ، اليه ألقانا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكلنا ، واليه المصير ، يغفر الله لي ولكم وللمسلمين » . . . وقد كانت الحرب في أول الأمر مناوشة ابتدأت بالأسود بن عبد الأسد المخزومي الذي اخترق صفوف المسلمين الواقفين على بدر ليهدم الحوض الذي بناه المسلمون عليها فتقدم اليه حمزة بن عبد المطلب فأصابه في ساقه فأرداه ، وهنالك تقدم عتبة ابن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد ودعوا الى المبارزة فخرج اليهم فتيان من الأنصار فأبوا أن ينازلوهم وقالوا نحن نريد أكفاءنا من قومنا ، ثم نادى عتبة يا محمد أخرج لنا أكفاءنا من قومنا فنادى النبي صلى الله وسلم يا عبيدة بن الحارث يا حمزة بن عبد المطلب يا علي بن أبي طالب فأجهزوا عليهم وتركوهم قتلى . وأقيمت قریش بعد ذلك بعددها الضخم لتبتيء الزحف الساحق ، فلما رأى النبي صلى الله عليه وسلم كثرتها الكثيرة ، أخذ يقول للمسلمين والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر الا أدخله الله الجنة . وكان يتابع المعركة وهو في عريشه يبتهل الى الله ويدعوه وكان يقول فيما يقول اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض ، اللهم نصرك الذي وعدتني ، اللهم أرعب قلوبهم ، وزلزل أقدامهم ، وكان أبو بكر يقول له هون عليك يا رسول الله فان الله منجزك وعده ، وأخذته صلى الله عليه وسلم سنة من النوم قام بعدها يقول أبشر أبا بكر هذا جبريل أخذ بعنان فرسه يقوده على ثنابا النقع . ونزل الى أصحابه يشد عزائمهم ، ويبشرهم بنصر الله ، ويقول لهم شدوا شدوا « سيهزم الجمع ويولون الدبر » . . . ولما نظر المشركون الى ما حل بكبارهم وزعمائهم أمثال عتبة وشيبة استول عليهم الهلع والخوف ولاذ من لاذ بالفراز ومن لم يستطع وقع في أسر المسلمين ، وهتا موقفان يأخذان بتفكير الأريب أو الأديب .

الأول ما كان من سعد بن معاذ سيد الأوس فنه لما رأى المسلمين تبهل وجوههم لوضع أيديهم على الأسرى تغير وجهه ، فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم لكأنك يا سعد تكره ما يصنع القوم فقال أجل

يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك . فكان الانحان في القتل أحب إلى من استيقاء الرجال . . . وهو يعلن عن مبلغ سروره بقتل المشركين واستئصال شأفتهم وانتكاس رأيهم وذلة نفوسهم وأنهم بعد هذا الذي حصل لهم لا يستطيعون أن يتعرضوا للدعوة ، ولا يمكن أن يصدوا عنها ، أو يقفوا في وجه محمد صلى الله عليه وسلم بعد هذا الهوان الذي لحق بهم . والهزيمة التي أصابتهم ، وأن اللغة التي كانوا يخاطبون بها المسلمين ستتغير منذ هذه اللحظة .

الثاني ما كان من النبي صلى الله عليه وسلم وقد أحس أن زمام الموقف في أيدي المسلمين لا المشركين فمشى يقول لهم اني قد عرفت أن رجلا من بنى هاشم وغيرهم قد سيقوا إلى القتال كرها وهم لا حاجة لهم بقتالنا فمن لقي منكم أحدا من بنى هاشم فلا يقتله . ومن رأى أبا البختري فلا يقتله ، وكان أبو البختري هذا ممن يكفون الأذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ، وهو أحد الذين وقفوا موقفا كريما في نقض الصحيفة . ونحن لا نفسر موقف الرسول من بنى هاشم إلا أنه موقف الدم والقراية . لكن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة قال له أيقتل آباؤنا وإخواننا وعشيرتنا ونترك بنى هاشم والله لئن لقيت العباس ابن عبد المطلب لألحمه السيف . فتغير النبي صلى الله عليه وسلم وشكى أبا حذيفة إلى عمر ، وقال له أما سمعت قول أبي حذيفة أضرب وجه عم رسول الله بالسيف ، فقال له عمر والله لقد نأفق . مرني يا رسول الله لأقتله . وكان أبو حذيفة يحدث عن نفسه فيقول ما أنا بأمن من تلك الكلمة التي قلتها وأرجو أن تكفرها عني الشهادة وعلمت شهيدا في موقعة اليمامة في خلافة أبي بكر رضى الله عنه وأبو حذيفة هذا حين قتل أبوه قال له النبي صلى الله عليه وسلم ألمك قتل أبيك يا أبا حذيفة فقال له لا يا رسول الله ولكني كنت أرجو وفيه رجاجة عقل ، وبعد نظر ، وحسن تفكير ، أن يهديه الله إلى الحق ، ويبصره بالصواب ، ويوجهه إلى الخير ، لكنه آثر الكفر ، وطريق الغواية ، وذهب إلى جهنم من أوسع أبوابها . .

ولما انتهت الحرب وفر من فر من قريش وأسر من أسر كان عدد قتلاهم سبعين كلهم من الصناديد الذين كانوا يديرون المعركة وتعتمد عليهم جبهة الكفر ، وترتبط بهم إلى حد بعيد المناوشات التي تواجه بها الدعوة ، والخصومات التي يعاني منها محمد صلى الله عليه وسلم في أداء رسالته ، وقد كان اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم في تفقد القتلى ومعرفة الذين خرجوا صرعى أن يطمئن إلى أن أبا جهل في هؤلاء جميعا وكان قد اشتراك في قتله ثلاثة ضربه معاذ في قدمه . وضربه معوذ كذلك ، وضربه ابن مسعود فقطع رأسه وقضى عليه . ولم يسر

الرسول لموت أحد كما سر لموته ، وكانت نشوة فرحه صلى الله عليه وسلم بهذا النصر لا تعادلها نشوة أخرى بيوم آخر ، لأن هذا اليوم كان بحق حدا فاصلا بين قريش وبين النبي صلى الله عليه وسلم . كما كان حدا فاصلا أيضا بين الكفر والايمان . . . وكان من ارتياح النبي صلى الله عليه وسلم لما حدث في هذا اليوم أنه كان يمشى ومعه أبو بكر يتفقدان جثث القتلى فيقول « نفلق هاما من رجال أعزة » فيقول أبو بكر « علينا وهم كانوا أعز وأكرما » لكننا نعجب من قصة أبي البختري الذي أوصى النبي صلى الله عليه وسلم بالابقاء عليه وعدم قتله فإنه قد انتهت حياته بالقتل . وذلك أن أحد المسلمين أراد أن يطمئنه على أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أوصى بالابقاء على حياته ، فقال له أبو البختري أنا وحدي ، أم أنا وصاحبى فلان ، فقال له أنت وحدك ، أما صاحبك فاني قاتله . فقال أبو البختري لا تتحدث نساء قريش بخيانتى لصاحبى ، اما الحياة لى وله ، واما الموت لى له ، وأحسن المسلم بالغدر الذى يبيته أبو البختري فضربه ضربة قضت عليه ، وجاء الى النبي صلى الله عليه وسلم يخبره خبره . . . وقد كانت غزوة بدر هليئة بكثير من الصور التى تنضح بعطفه صلى الله عليه وسلم على بنى هاشم وابقاؤه على حياتهم وان كانت قلوبهم قاسية وطباعهم جافة ، وأفئدتهم متحجرة ، الا أن هذه الغزوة على كل حال كانت كفيلة أن تغير سياسة المعارضة التى كانت تحمل رايتها قريش لتأخذ من جديد فى أسلوب آخر غير هذا الذى تعامل به محمدا صلى الله عليه وسلم الذى تدبى له العرب ، ويخضع له هذا السواد الذى يستطيع به أن يكسب المعارك . وينتصر فى المواقع ، ويقوم به المعوج ، ويصحح به الأوضاع ، ويؤدب به من يخرج على طاعته ، أو يكذبه فى دعوته . لكنها مع ذلك ظلت حربها قائمة ، وعداوتها دائمة . . .

طرف من بدر

كان في صفوف المشركين في غزوة بدر « أمية بن خلف » وقد وقع في أيدي المسلمين أسيرا هو وابنه وأراد عبد الرحمن بن عوف أن يحميهما من عدوان من تحدته نفسه بالقسوة عليهما ، أو النيل منهما ، لكن بلالا الحبشي مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عبدا مملوكا لأمية هذا وقد لقي منه من ألوان الهوان ، و صنوف الايذاء ، بسبب اتباع محمد ، واعتناق دين الاسلام ، ما لا يتصوره العقل البشري الا في فظائع الطباع ، وقاسى القلوب . . . وكثيرا ما كان يتركه في الرضاء المحرقة متجردا من ثيابه . لتلفحه النار ، ويؤذيه اللهب ، ثم لا يكتفى بذلك حتى يلقي بالحجر الثقيل على بطنه ، رجاء أن يحمله ذلك التعذيب والايلام على المروق عن الاسلام ، والبقاء على وثنية الكفر ، وضلالة الشرك ، وعبادة الطاغوت ، والسجود للأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تحسن ولا تدرك . . . وما ان وقعت عيننا بلال بن رباح على طلبته التي كان يرجوها ، وضالته التي كان ينشدها ، حتى هجم عليه ليشفى غليله منه ، ويقتص لهذا الذي لقيه من جبروت المالك ، وعسف المتسلط ، وبطش الجاهلي ، وكبرياء الأحمق . فلما زجره المرة بعد المرة عبد الرحمن بن عوف نادى بأعلى صوته رأس الكفر أمية لا نجوت ان نجا ، وكان أمية مما أصاب عبد الرحمن من مغنم الحرب ، فقال له عبد الرحمن هو أسيرى ، ومالى ، ولكن بلالا تمادى في صوته ، وألج في طلبه ، ورأى أن حجة عبد الرحمن بن عوف لا تحول بينه وبين ثأره القديم ، وأحاط الناس بأمية وابنه في يدي ابن عوف وسبقت من بلال ضربة لهذا ثم لهذا وصارا في خبر كان الناقصة . . . ويظهر أنه إلى هذه اللحظة لم تكن الأمور قد تكشفت في شأن الأسرى ، ولا عرف المسلمون ما الذي يجب أن يؤخذ به في معاملتهم ، وكان من هؤلاء الأسرى من كانت لهم سوابق سيئة في

معاملة المسلمين بمكة ، ولذلك لم يقبل المسلمون منهم الفداء ، وأبوا الا قتلهم ليكون ذلك أدعى الى شفاء غليلهم ، وارضاء نفوسهم ، وقد صنع النبي صلى الله عليه وسلم بالنضر بن الحارث وعقبة ابن أبي معيط ذلك بنفسه وهو عائد مع المسلمين الى المدينة ، نظر الى النضر نظرة اشتف منها أنه قاتله فقال لمصعب بن عمير وكانت بينهما مودة أنقذني من صاحبك فانه نظر الى نظرة تدل على أنه قاتلي لا محالة ، فأخذ يذكره بمساوئه السابقة واحدة واحدة . . وكان من طريف أخبار هؤلاء الأسرى أن جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم شاعر يدعى « أبو عزة عمرو بن عبد الله بن عمير الجمحي » وقال لي خمس بنات ليس لهن شيء فتصدق بي عليهن ، ولك على أن لا أقاتلك أو أعين عليك . فلما أطلق سراحه ، نكث عهده ، وأخلف وعده ، وخرج لحربه وحرب المسلمين في أحد ، فوقع في أيدي المسلمين وانتهى أمره بالقتل . . ومن الصور التي تفيض بالحنان والعطف في أسرى بدر أن زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم رأت في الأسرى « العاصي بن الربيع » وكان زوجها لها ثم فرق النبي بينهما لاختلاف الدين ، وقد أخذتها عاطفتها القديمة ، وصلتهما السابقة ، وكانت تملك قلادة كانت أمها خديجة أهدتها إياها ليلة زفافها اليه ، وقد حملت هذه القلادة وذهبت لتقدمها للنبي صلى الله عليه وسلم ليأخذها فداء للعاصي بن الربيع فزق قلبه صلى الله عليه وسلم لها وقال للمسلمين « هل لكم أن تردوا عليها قلادتها وتطلقوا لها زوجها » وقد خلى المسلمون سبيله وعاد الى مكة وخرج على رأس عمير في تجارة لبعض أعيان مكة ، وفي عودته من الشام التقى به جماعة من المسلمين فأخذوا ما معه ، وهنالك التجأ الى زينب ليرد المسلمون اليه ما أخذوه منه ، وعملت زينب بكل ما تملك من الوسائل ليعود اليه ماله ، وقد كان أجيرا لا يملك من الأموال الا حق الرعاية والصيانة والحفظ ، ولما رد اليه المال وذهب الى مكة ليدفعه الى أصحابه عاد الى المدينة ليعلن اسلامه ولتعود اليه زوجته التي كان نبيل أخلاقها . وكرم معدنها ، وحسن وفائها . حاملا له على أن يقوم سيره ، ويصحح منهجه ، ويعدل مسنته ، ويلتزم جادة الصواب والحق ، واستأنف معها في ظلال الاسلام عيشا أرغد ، وحياة أهنأ . وصلة أقوى مما كانت . ولعل السبب في تمسكه بها . وحده عليها ، وتراعى عاطفته نحوها الى هذا الحد . لا ترجع الى رابطة الزوجية وكفى ، ولكن الى أنها ابنة سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم . وأنها كذلك ابنة خالته ، لأن أمه هالة بنت خويلد الأسدية أخت خديجة رضي الله عنها . . وكان العاصي هذا ممن عرفوا في مكة بالأمانة والاستقامة وحسن الخلق ، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يثنى عليه . وكثيرا ما حاول المشركون أن يحملوه على ترك زينب فلم يتركها وازداد

تعلقا بها وحرصا عليها . . . وكان من الصور التي تفيض بالانسانية
المهذبة ، والمروعة النادرة ، أن قتل المشركين الذين لم يجدوا من قومهم
وذويهم من يدفن جثثهم ، أو يهيل التراب على أجسامهم . صنع المسلمون
معهم صنيع الانسانية والمروءة ، اذ جمعوا أشلاءهم المتناثرة وعظامهم
المتفرقة . فى قبر يوارىهم ، وجدت يضمهم ، وهو ما يسمى بالقلب
- البئر - وقد ظل المسلمون بعد أن انتهت المعركة يوما كاملا وليلة كاملة
فى مكان المعركة لا يغادرونه ، وبينما هم بالليل مع سكوتهم وهدوئهم ،
يستغرق فى نومه من أتعبه العمل ، وأنهكت حركه الكر والفر ، كان
الرسول صلى الله عليه وسلم واقفا على القلب الذى يضم جثث الهلكى
قائلا « يا أهل القلب . . يا عتبة بن ربيعة ، يا شيبه بن ربيعة - يا أمية
ابن خلف يا أبا جهل بن هشام . . يا فلان يا فلان - يذكر من فى القلب
واحدا واحدا - هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا فاني وجدت ما وعدنى
ربى حقا » قال المسلمون يا رسول الله أتنادى قوما جيئوا . . فقال عليه
الصلاة والسلام « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يستطيعون أن
يجيئوني » . . .

ولقد كانت هذه الجولة الحاسمة بين المشركين والمسلمين ، من
الأيام الحالكة السواد على دولة الكفر ، والجماعة المناوئة لمحمد صلى الله
عليه وسلم ، اذ حشدوا لها كل ما يملكون من العدد والعدة ولكنهم كانوا
مع ذلك كله كأنما تعنيهم الآية « ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا
عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبون والذين كفروا
الى جهنم يحشرون » . . . ولقد كان أبو لهب الذى فضحه الله فى السورة
التي تلغنه وتهتك عرضة ، من الذين استأجروا من يتوب عنهم فى
الخروج الى قتال المسلمين ، فلما انتهى اليه نبأ هزيمة دولة الباطل ،
وجيش الشرك ، وأصحاب دعوة الشيطان ، دارت به الأرض القضاة ،
وأصابه مرض حاد لم يمهله سوى أيام معدودات مات بعدها حزنا لما لحق
به وبقومه من الزحف الجديد الذى لم يستطع أن يصده أو يرده ، ولم
يكن هو وحده الذى وقع عليه نبأ الانتصار كالصاعقة ، فان كثيرا منهم
كان يقول اذا كانت هذه الحرب قد أكلت صناده قريش أمثال فلان وفلان
ممن برزت عدواتهم لمحمد والكيد له « فان بطن الأرض خير من ظهرها » .

ويقول الدكتور هيكل « هذه غزوة بدر التي استقر بها الأمر
للمسلمين من بعد فى بلاد العرب جميعا ، والتي كانت مقدمة وحدة شبه
الجزيرة فى ظل الاسلام ، ومقدمة الامبراطورية الاسلامية المترامية
الأطراف ، والتي أقرت فى العالم حضارة ما تزال ولن تزال ذات أثر
عميق فى حياته . . ولقد تعجب اذ تعلم أن محمدا على ما كان عليه من
تحريضه أصحابه ، وما كان يرجو من استئصال عدو الله وعدوه ، قد

طلب إلى المسلمين منذ اللحظة الأولى من المعركة ألا يقتلوا أحدا من بنى هاشم ، وألا يقتلوا بعض رجال من سادت قريش . مع أنهم اشتبكوا في قتال المسلمين ، ومع أنهم كانوا سيقتلون من المسلمين من يستطيعون قتله . . . ولا تحسب أنه في ذلك أراد أن يحابي أهله أو أحدا ممن يمتون له بصلة القربى ، فنفس محمد أسمى من أن تتأثر بمثل هذا ، وإنما ذكر لبنى هاشم منهم إياه مدى ثلاثة عشر عاما من يوم مبعثه إلى هجرته ، حتى كان عمه العباس معه ليلة العقبة ، وذكر لغير بنى هاشم من قريش من قاموا وهم على الكفر يطالبون بنقض الصحيفة التي اضطرت به قريش أن يلزم هو وأصحابه الشعب وأن تقطع بهم كل صلة ، فهذا المعروف الذي تقدم به هؤلاء وأولئك قد اعتبره محمد حسنة يجزى من قدمها بمثلها . ولذلك كان شفيعا لهؤلاء وأولئك عند القتال ، وإن أبى بعض هؤلاء القرشيين أن يستظلوا بهذا الغفو على نحو ما فعل أبو البختری الذين كان لهم دور بارز في نقض الصحيفة « . . . والواقع أن هذه الصورة البشرية الانسانية التي بدت من النبي صلى الله عليه وسلم كانت مذهلة ، لأنه إن كان أراد أن يحتفظ لهؤلاء بأيادهم السابقة . فإن هذا الاحتفاظ بالتقديم لا معنى له مع هذا الموقف الحاضر ، وقد جازا لقتله وقتل أصحابه معه ، وإن كانت وشيجة القربى هي التي تشده إليها . فإن هذه مواقف تقطع الأواصر ، وتلغي الروابط ، ولا يستطيع أحد أن يفسر ذلك إلا بأنه معنى آخر غير القرابة ، و غير الاحتفاظ بالأيادي السابقة ، هذا المعنى الآخر الذي يتناسب مع رسول الانسانية محمد صلى الله عليه وسلم أنه كان يقض مضجعه ، ويتعب خاطره ، أن تراق قطرة من الدم ، أو تقطع الحياة على إنسان ، وكان ميله إلى السلم ، ورغبته في الهدوء والاطمئنان ، هو كل ما يرجو أن يكون ، وإن الحروب التي خاض غمارها لم تكن نابعة من رغبة في الشر ، وميل إلى القتل ، وحب للهلك والفتك ، إنما كانت بعد دره لها . وعمل على تلافي أسبابها ، وسد الطرق الموصلة إليها ، فلما لم يفلح شيء من ذلك قبلها على الرغم منه ليدفع بها سرا مبيتا ، أو خطرا مدبرا ، أو عدوانا كن يراد من ورائه أن تموت كلمة الحق ، أو يسكت صوت العنل ، أو تسود دولة الباطل . .

غنائم الحرب

لم يكن خروج النبي صلى الله عليه وسلم الى بدر بهذه القلة القليلة من أصحابه يعنى أنه يتهياً لحرب أو يقصد الى لقاء عدو قد انعدم التكافؤ بينه وبينه فى العدد والعدة ، وإنما كان مناوشة كالذى تعود من قبل مع أهل مكة على غرار ما كانت سرية عبد الله بن جحش وغيره من الذين كانوا يقومون بقطع الطريق وإشاعة الهلع والخوف فيه . لتتيقظ قريش الى أنها كان عليها أن تفكر فى توفير الأمن لقوافلها التى تغدو وتروح بتجاريتها من مكة الى الشام ، أو من الشام الى مكة . ولهذا كان الانتصار عندهم أمراً غير مترقب أو شيئاً غير منظور ، وإلى جانب كونه مباغته سارة - هكذا - فقله كانت معه غنائم سلبوها من أعدائهم ، وأسلاب اغتصبوها من خصومهم ، وفى هذه النشوة التى أصابتهم من جراء هذا الانتصار لم يكن يدور بخلدهم أن معارك أخرى تنتظرهم ، ومجابهة لخصومهم سوف تكون لا محالة . وفى الطريق الى المدينة وهم منصرفون من المعركة كان الذى يعينهم ، ويستولى على تفكيرهم هو هذه الغنائم التى جعلها الله فى قبضة أيديهم . ومن يكون صاحب النصيب الأوفر منها . ولم يكن هنالك مبدأ مقرر ، ولا تشريع متبع ، ولا عرف معمول به ، يمكن أن يكون فيصلاً فى ذلك ، وكان المسلمون فى هذه الحرب طوائف ثلاث . جماعة المطاردة التى كانت تلاحق العدو وهو لائذ بالفرار حتى لا يتغفلها ويعود للكر عليها ، والتمكن منها . وجماعة المقاتلين الذين وقفوا فى الميدان وجرعوا العدو كأس الهزيمة ، وكانوا يصارعون الموت ، ويتلقون الضربات من هنا وهناك . ثم الجماعة التى كانت على رأس النبي صلى الله عليه وسلم تصد عنه العدوان ، وتدفع عنه ما عسى أن يناله من خصومه الذين كان هدفهم الأكبر أن يظفروا به ، فأى هذه الطوائف يأخذها وحده أو يعود منها بنصيب الأسد ، قامت هذه الشبهة

برأس المسلمين وزعم كل فريق أنه صاحب الحق الذي لا ينازعه فيه أحد ، ولما كان هذا الخلاف يشتد ، ويصبح وحده علة العلل . كان لابد أن يحسمه الله بينهم ، وهنالك نزل قوله جل جلاله « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله ان كنتم مؤمنين » ليفهم المسلمون أن المقصد الأول والأخير هو اعلان صوت الحق ، ورفع راية التوحيد . وتمكين دعوة الاسلام . ثم تبع ذلك فيما بعد بيان توزيعها على أربابها الذين يستحقون لها ، ويأخذون منها « واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسة وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ان كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كل شيء قدير » فكان عليهم أن يجعلوا الخمس لهذه الجهات التي حددتها الآية الكريمة . ثم يوزع الباقي بعد هذا الخمس كما يرى القائل العمام للنجيش . . . وقد كان التوزيع على هذا النحو للرجال نصف ما يأخذه الفارس . وللورثة خمسة شهيدهم . . . وكذلك لاحظ التوزيع من أسهم في المعركة دون أن يحضرها . . . ومن كلف بأمر خاص بعيدا عن ميدانها . . . أما الأسرى فان خالهم كان موزعا بين الفداء الذي كان يتراوح بين الألف الى عشرة آلاف درهم أو الترك كل الترك اذا كان الأسير لا يملك ما يفدى نفسه به « فاما منا بعد واما فداء » وربما كان فداؤه أن يعلم عشرة من أبناء المسلمين القراءة والكتابة ، ولم يكن هذا الرأي في الأسرى هو الفكرة الأولى ، فان النبي صلى الله عليه وسلم حينما عرض الرأي بادي ذي بدء على أصحابه كان رأى عمر القتل والابادة ليكون في هذا الصنيع الردع والزجر . . . وكان من رأى أبى بكر الفداء لما بينهم وبين المسلمين من الرحم والقربة . . . وقد كان رأى الذي انتهى اليه الرسول صلى الله عليه وسلم هو الحد الوسط . . . وقد أخذ المسلمون الفداء ممن استطاعه . وتركوا من لم يقدر عليه ولم يستطعه . وفي بعض الأحيان كانوا شفاء لغلبهم . وذهابا لغيبهم ، يرون أنه لا بد من القتل . فيقرهم النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ولا يعارض فيه . . . وقد أخذ عمر بن الخطاب رضى الله عنه بوثائق العباس بن عبد المطلب وشهد عليه فظل العباس يشن ليلة كاملة فتألم الرسول له أشد الألم ، فبلغ ذلك الانتصار فعملوا على حل وثيقة من غير فدية فابى رسول الله صلى الله عليه وسلم الا أن يسوى بينه وبين غيره من الأسرى ، وقال له أفه نفسك وابنى أخيك - عقيل ونوفل فاشتكى اليه الحاجة وأنه لا يجد ما يدفعه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ادفع من الذي تركته لأم الفضل عند خروجك من مكة ، فقال له ومن أخبرك به ، قال أخبرني الله ، فقال أشهد أنك رسول الله ، ودفع عن نفسه مائة أوقية وعن كل واحد من ولدى أخيه ثمانين ،

وجرى في خاطر العباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم أرحقه بهذا الذي دفعه فأنزل الله في شأنه « يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم » فسر بذلك العباس ولم يعد بعد ذلك الا جنديا مخلصا من جنود الاسلام يدافع عنه ، وينادى به ، ويرغب فيه ، ويبذل له ، ويقف الى جانب رسوله وقوف المؤمن الصادق الذي جرى الدين في لحمه ودمه ، وخالط روحه ، وامتزج به ، ومن طريف ما يروى في أخبار بدر أن أول من قدم مكة - قبل أن تتراعى اليهم أنباء المعركة - كان هو الحسينان الخزاعي ، فلما سألوهم عن أنبائهم وأخبرهم أن الهزيمة حلت بهم ، وأن من القتلى فلان وفلان استعظموا أن يحدث ذلك ، وكادوا ينكروا عليه كل الإنكار وكان أدهى من ذلك أن سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب حينما أخذ يهون عليهم من شأن هذه الهزيمة ويقص عليهم أن رجلا بيضا علي خيل بلق كانت تقاثل في جيش محمد لا يقوم لها شيء . وكان أبر رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع الى هذه القصة فقال هي والله الملائكة ، الا أن هذا القول من أبي رافع لم يرق في نظر أبي لهب فأخذ يتلايبه وطرحه على الأرض وبرك فوقه يريد أن يقتله ، فقامت اليه أم الفضل زوجة العباس بن عبد المطلب وأمسكت بعمود وانهارت عليه تضربه ضربا مبرحا شجعت به وجهه فلم يعش بعدها غير سبع ليال ، وقد تركه ولده - معتب وعتبة - ميتا حتى اتفن فحفروا له حفرة واروه بها دون أن يعلم بذلك أحد وقد كانت هذه الحادثة صورة من صور البلبلة النفسية التي أصابت أهل مكة فجعلتهم يخرجون عن طورهم ، ويتجاوزون حدودهم ، وربما كان شبيها بها ، أو قريبا منها ، ما حصل من عمير بن وهب مع صفوان بن أمية في الحجر - بالكعبة - وكان وهب بن عمير له ولد في الأسرى ، وقد أخذوا يبدوا أسفهما لما حل بقريش من الهزيمة وما أصابها من فقد رجالاتها ، وموت صناديدها ، وقال صفوان والله ما في العيش خير . وهناك رد عليه عمير وقال له صدقت . . . والله لولا ديني وعيالي لركبت الى محمد لأقتله ، فقال صفوان على كل ذلك . . . عليك أن تذهب الى محمد لأقتله . . . قال عمير أفعل ثم انطلق الى المدينة فرآه عمر فأخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . . . فقال له أدخله علي ، فلما دخل عليه . . . قال له ما الذي جاء بك يا عمير . . . قال جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم . . . قال له فما بال السيف الذي في عنقك . . . قال قبحها الله من سيوف وهل أغنت عنا شيئا . . . ثم قال له النبي صلى الله عليه وسلم انك لم تجيء لهذا يا عمير ، ولكنك قلت كذا وكذا ورد عليك صفوان بن أمية بكذا وكذا ، قال عمير أشهد أنك رسول الله حقا وصدقا . . . وعاد عمير الى مكة وكان من خير الداعين الى الله وأسلمه باسلامه خلق كثير .

وحصل هذا في مكة معسكر الكفر . ومعقل الشرك ، ومكان تجمع خصومه ، فهل كانت المدينة ، وهي منطلق الدعوة ، ومركز القيادة ، ومكان تكتل أنصاره صورة أخرى . . بعث النبي صلى الله عليه وسلم الى المدينة رجلين يسبقان مقدمة اليها ليبشرا المسلمين بما آفاه الله عليهم من نصر ، وما منحهم اياه من عزة ، وما آزرهم به من قوة ، ليكون ذلك أمدى الى أن ترتفع رؤوسهم ، ويستقر وجودهم . هذان الرجلان هما زيد بن حارثة الذي كان يركب القصواء ناقة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وعبد الله بن رواحة ، وقد سر المسلمون لهذا النصر وخرجوا من دورهم يهللون ويتهجون . لكن المنافقين واليهود وهم الذين وقع عليهم نأ هذا الانتصار موقعا شديدا شككوا الناس في الخير وزعزعوا ايمانهم به وقالوا لو كان ذلك صحيحا ما رجعت القصواء من غير صاحبها . . وتدل كتب السيرة على كل حال على أن معسكر الكفر في مكة ، وكذلك معسكر النفاق في المدينة ، قد تحول كله الى جبهة حامية الوطيس لا حديث لها الا في الثأر وتآديب محمد وأصحابه ولهذا فقد اجتمعوا في دار الندوة ليقرروا من جديد ما يمكن أن يواجهوا به الموقف الجديد الناجم عن هذا الانتصار الذي أحرزه المسلمون . . وكانت الخطوة الأولى هي التنازل عن أرباح القافلة التي كان يقودها أبو سفيان بالتجارة من الشام والتي كانت هي السبب المباشر في غزوة بدر . . وقد أخذوا يتصلون بحلفائهم من الأحابيش ليضمنوا دخولهم معهم لقتال محمد وأصحابه . . وقد كانوا مطمئنين الى أن اليهود في جانبهم لا يتخلون عنهم ولا يتركونهم ، وفاتهم مع ذلك أن حالهم مع محمد قد تغيرت وأنه لم يعد رائد جماعة ، أو قائد طائفة ، ولا رئيس قوم يعدونهم على الأصابع . . وإنما هو سيد دولة متماسكة البنيان ، قد عاهدوه لو خاض البحر لخاضوه معه . لا يسألونه لماذا ولا ما هو السبب ولا ما هي العلة التي تحملنا على ذلك . وأنه سيفتح بهم مغاليق الأرض ، ومن الحق الوقوف في وجوههم ، أو التصدي لهم ، وقد نذروا نفوسهم لله .

حديث أحد

كان ما أصاب المشركين في بدر حافزا قويا لأن تتجمع قلوبهم . وتتلاقى أهواؤهم ، ويبدلوا كل ما يملكونه ليتعادل ميزان القوى . ورد الاعتبار الذي كان لهم من قبل ، وكان أول شيء تناولوه بالتفكير أن تباع العير التي كان يسوقها أبو سفيان بالتجارة من الشام ، والتي كانت الشراة الأولى في غزوة بدر ، ثم يجعل ثمنها في تجهيز جيش جوار للقضاء على شوكة المسلمين ، ووقف زحفهم على طريق التجارة ، والحد من محاولاتهم النيل من أهل مكة ، أو العدوان عليهم ، وبخاصة بعد هذا الذي حصل لساداتهم . وكبار القادة منهم ، الذين عرفوا فيما بعد بأهل القليب ، والذين يمكن أن يكون قتلهم اغراء لمحمد وأصحابه بغزو مكة نفسها ، أو تطهيرها من أشرافها وأرباب البيوتات فيها . ولم يمض شهر واحد حتى كان أبو سفيان قد اتصل بحلفاء قريش في كل جهة ليعدوا أنفسهم للقاء محمد والقضاء عليه ، وعلى من يقفون الى جانبه من المؤمنين بدعوته . المتفانين في السير على دربه ، وساعده على هذا الاستبسال والمضى الجاد فيما يدعو اليه من تكوين جبهة قوية للخروج الى القتال أن ظهر على المسرح العنصر النسائي من أمثال هند بنت عتبة بن الوليد وغيرها من زوجات وأخوات كبار الرؤوس، فيهم . . وكانت هند بالذات من العوامل القوية في اذكاء الحماسة ، واشعال نيران الحمية والغيرة ، وكان من ضحاياها في بدر أبوها وعمها وأخوها ، فهي موتورة من غير شك . ومن حقها أن تجزع وتفزع . وأن تحزن وتبكي . وأن تبحث عما يشفى غليلها ، ويسكن لوعتها ، وكذلك كان جبير بن مطعم بن عدى قد فقد عمه طعيمة بن عدى . . وكان الغلام الحبشى وحشى قد اشتهر بالاقدام والجرأة ، وأنه لا يخطئ مقتل فريسته ، واتفقت هند وجبير ابن مطعم مع وحشى هذا على أن يغتال لهما الحمزة بن عبد المطلب ومناه

كل منهما بجزء مفر اذا هو حقق لهما هذه الأمنية ، ونفذ لهما تلك الرغبة ، وكان الاتفاق على الحمزة بالذات لأنه حبيب الى النبي صلى الله عليه وسلم وموته ايلام له ، وتنغيص لصفوه . . . وكان العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم بمكة يرسل الى ابن أخيه أنباء تحركات قريش خطوة خطوة لا يخفى عليه من أمرها شيئاً ، حتى لا يؤخذ على غرة ، أو يفاجأ بما لم يكن في خلدته وحسابه من قبل . وقد عرض الرسول الأمر على أصحابه ولم يشأ أن ينفرد بالرأى من دونهم ، ولكنه أراد أن يشرکہم في الخطة التي يآخذ بها . والأسلوب الذي يسلكه ، ويسير عليه ويقف به الموقف الذي يتناسب مع تلك المواجهة التي يدبرها له أبو سفيان مع معسكر المشركين في مكة وغيرها . من رؤساء الكفر . وطواغيت الجهل . للنيل من تلك الدعوة التي يحمل رايتها هو وأصحابه . . . وكان كثير من كبار الرجال من أصحابه صلى الله عليه وسلم قد رأوا أن الخطة المثلثي التي يمكن أن يواجهوا بها هذا الغزو المترقب ، أو الزحف المنتظر هي التحصن بالمنازل والبيوت في المدينة . حتى اذا جاء الجيش الزاحف بقيادة أبي سفيان وغيره ووجه في المدينة من الصبيان والنساء والرجال من داخل المنازل وأسطح البيوت ومن الشوارع بما يشبه حرب العصابات ، وتزعم هذا الرأى رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ولاقى رأيه هذا قبولا وارتياحاً عند المحنكين من ذوى الأستنان الذين لم يكن في عقيدتهم ريب ولا شك الا أن جماعة ممن فاتهم شرف الاشتراك في بدر من الشبان والمطلعين الى الاستشهاد ألحوا في الخروج وملاقاة العدو بعيداً عن المدينة ، حتى جاء بعضهم الى النبي صلى الله عليه وسلم وقال له يا رسول الله ان ابنى أصابته القرعة فيخرج في بدر وكان من الشهداء في جوار الأنبياء والصديقين . . . وقد رأيت في النوم ينعم في الجنة ، وكان مما أوصاني به أن أسارع في اللحاق به لأكون معه في الجنة . « وان الدار الآخرة لى الحيوان » وأنا أرجو يا رسول الله أن أموت في سبيل الله لألحق به في الجنة . . . وكانت فكرة الخروج وملاقاة العدو هي الفكرة التي انتهى اليها رأى الأغلبية العظمى . فلم يسع الرسول صلى الله عليه وسلم الا أن ينزل على هذا الرأى غير متحول عنه ، وما هو الا أن دخل بيته وليس لامته استعداداً لخوض المعركة المقبلة ، ثم خرج الى قومه ليعلن اليهم أنه جاد في أمره ، حتى استقبله بعض أصحاب هذا الرأى بما يفيد الرجوع عنه ، قائلين له اخلع لامتك فاننا سنبقى في داخل المدينة نرمى عدونا من أسطح المنازل وداخل البيوت . . . وقد ظنوا أنهم بهذا يبالغون في مرضاته بالرجوع الى الرأى الذي كان مستريحاً اليه أولاً ، ولكنهم فوجئوا منه بالامتناع والغضب وقوله لهم « ما ينبغي للنبي أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه » انظروا ما أمركم

به فاتبعوه ، والنصر لكم ما صبرتم » ثم عقد الألوية فأعطى لواء المهاجرين لمصعب بن عمير . ولواء الخزرج للخباب بن المنذر ، ولواء الأوس لاسيد ابن حضير ، وخرج من المدينة بألف رجل فلما وصلوا راسي الثنية نظر صلى الله عليه وسلم الى كتيبة مقبله فسانعها فقبل له هؤلاء خلفاء عبد الله بن أبي من اليهود فرددهم وقال انهم لا يستعين بكافر على مشرك ، واستعمل على حرس الجيش محمد بن مسلمة . . . وعلى حرسه الخاص ذكوان بن قيس ، وسار حتى اذا كان بالشوط بين أحد والمدينة رجح عبد الله بن أبي بثلاثمائة من أهله احتجاجا على أنه صلى الله عليه وسلم لم يأخذ برأيه وأخذ برأى الأحداث . . . وقد أحدث رجوعه هذا بلبلة في صفوف المسلمين فهمت طائفتان من المسلمين أن تفعل ما فعل فعصمها الله وعادتهما صوابهما بعد ذلك ، وسار الجيش بعد ذلك حتى نزل الشعب من أحد ، وجعل ظهره للجبل ، ووجهه الى المدينة ، وكان على ميمنة جيش المشركين خالد بن الوليد ، وعلى ميسرته عكرمة بن أبي جهل ، وعلى المشاة صفوان بن أمية . . . فجعل عليه السلام الزبير بن العوام بازاء خاله ، وجعل آخرين أمام الباقين . واستحضر الرماة وكانوا خمسين رجلا يرأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري وجعلهم خلف الجيش على ظهر الجبل وأوصاهم ألا يبرحوا أماكنهم ولولاخ النصر للمسلمين ، وابتدأ القتال بالمبارزة ثم الالتحام بعد ذلك ، وقد كان الهجوم العنيف من المسلمين سببا في أن يولى المشركون الأدبار تاركين وراءهم أسلحتهم وغنائمهم وهنا بدأ الرماة يجمعون الأسلاب وهم مطمئنون الى أن عدوهم لا يمكن أن يعيبد اليهم . وأن ظهورهم لا تزال معصية باخوانهم الذين جعلوهم فوق الجبل ولكنهم أخطأوا الظن ، فان القوضى التي لحقت بهم حين جعلوا الغنائم هي الهدف لحقت بغيرهم كذلك . . . كل ذلك والرسول صلى الله عليه وسلم من وراءهم يدعوه الى الثبات والبقاء في أماكنهم قائلا الى عباد الله الى يافلان الى يافلان أنا رسول الله « انتم مدون بولادناون على أحد والرسول يدعوكم في انحراكم » وانتبهز الشيطان هذه الفرصة فأخذ يملأ قلوب المسلمين بالسب والظنون التي كان منها أن محمدا قد مات ولا معنى لاستمرار الحرب بعد « وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين » وما كان لنفس أن تموت الا بأذن الله كتابا دوجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها وسنجزي الشاكرين وكأى من نبى قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » وعلى كل حال فقد ابتدأت المعركة جامية الوطيس على الرغم عن عدم تعادل القوتين - لولا هذا الخلل الذي حدث - وكان أبو دجانة قد أخذ سيف الرسول صلى الله عليه وسلم وجعل يحصد الرؤوس . وهو رجل

قد اشتهر بالشجاعة والاقدام . والجرأة والفروسية ، وكان هو وحمزة
يمثلان في جيش المسلمين القوة التي لا تقهر . ولا يستطيع أحد أن
يردهما ، أو أن يقف في طريقهما وإذا كانت الانتصارات والهزائم
في الحروب تتوقف على النظام والطاعة . والايمان والعقيدة ، وأن شيئا
واحدا من هذه قد يكون سببا قويا في نهاية محدودة أو غير محدودة فإن
النبي صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا ينطق عن الهوى ، قد رسم
للمسلمين وهو لا يشك في صدق ايمانهم الدستور الصحيح للنظام
والطاعة ، وهو يعلم مدى الفائدة التي تنجم عنهما . وفي هذه الكلمات
البسيطة التي يخاطب بها الرماة - الحمسين - ما يدل على مقدار بصره
الدقيق بالتكتيك الحربي الذي لا يعرفه الا كبار القواد والساسة . فان
الهزيمة لم تحل بالمسلمين في أحد الا بسبب هذه المخالفة ، حيث بدت
بواد النصر فترك هؤلاء وهؤلاء أمكنتهم وسارعوا الى جمع الغنائم وانتهابها،
وكان كشف هذه الثغرة تنهيذا لالتفاف جناح جيش العدو بقيادة خالد
ابن الوليد حول المسلمين واعمال السيف فيهم بعد أن انضم اليهم الفارون
من أهل مكة ، وبذلك أصبح جيش محمد صلى الله عليه وسلم هدفا ميسورا
للمشركين ينالون منه ، ويقبضون على ناصيته ، وبفرار المسلمين ، وانطلاق
الصوت المغرض « ان محمدا قد مات » كان جيش المسلمين على الحال التي
تدعو الى الرثاء والأسف . اذ كان كبار المسلمين من أمثال أبي بكر وعمر
وعلى قد نفضوا أيديهم من نصر الله لهم . ولم يكن لهم تفكير الا في النجاة
من الموت أو الأسر ومن خلال تلك السحابة الدكناء التي اشتبه فيها
الحق والباطل تبين « كعب بن مالك » وجه محمد صلى الله عليه وسلم .
فنادى بأعلى صوته « يامعشر المسلمين أبشروا هذا رسول الله بيننا »
فأشار اليه الرسول صلى الله عليه وسلم أن اسكت . لكن المسلمين لم
يلبثوا أن تبينوا حقيقة الأمر . ففرحوا به ، والتفوا حوله ، ووقفوا الى
جانبه يدافعون عنه ، ومن حوله أبو بكر وعمر وعلي والزبير بن العوام ،
ورحط كثير غيرهم ، وكان أبو دجاجة الترس الواقى الذي وقف الى جانبه
صلى الله عليه وسلم يتلقى عنه الرميات ، ويصد الهجوم . وقد تقدم اليه
أبى بن خلف يريد قتله ، مطمئنا الى أنه سيصيبه قائلا لا نجوت أن نجا
محمد . وقد أراد بعض المسلمين أن ينحيه فأشار النبي عليه أن يتركه
وهناك ضربه ضربة ظل يشخب منها الى أن مات على فرسه وهو في
الطريق الى مكة . .

وانجلت هذه المعركة عن شدائد عاناها الرسول صلى الله عليه وسلم
واصابات بالغة لقيها ، وطارت قریش بنصرها سرورا وفرحا ، حتى
قال أبو سفيان « يوم بيوم بدر وموعدا العام المقبل » وكان قد وقر
في ذهن أبى سفيان أن النبي صلى الله عليه وسلم في القتلى هو وأبو بكر

وعمر وعلى وكبار الصحابة . فلما تبين له أنهم لا يزالون على قيد الحياة
 حزن حزنا شديدا وأيقن أن الشر لا يزال يلاحقه ، والمصائب ستواتيه ،
 وأنه مقبل على أيام سود لا يساوى هذا النصر الى جانبها شيئا . . .
 ولما خلا الميدان من المشركين ، وأخذ المسلمون طريقهم الى المدينة خرج
 النبي صلى الله عليه وسلم الى ساحة المعركة ليتفقد قتلاه ليأمر بدفنهم ،
 وهناك راعه أن عمه الحمزة في القتلى وقد مثل به لأن همد كانت قد
 طلبت من وحشى أن يأتيها بكبده لتلوكمها . فلما رأى صلى الله عليه وسلم
 ما رأى غضب وأقسم لئن أظهرني الله عليهم لأمثن بثلاثين رجلا منهم .
 فأنزل الله جل وعلا عليه « وان عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به ولئن
 صبرتم لهو خير للصابرين واصبر وما صبرك الا بالله ولا تحزن عليهم
 ولاتك في ضيق مما يمكرون » فهدأ جأشه ، وسكن روعه ، واطمأن
 خاطره ، وقال أصبر واحتسب ولم يبالغ النبي صلى الله عليه وسلم في
 تعنيف المسلمين وتقريعهم لما حدث منهم من مخالفة كان من أثرها
 ما كان ، وانما ترك ذلك لضمايرهم ، وكأنما أراد أن تعلمهم الحوادث .
 وتؤدبهم المواعظ ، حتى لا تتكرر تلك المأساة ، أو تتجدد تلك المخازي
 والعدو يتربص بهم الدوائر ، في كل مبارزة يتاح لهم أن يلتقوا به فيها
 ولذلك فانه لم يعرف عن المسلمين أن تكررت لهم هذه المأساة فيما بعد ،
 وربما كان من أحسن العظات التي أخذها المسلمون من هذه الهزيمة ،
 وبخاصة بعد شماتة المنافقين واليهود بهم اطمئنانهم الى أن الأيام دول .
 وأنه ليس من الحتم لصاحب الحق أن يكون النصر حليفه دائما أبدا .
 والحق تحميه العقيدة أكثر مما تحميه القوة ، وأن القوة ليست في كثرة
 العدد ، ولا في وفرة السلاح ، وانما هي في اتحاد الرأي ، واتحاد
 الصف . واتحاد الغاية والانقياد الأعمى للقائد . والالتزام بما اجتمعت
 عليه الكلمة . وهذا هو السر في أن النظم الحربية دائما أبدا تمجد
 الطاعة الصمياء ، وما يسمى بالتسليم المطلق . ولا سيما في الميدان وحينما
 تدور المعركة ، وربما استساغوا المناقشة للأوامر أو الاعتراض عليها في
 بعض الأحيان لكن ذلك انما يكون قبل المعركة ، أما بعدها فلا يجوز بحال
 من الأحوال . وعلى هذا فاننا نستطيع أن نقول ان المسلمين لم يلتزموا
 أوامر القائد الأعلى . ولم يحملوها على القداسة والاحترام ، ولهذا أصابهم
 ما أصابهم نتيجة المخالفة التي يتحتم على الجندي ألا يرتكبها أو تحدثه
 نفسه بها . . .

قاتل حمزة

كان خروج المشركين الى اخسد مسجوقا بخوافز كثيرة ، وتصميم أكيد . واستعداد تام لتسليح العار الذي لحق بهم من جراء الهزيمة التي خلت بهم بعد بدر ، ولذلك فانهم تاهبوا لها بكل ما يمكن أن يتاهبوا به من عتاد ومال ورجال ولم يكن ذلك قاصرا على الرجال وحدهم . وانما شاركت المرأة الرجل ، وكان الصراع بينها وبينه قويا على هذا الخروج ، فالرجال يرون أن الميدان لهم ، والحرب تبعة يتحملونها . ومن العيب أن تحمل المرأة السلاح الا اذا فنى الرجال ولم يبق من يذود عن العرض ، ويأخذ بالثار ، ويدب عن الحمى ، ويدافع عن الحریم والمرأة تريد أن تشفى غليلها ، وتثار لقتلاها ، وترى مصارع أعدائها ، وبعد صراع فى الراى . ومحاولة استعملت المرأة فيها أسلوبها الخداع . وهواطفها المشبوبة ، وفؤادها الملتاع . خرجت هند بنت عتبة ، ومعها عدد من النساء لا يقل عن خمس عشرة . وخملن معهن صنما على جمل ليبارك نواياهن ، ويجعل التوفيق مقترنا بسعيهن . ويكون النصر لهن على العدو . وكان هؤلاء النسوة ومعهن هند يرددن الأناشيد الخماسية التى تلهب فى قلوب الرجال نيران الاستبسال والاقدام والشجاعة والفداء ، حتى لا يتردد أحد فى اقدامه وكره . واغاراته على العدو اغارة تزلزل كيانه واذا كان لكل واحدة منهن ثار تطلبه ، فان هند وحدها كان لها أكثر من ثار ، لأنها كانت تندب أباه وأخاها وعمها ، ولهذا كانت أكثر النساء الحاحا فى الخروج الى المعركة . مع العلم بأنها لم تكن من السوق ، ولا النساء اللائى ينطلق عليهن التبذل ، والاختلاط بالرجال فى ميدان كروفر الا أن المصائب لا قانون لها . ولا يمكن لدستور أن يتحكم فيها ، أو يوجه خط سيرها . لذلك كان خروج من خرج منهن الى ميدان المعركة فى

أحد خارجاً عن القانون ، مغائراً للمألوف الذي تعارف الناس عليه .
وقد ساعد هـند الى جانب مصابها الفادح أن تيسر لها أن تضع يدها على
فتى مفتول الذراعين ، حديد النظر ، جرى القلب ، غير هيب ولا جبان ،
طمعت أن تغريه بالمال ليأخذ بالثأر الذي يشقى غليلها ، ويروى ظمأها ،
ويمسح دموعها ، ويريح نفسها ، وكان ذلك الفتى هو الغلام الحبشى
« وحشى » عبد جبير بن مطعم بن عدى . وهو فارس لا تخطيء ضربته ،
ولا يخيب قصده ، ولا ينبو سيفه ، ولا ينجو منه طالبه ، وقد اطمأنت
كل الاطمئنان لأنه وعداها أن يشقى غليلها . ويقتل عدوها اللدود حمزة
ابن عبد المطلب ، وكان وحشى هذا قد وعده كذلك سيده جبير بن معيطم
أن يعتقه ان هو قتل حمزة ، وعلى هذا فان وحشيا الحبشى يهزه الى
الحرب ويفريه بقتل حمزة عاملان قويان ، المال الذى وعدت به هند ،
والعتق الذى وعده به سيده .

لكننا قبل أن يأخذ حديثنا عن وحشى نهايته نقف وقوفاً قصيراً عند
حمزة الذى تحاك له هذه المؤامرات كلها لنرى هل كان يستحق من
خصومه كل هذا الاهتمام . وتلك العناية . وفى الحق أنه لم يكن مجرد
إنسان فى صفوف محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنما هو عمه أولاً وقبل
كل شيء يغار على دينه . ويدافع عنه ، ويحارب خصومه ، ويرد عنه كيد
عدوه . وهو الى جانب هذا من أصحاب القلوب النقية . التى كانت
تحيطه بالود . وتخصه بالرعاية والعناية ، وكان منذ نشأته ملازماً
للرسول صلى الله عليه وسلم لا يفارقه الا على نية أن يعود اليه ، وكان
مع هذا من الفرسان المغاوير الذين تهتز لموتهم الجبهة الاسلامية كلها ،
ويحدث خلوها منه اهتزازاً يتصدع له جدار الدعوة ، والتركيز على اخفاء
وجهه من الميدان الى جانب كونه ايلاماً بالغاً لمحمد ثغرة واسعة . وفجوة
فسيحة فى الصف الثرى وبخاصة بعد ما تبين بلاؤه فى بدر . وقتله
لرجال قريش الذين كان قتلهم الجرح الذى لا يندمل ، وقد صدق ذلك
فجيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتهديده اذا نصره الله على قريش ،
وأمكنه منهم أن يمثل بثلاثين رجلاً فى مقابل المثلة بحمزة وحده ، وكذلك
جاء فى قصة اسلام وحشى الذى طلب منه الرسول صلى الله عليه وسلم أن
يقص عليه كيف كان قتله لحمزة فلما أنبأه نبأها قال له صلى الله عليه
وسلم هل تستطيع أن توارى وجهك عنى فانى لا أحب أن أراك فى حين
أنه حدثه هذا الحديث بعد أن أسلم والاسلام يجب ما قبله وقد
اتفقت كتب السيرة والتاريخ على هذا الحديث الذى يحكيه وحشى عن قتله
لحمزة اذ سأله النبى صلى الله عليه وسلم . كما سأله غيره كذلك « قال
عبد الله بن عدى سألت أنا وآخر وحشيا ، قلت جئناك لتحدثنا عن قتلك

نيجزة كيف قتلتته . قال وحشى أما انى سأحدثكما كما حدثت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سألتنى عن ذلك . . . كنت غلاما لجبير بن مطعم وكان عمه طعيمة بن عدى قد أصيب يوم بدر . فلما سارت قريش الى أحد . قال لى جبير ان قتلت حمزة عم محمد بعمى فأنت عتيق . فخرجت مع الناس - وكنت عبدا حبشيا أقذف بالحربة قذف الحبشة . قلما أخطئ بها شيئا . فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره ، حتى رأيته فى عرض الناس مثل الجمل الأورق ، يهد الناس بسيفه مسلدا ، ما يقوم له شيء ، فوالله انى لأتهيا له أريده وأستتر بشجرة أو حجر ليدنو منى ، اذ تقدمنى اليه سباع بن عبد العزى . فلما رآه حمزة قال له هلم الى يا بن مقطعة البطور ، فضربه ضربة كأنما أخطأ رأسه ، وهزئت حربتي حتى اذا وضيت منها دفعتها عليه ، وذهب لينوء نجوى فغلب ، وتركته واياها حتى مات ، ثم أتيت فأخذت حربتي ، ثم رجعت الى العسكر فقعدت فيه . ولم يكن لى بغيره حاجة ، وانما قتلتته لأعتق ، فلما قدمت مكة أعتقت ، ثم أقمت حتى اذا افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة هربت الى الطائف فمكثت بها . فلما خرج وفد الطائف الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسلموا تعيت على المذاهب . فقلت الحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد . فوالله انى لفى ذاك من همى اذ قال لى رجل ويحك انه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه ، وتشهد شهادة الحق ، فلما قال لى ذلك خرجت حتى قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، فلم يرعه الا بى قائما على رأسه أتشهد بشهادة الحق فلما رآنى قال أوحشى ؟ قلت نعم يا رسول الله . قال اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة . فحدثته كما حدثتكما . فلما فرغت من حديثى قال ويحك غيب عني وجهك فلا أرينك . فكنت أتتكب رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث كان لثلا يرانى ، حتى قبضه الله ، فلما خرج المسلمون الى مسيلمة الكذاب صاحب اليمامة خرجت معهم ، وأخذت حربتي التى قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة الكذاب قائما فى يده السيف وما أعرفه ، فتهيأت له وتهيا له رجل من الأنصار فضربه بالسيف ، فربك أعلم أينما قتله ، فاذا كنت قتلتته . فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قتلت شر الناس .

ومن هذه القصة يظهر لنا أن الرجل الذى يتمكن الشر من نفسه ، ويتمكن الانحراف من طبعه ، لا يلبث اذا خالطت الهداية قلبه ، أن يكون صلبا فى الحق . مؤمنا به . مستميتا فيه ، مدافعا عنه ، لا يتزحزح الى غير جانبه ، وفى حرص وحشى أن يرضى النبى صلى الله عليه وسلم ، وأن يزيل من نفسه ما كان عالقا بها من الكراهية له - مع كونها كراهية

صورية لا تتعلق بنقص في دينه أو انحراف في عقيدته وانما هي بشرية في النبي صلى الله عليه وسلم لم يستطع أن يكتسبها ، أو يتخلب عليها - دلالة على أن عقيدته راسخة ، وإيمانه ثابت . وربما كان وحشى نفسه أول المؤمنين بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقل له ذلك القول بخس لايمانه ، أو نقصا في دينه ، أو شكاً في عقيدته ، وانما هو التصوير لكامن اللوعة التي كانت في نفسه صلى الله عليه وسلم من أجل فقد عمه الذي كان الى جانبه يدافع عنه وينصره وكان من حوله يملأ فراغ آلاف الرجال . ومثل حمزة بن عبد المطلب تظهر بموته الفجوة الواسعة ، وحزن النبي صلى الله عليه وسلم الى هذا الحد ليس بعجيب ولا غريب . وهذا الموقف الذى وقفه صلى الله عليه وسلم من رجل هو صورة لآلسم عاناه ، أو مصيبة قاساها . أو عدوان وقع عليه ، ليس سوى معنى البشرية التي لم يتجرد عنها ، والتي كان هو نفسه يعلنها في أكثر من مناسبة ، والفرق بين بشريته صلى الله عليه وسلم وبشرية الناس أن بشريته لا تنزل به الى مستوى مردول ، أو معنى حقير ، أما أبناء آدم وبنات حواء فان بشريتهم تنزل بهم الى حيز الاسفاف ، وتعرض للنقد واللوم ، أما هو صلى الله عليه وسلم فان عصمته تصونه عن الصغائر ، وتمنعه من النزول ، وتصوره دائما أبدا في صورة الكمال .

بين أحد والأحزاب

على الرغم من صمود النبي صلى الله عليه وسلم في نهاية معركة أحد والمسلمون قد انفضوا من حوله بعد أن شعروا أن مقاومتهم للعدو ضرب من العبث . ولون من ألوان الانتحار . ليس من العقل الاستمرار فيه . ولا البقاء عليه ، حتى لقد كاد صموده هو أيضا بعد ذلك يكون من هذا القبيل أيضا ، لأنه بعد انفضاض المسلمين وانصرافهم كان يعرض نفسه للموت من غير ثمن ، ويتصدى للهزيمة بدون جدوى . وقد كان الأجدر به وقد حل بالجيش ما حل به أن يهوى نفسه للفرار كما فعل كثير من الصحابة ابقاء على روحه التي لم يكن ليملكها وحده . ولكنها كانت ملكا للبشرية التي يعمل لها . ويكده لانقاذها ، ويعيش ليأخذ بيدها . ويكافح للنهوض بها . وتوجيهها الى مستقبل أفضل ، وحياة أكمل ، وسلوك أمثل . الا أنه أراد أن يضرب المثل للناس على أنه وهو يحمل الرسالة ، أو مسئولية الدعوة الى الله جل وعلا . لا يعنيه أن يكون الى جانبه قوة من الناس تسانده ، وجيش من المحاربين يعاضده ، أم يكون هو وحده . لأنه لا يود أن ينتصر بالسيف . ولا أن يغلب بالقوة . ولا أن يظهر بالبطش . ولا أن يعلو بالعدد والعدة . . . وهو الذي يعتمد على المنطق . ويدعو الى الحق ، ويقود الانسانية الى التي هي اقوم ، ومثله لا يثقل ميزانه أن ينتصر في معركة ، أو يغلب في جولة ، أو يضطر خصمه معه الى أن ينزل على حكم القوة ، أو اعادة التسلط والنفوذ . لأن هذا هو أسلوب المفلسين من الحجة والبرهان . والصواب والحق .

على أن انصراف خصومه عنه مع هذا النصر الساحق الذي أصابوه كان من المعجزات التي أيده الله بها ، والخوارق التي سخرها له ، فلقد

وقفت له قلة قليلة تناوشه ، ونفر ضئيل يحاربه ، فنال منه بعض الذي يحب ، لا كل الذي يحب ، أما بقية الجيش فانها كانت على يقين من أنه قتل ، وليس هنالك بعد الذي كان ما يدعو الى حرب شاملة ، أو معركة حامية ، فلما تبين لهم بعد الانصراف من الميدان أن محمدا لا يزال على قيد الحياة ندموا أشد الندم أنهم لم يتخلصوا منه ، ولم يقضوا عليه القضاء الأخير ، ولذلك كثرت دراستهم لهذا الموقف ، وحطوا رحالهم وهم في طريقهم الى مكة دون أن يترشوا وأجمعوا الرأي على أن يأخذوا طريقهم الى يثرب لتأديب محمد ومن معه بعمل حاسم يحملهم على ألا يفكروا في الوقوف في وجه أهل مكة أثناء مرورهم بالتجارة من الشام أو إليها .

ولم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم يشك في أن الانتصار الذي حصلت عليه قريش ، وبخاصة بعد قول أبي سفيان في نهاية المعركة « يوم بيوم بدر والموعد في بدر أخرى في العام المقبل » سيحملها على التمرد والطغيان والغرور ، وأن ذلك سيسوقها لا محالة الى الطمع في الدخول الى يثرب التي يتحصن بها محمد والمسلمون معه لقطع الطريق على المسارة من مكة أو الى مكة بالتجارة ، ولهذا فانه صلى الله عليه وسلم لم يزد أن يظهر بمظهر المقهور الذي خرج من المعركة مثخنا بالجراح حتى لا يزداد طمع عدوه فيه ، ولكنه أقام في الطريق من غير أن يواصل السير الى المدينة . وظل بحمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة ، وكان أبو سفيان على بعد سبعة وثلاثين ميلا - بالروحاء - وبعد أن لامته قريش على انصرافه دون أن يقضى على محمد وأصحابه القضاء الأخير .

وقد أراد صلى الله عليه وسلم ببقائه على الطريق أياما أن تفهم قريش أنه لا يزال على أتم الاستعداد للقاءهم . لم يدب الوهن اليه ، ولم يتسرب اليأس في نفسه . . . وقد حاولت جماعات متفرقة من المشركين الالتقاء ببعض جماعات من المسلمين كان نصيبها من تلك اللقاءات الفرار والهزيمة . وكان ذلك مضافا الى تنكيل محمد باليهود واشاعة الهلع والفرع في نفوس المنافقين عاملا قويا في أن تعاود قريش واليهود والمنافقون تأليب خصوم الاسلام . واستعراض عضلاتهم جميعا في مباراة جديدة عرفت فيما بعد ذلك بغزوة الاحزاب أو غزوة الخندق .

ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » فلما كان الخد من يوم أحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ، أذن مؤذن النبي في المسلمين يطلب العدو ، واستنفرهم لطارذته على ألا يخرج الا من حضر الغزوة ، وخرج المسلمون فوق في روع أبي سفيان أن أعداءه جاؤا من المدينة بمعد جديد فخاف لقاءهم . وبلغ محمد حمراء الأسد وكان أبو سفيان وأصحابه بالروحاء ، فمر به معبد الخزاعي وكان قد مر بمحمد ومن معه

فسأله عن شأنهم فأجابه محمد وكان لا يزال على الشرك ان محمدا قد خرج في أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله قط ، وقد اجتمع معه من كان قد تخلف عنه ، وكلهم اشد ما يكونون عليكم حنقا ، ومنكم للثأر طلبا » على أن أبا سفيان فكر من جانبه فيما يكون لفراره من محمد ، ومن عدم مواجهته اياه بعد انتصاره عليه من الأثر ، « أفلا تقول العرب في قريش ما كان يود أن تقوله في محمد وأصحابه ؟ ولكن هب رجع الى محمد فهزمه المسلمون اذا ليكون ذلك القضاء الأخير على قريش قضاء لا تقوم لها من بعده قائمة أبدا ، فلجأ الى الحيلة فبعث مع ركب من بنى عبد القيس يقصدون المدينة يبلغون محمدا أنه قد أجمع السير اليه والى أصحابه ليستأصل بقيتهم ، فلما أبلغ الركب الرسالة الى محمد بحمراء الأسد لم يتضعع عزمه ، ولم تهن قوته ، بل ظل في مكانه يوقد النار طيلة الليل ثلاثة أيام متتابعة ، ليدل قريشا أنه على عزمه ، وأنه منتظر رجعتهم ... وأخيرا فترت همة أبي سفيان وقريش وآثروا أن يبقوا على نصرهم بأحد وعادوا أدراجهم ميممين مكة ، ورجع محمد الى المدينة ، وقد استرد كثيرا من مكانته التي تزعزعت على أثر الهزيمة في أحد » .

وفي هذا الموقف الذي وقفه المسلمون مع النبي صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد وغيرها لارهاب العدو وتخويفه نزل قوله جل وعلا ثناء عليهم « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم ايمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو الفضل العظيم » ولم يمض عام واحد على أحد حتى كان الموعد الذي هدد به أبو سفيان أن يلقي المسلمين بدر قد خرج أبو سفيان الى بدر وخرج النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن أكد أنه لا يتخلف عن الخروج ولو أدى ذلك الى أن يخرج وحده ، وكان لهذا التأكيد - أو التهديد - أثره البالغ في حماسة المسلمين واقدامهم ، بعد أن كان فيهم فتور وتردد ، وقد أقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم ثمان ليال ينتظر أبا سفيان لكن أبا سفيان بدا له أن يرجع بحجة أن العام كان مجدبا ، وقال يامعشر قريش انه لا يصلحكم الا عام خصب ، ترعون فيه الشجر ، وتشربون اللبن ، وان عامكم هذا عام جنب فارجعوا ، فرجع الناس ، أما المسلمون فانهم قد اتجروا في سوق بدر وعادوا بربح عظيم لعله هو المقصود من قوله جل جلاله « فانقلبوا بنعمة من الله وفضل » ويقول المؤرخون ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يرجع الى المدينة بعد هذه الرحلة الميمونة التي كانت الى بدر الثانية والتي انتقاه المسلمون بعدها بنعمة من الله وفضل الا وقد صنع من التطهير العام في الطريق ، واشاعة الرعب والغزع في نفوس المتמרدين ، ما لم يكن له

أن يصنعه فى سنوات ، وكان أبرز هذا الذى صنعه هو جلاء بنى النضير
الذين كانوا مراكز تجمع اليهودية . كلها حينئذ ومنهم كانت تندلع
شرارات الفتنة والمؤمرات ، وكان جلاء بنى قينقاع قد سبق ذلك فأحدث
هذان الجلاءان ذعرا وفزعا فى صفوف أعدائه صلى الله عليه وسلم لا نظير
له ، ثم كانت بعد هذه المضربات كلها غزوة الخندق - أو الأحزاب - التى
لم يجن من ورائها المشركون إلا تفكيك أوصالهم ، وضعف قوتهم ، وذهاب
ريحهم ، والقضاء على البقية الباقية من حلفائهم الذين كانوا يعولون عليهم
وهم بنو قريظة ، وبذلك أصبحت قوى الشر التى تقف للدعوة أو تناوى
الرسول صلى الله عليه وسلم عرضة لأن تعصف بها عاصفة يكون فيها
حتفها والقضاء عليها ، وسنرى من مجريات الحوادث فيما بعد أن راية
قريش سوف يعتريها الهبوط والنزول شيئا فشيئا حتى لم يجد حمايتها
والحاملون لها بدا من أن تخضع رقابهم عن طواعية واختيار لمحمد الذى
كانوا يطاردونه ويحاربونه ويبالغون فى الكيد له والصد عن سبيله ، ذلك
لأن الحق له الغلبة والفوز . مهما صارعه الباطل ، أو قاومه الغفغيان ،
أو حاربه الشرك ، ولو أن خصومه صلى الله عليه وسلم حكموا المنطق ،
واعتصموا بالعقل ، وتركوا جانبا سفه الرأى ولجاجة الباطل ، لما حاق
بهم هوان الهزيمة ، لكنه سبحانه أراد أن يكونوا عظة للتاريخ ، وعبرة
للأيام ، وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة ..

غزوة بنى المصطلق

منذ غزوة بدر التي قصم الله بها ظهور المشركين ، وزاد في خذلانهم وخزيهم ، وأعلن بها عن مذلتهم واحتقارهم ، والحقد يأكل نفوسهم ، ويشعل النار في أفئدتهم ، ويقض عليهم مضاجعهم ، فلا يهنا لهم حال ، ولا يصفو لهم عيش ، ولا يقر لهم قرار ، مؤمنين أن حياتهم لاقيسة لها ، مادام محمد والمسلمون معه يرون أن استئصالهم شهادة ، وجهادهم عبادة ، والقضاء عليهم هو الحسنى وزيادة لذلك لم يكن لهم شغل يستنفد أوقاتهم ، ويحرك وجدانهم ، ويملك عليهم شعورهم ، إلا أن يضعوا حدا لهذا الخطر الذي يقف لهم بالمرصاد ، وذلك الشر الذي يتحين الفرصة تلو الفرصة لصيرورتهم تاريخا يرويه الرواة ، وكان تفكيرهم في الحرب وخوض غمراتها لا ينتهي ، والمشركون واليهود والمنافقون على السواء في كراهيتهم له صلى الله عليه وسلم والعمل على أن يؤلفوا جبهة واحدة تواجه ونقضى عليه وتسكت صوته وجاء أن يخلو لهم الجو ، ويصفو لهم الحال ، وتزول من طريقهم تلك العقبات التي طالما اصطدموا بها ، وكانت لهم حجر عثرة ، واليهود الذين كانوا يتطاولون بخصونهم وأموالهم وثرواتهم قضى عليهم صلى الله عليه وسلم ونفاههم عن مواطنهم وأموالهم ، وكانوا يظنون أن أحدا لا يستطيع أن ينال منهم أو يتطاول عليهم ، أو يجدد لهم المصير الذي يراه ، وهم شعب الله المختار ، وأصبح كتاب منزل من عند الله كالقرآن الذي يعتمد عليه محمد ويفاخر به ، ولهذا المصير الذي صابوا إليه وكان عليهم ألا تنام أعينهم ، أو تطمئن جنوبهم ، حتى يتأروا لأنفسهم من محمد وأصحابه ، وهم دائما أبدا يؤلبون المشركين على محمد وأصحابه و يعلنون اليهم أنهم معهم عليه ، لأنه العدو المشترك ، ولا تزيد جريهم له على هذه الوعود التي يبذلونها ، وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب

صورة لهذه التحيزة ، الا أنهم استطاعوا أن يجعلوا المشركين فى أيديهم كلعبة الصبى التى يحركها فى يده كما يشاء ، وطالما هم المشركون بالخروج للمسلمين ورد الله كيدهم فى نحورهم لم ينالوا خيرا وكم هزت النخوة رجالا منهم رجعوا بخفى حنين ، وغزوة بنى المصطلق هذه صورة من هذه الصور المتكررة لا أكثر ولا أقل ، وقد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم أنهم يجمعون جموعهم ، ويدبرون أمورهم ، ثم يعسكرون بالمريسيح على ماء لخزاعة ، لينقضوا عليه هو ومن معه من المسلمين ، وكان ذلك بقيادة زعيمهم وسيدهم الحارث بن أبى ضرار أبو جويرة بنت الحارث التى صارت فيما بعد زوجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما انتهى إلى النبى علم هذا التجمع ، وأخبره المارون من هنالك ، ندب أصحابه للاقائهم ، وقد استجاب اليه خلق كثير حتى المنافقون ، ولما انتهى أمر ذلك الى معسكر الحارث بن أبى ضرار زعيم بنى المصطلق ذهل وترقب لنفسه الخذلان والخزى ، ورجع كثير ممن كانوا معه خوفا على أنفسهم من الموت أو الوقوع أسرى فى أيدي المسلمين ، الا أن ذلك لم يشنه عن الحرب ، أو يقلل من عزمه عليها ، وقد جعل صلى الله عليه وسلم لواء المهاجرين لأبى بكر ، ولواء الأنصار لسعد بن عباد ، ونزل المسلمون قريبا من موقف المشركين الذى كان بالمريسيح ، وأخذوا يتراشقون بالنبال ، وأمر النبى أصحابه أن يحملوا حملة رجل واحد فما أفلت منهم انسان ، وانما وقعوا جميعا فى قبضة أيديهم - رجالا ونساء وأطفالا بعد قتل عشرة منهم .

وكان الأسرى أكثر من سبعماية ، والابل ألفين ، والنساء خمسة آلاف ، ولم يقتل من المسلمين الا رجل واحد على طريق الخطأ حيث ظنه أحد المسلمين من جيش العدو فقتله ويقول الشيخ الخضرى وكان فى نساء المشركين برة بنت الحارث بن أبى ضرار - سيد القوم - وقد أخذ قومها جميعهم أسرى ، وعددهم مايتا بيت وزعت على المسلمين ، وهنا يظهر حسن سياسة النبى صلى الله عليه وسلم ومنتهى كرمه ، فان بنى المصطلق من أعز العرب ، وأسرى نساءهم بهذه الحال صعب لا يهتمون به ، لذلك رأى صلى الله عليه وسلم أن يجعل المسلمين يمتنون عليهم بالجزية ، وكانت برة بنت الحارث بن أبى ضرار - جويرة فيما بعد - من نصيب ثابت بن قيس من الغنائم فكاتبته على نفسها ثم جاءت الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وقالت يا رسول الله أنا جويرة بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومى ، وقد أصابنى من البلاء ما لا يخفى عليك ، فوقع فى سهم ثابت بن قيس فكاتبته على نفسى وجئتك أستعين بك على هذا المال الذى كاتبته عليه على أن يكون ذلك المال مهر زواجى منك ، فقال صلى الله عليه وسلم قد فعلت .

ولما علم المسلمون بهذا الزواج فكوا أسارى الذين كانوا بأيديهم

وقالوا أصهار رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن يكونوا أسرى في أيدينا ، ودخل بنو المصطلق جميعا في الاسلام ، غير أن هذا النصر الباهر لم يخل من تنغيص يحيط به ، وفتن تلاحقه ، وهفوات تأتي بعده ، إذ بينا الناس على هذا الماء الذي كان عنده التراشق والتلاقي ، اختصم غلام لعمر بن الخطاب من بنى غفار مع سنان بن وبر الجهنى جليف بنى عوف من الخزرج ، وتصايح المتخاصمان ، غلام عمر يدعو المهاجرين ، والجهنى يدعو الأنصار ، وكاد الفريقان يقتتلان ، لولا أن ذلك قد بلغ النبى صلى الله عليه وسلم فتداركه بحكمته ، وقال دعوا هذه الكلمة فإنها فتنة ، أما عبد الله بن أبى بن سلول فإنه أراد أن ينتهزها فرصة يجب فيها ويضع لئير الفتنة ، ويوقظ الاحنة ، وينفخ فى الرماد ، فقال ما رأيتم كالיום مذلة ، أو قد فعلوها ، نافرونا فى ديارنا ، والله مانحن مع المهاجرين الا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ، أما والله « لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ثم التفت الى من كان معه ، وقال هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتهم عنهم ما بايدىكم لتحولوا عنكم الى غير دياركم ، ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضا للمنايا دون محمد ، فأيتتم أولادكم ، وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده ٥٠ وكان على مقربة من عبد الله بن أبى شاب مسلم حديث السن قوى الاسلام ، هو زيد بن الأرقم فذهب الى النبى صلى الله عليه وسلم ليخبره بما تقوه به هذا المنافق ، وما أرسله من القول دون ما مبالاة ولا حذر ، فتغير وجهه صلى الله عليه وسلم ، وقال يا غلام لعلك قد غضبت عليه فتقولت قولا لم يحدث ، فقال والله يا رسول الله لقد سمعته ، قال النبى لعله أخطأ سمعك ، وهنا قال عمر يا رسول الله مرنى أو مر أى أحد لقتل هذا المنافق ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ، وكيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ، ثم أمر صلى الله عليه وسلم بالرحيل ، والحر شديد ، والسفر شاق ، ليقطع على الناس أمر الاشتغال بهذه الفتنة والخوض فيها ، وجاء أسيد بن حضير ، وقال له ما الذى دعاك يا رسول الله ، أن ترتحل فى هذا الوقت الشديد الحرارة ، فقال له أو ما بلغك مايقول صاحبكم ، زعم أنه ان رجع الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ، قال أنت والله يا رسول الله تخرجه ان شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، وجاء عبد الله بن عبد الله بن أبى بن سلول وكان مسلما صادق الايمان ليقول للنبى صلى الله عليه وسلم مرنى يا رسول الله أن أقتل أبى حتى لا تأمرنى النفس الامارة بالسوء أن أقتل قاتله ، فأكون قد قتلت مسلما فى كافر ، وأذهب بذلك الى جهنم ، ويرد عليه النبى صلى الله عليه وسلم قائلا

لا تقتله ولا تقتله مادام بيننا ، وينتهي ذلك كله الى ابن أبي عبيد الله الى
النبي صلى الله عليه وآله لينفى عن نفسه ذلك الخبر ، ويخالف بالله العلي
العظيم لم يصدر عنه شيء من ذلك ، وهنا تفضحه سورة المنافقين ، وفيها
قوله سبحانه « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى
ينقضوا ولله خزائن السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون
لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأحرار منها الأذل ولله العزة ولرسوله
واللؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وبهذا كله أحقره قومه ، وأذكراه
أصحابه ، وكانوا لا يستحيون له ، وأطمأنوا الى أنه يمثل رواية
مقبوضة ، تزرى به وتجعله أحقر من لا شيء في العدد .

حديث الافك

كانت غزوة « المريسيع » أو بنى المصطلق إحدى العمليات الحربية التي أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائها أن يثبت لأعدائه من المشركين والمنافقين أن هزيمة أحد لم تثبت في عضده ، ولم تضعف من شوكته ، ولم تهز عوده ، لكن المنافقين الذين أصبحوا يخافون قوته ، ويرهبون بأسه ، لا يزالون يعملون من طريق الإشاعات المفروضة على تشويه سمعته ، وتلفيق الأكاذيب له ، وامتلاء الجو من حوله بالضباب والدخان ، لتكون هذه الحرب النفسية تقويضا لبنائه الضخم ، وتلويشا لتاريخه الناصح ، وقد أمكنتهم الفرصة المتاحة أن يصلوا إلى غرضهم المنشود ، وأملهم المطلوب ، من أيسر الطرق ، وأهون الأسباب ، حينما انقطعت عائشة رضي الله تعالى عنها عن الركب لداع ضروري ، وقد أركبها راحلته رجل كان هو قد تأخر عن الركب كما تأخرت هي ، وكان هذا ذريعة للافاضة في حديث غير كريم ، والخوض في عرض لم تدنسه ريبة ، ولم يكدر صفوه غبار ، وهكذا تتيقظ الفتن ، وتمشي برجليها المحس ، ويقع الناس في حيص بيص .

والقصة - كما ترويتها صاحبته - « عن عائشة رضي الله عنها . . قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يخرج سفرا أقرع بين أزواجه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه ، فأقرع بيننا في غزاة غزاها . فخرج سهمي فخرجت معه بعد ما أنزل الله الأمر بالحجاب ، فأنا أحمل في هودج ، وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته تلك وقفل ، ودنونا من المدينة ، أذن ليلة بالرحيل ، فقمنا حين آذنوا ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت

شأنى أقبلت الى الرحل فلمست صدرى ، فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع . فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه ، فأقبل الذين يرحلون لى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء اذا ذاك خفافا ، لم يثقلن . ولم يغشهن اللحم ، وانما يأكلن العلقه - القليل - من الطعام . فلم يستذكر القوم حين رفعوه ثقل الهودج فاحتملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل وساروا ، فوجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجننت منزلهم وليس فيه أحد ، فأمنت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون الى ، فبينما أنا جالسة غلبتنى عينائى فتمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى من وراء الجيش ، فأصبح عند منزلى فرأى سواد انسان نائم ، فأتانى وكان يرانى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين أناخ راحلته ، فوطئ يدها فركبتها ، فانطلق بقود بى الى ارجلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا معرسين فى نحر الظهرة . فهلك من هلك وكان الذى تولى الافك « عبد الله بن أبى بن سلول » فقدمنا المدينة فاشتكت بها شهرا ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الافك . . . ويرينى فى وجهى أنى لا أرى من النبى - صلى الله عليه وسلم - اللطف الذى كنت أرى منه حين أمرض . . . انما يدخل فيسلم فيقول كيف تيكم ؟ لا أشعر بشئ من ذلك حتى نقهت ، فخرجت أنا وأم مسطح قبل المناصب - متبرزا - لا نخرج الا ليلا الى ليل ، وذلك قبل أن تتخذ الكنف قريبا من بيوتنا ، وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية ، أو فى التنزه ، فأقبلت أنا وأم مسطح بنت أبى رهم نمشى ، فعثرت فى مرطها ، فقالت تعس مسطح ، فقلت لها بثسما قلت ، أتسبين رجلا شهيد بدار ؟ فقالت يا هنتام . . . ألم تسمعى ما قالوا ؟ فأخبرتني بقول أهل الافك . . . فازددت مرضا على مرضى ، فلما رجعت الى بيتى دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال كيف تيكم ؟ فقلت ائذن لى الى أبوى . . . قالت وأنا أريد حينئذ أن أستيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأتيت أبوى فقلت لأمى ما يتحدث الناس به . . . فقالت يا بنية هونى على نفسك الشأن ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها ، فقلت سبحان الله ولقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت فبت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت فدعا - رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبت الوحي يستشيرهما فى قرآن أهله ، فأما أسامة فأشار عليه بالذى يعلم فى نفسه من الود لهم ، فقال أسامة أهلك يا رسول الله ، ولا نعلم الا خيرا . . . وأما على فقال يا رسول الله

لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير . وسل الجارية تصدقك .
 فدعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بريره . فقال يا بريرة .
 هل رأيت فيها شسينا يريبك ، فقالت بريرة لا والذي بعثك بالحق .
 ما رأيت منها أمرا أغمصه عليها - أي أعيبه - قط أكثر من أنها جارية
 حديثة السن تنام عن العجيز فتأتي الداجن فتأكله ، فقال رسول الله
 - صلى الله عليه وسلم - من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي . فوالله
 ما علمت على أهلي الا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا
 وما كان يدخل على أهلي الا معي . فقال سعد بن معاذ يا رسول الله ،
 أنا والله أعذرك منه ، ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا
 من الخزرج أمرتنا ففعلنا فيه أمرك ، فقال سعد بن عبادة وهو سيد
 الخزرج وكان قبل ذلك رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ، فقال
 كذبت والله لا تقتله ولا تقدر على ذلك . فقام أسيد بن الحضير . فقال
 كذبت لعمر الله ، لنقتله ، فانك منافق تجادل عن المنافقين . فثار الحيان
 الأوس والخزرج حتى هموا ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - على المنبر .
 فنزل فخفضهم حتى سكتوا وسكت ، وبكى يومى لا يرقأ لى دمع ،
 ولا أكتحل بنوم . فأصبح عندى أبواى وقد بكيت ليلتين ويوما حتى
 أظن أن البكاء فالق كبدى . قالت فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى،
 إذ استأذنت امرأة من الأنصار فأذنت لها فجلست تبكى . فبينما نحن
 كذلك إذ دخل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فجلس ولم يجلس
 عندى من يوم قيل لى ما قيل قبلها . وقد مكث شهرا لا يوحى اليه فى
 شأنى بشئ . قالت فتشهد ثم قال يا عائشة لقد بلغنى عنك كذا وكذا ،
 فان كنت بريئة فسيبرك الله ، وان كنت أملت بذنب فاستغفرى الله
 وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه ثم تاب تاب الله عليه . فلما قضى
 رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مقالته قلص - انقطع - دمعى حتى
 ما أحس منه قطرة . وقلت لأبى أجب عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 قال والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -
 فقلت لأمى أجيبى عنى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما قال قالت
 والله ما أدرى ما أقول لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - قالت وأنا
 جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن . فقلت والله لقد علمت
 أنكم سمعتم ما يتحدث به الناس . ووقر فى أنفسكم وصدقتم به .
 ولئن قلت لكم انى بريئة والله يعلم انى لبريئة لاتصدقونى بذلك ، ولئن
 اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى لبريئة لتصدقننى ، والله ما أجد لى ولكم
 مثلا الا أبا يوسف إذ قال فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون .
 ثم تحولت على فراشى وأنا أرجو أن يبرئنى الله . ولكن والله ما ظننت

أن الله ينزل في شأنى وخيا يتلى ، وأنا أحقر فى نفسى من أن يتكلم بالقرآن فى أمرى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فوالله ما رام مجلسه ، ولا خرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه الوحي فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء ، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان من العرق فى يوم شات . . . فلما شرى عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو يضحك . فكان أول كلمة تكلم بها أن قال لى يا عائشة أحمدي الله فقد برأك الله . . . فقالت لى أمى . . . قومي الى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقلت لا والله لا أقوم اليه ولا أحمده الا الله . فأنزل الله عز وجل « ان الذين جاؤا بالافك عصابة منكهم الآيات » فلما أنزل الله عز وجل هذا فى براءتى قال أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن اثانة لقربته منه « والله لا أنفق على مسطح شيئا أبدا بعد ما قال لعائشة » فأنزل الله عز وجل « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى . . . الى قوله والله غفور رحيم » فقال أبو بكر بلى والله انى لأحب أن يفر الله لى ، فرجع الى مسطح الذى كان يجرى عليه . . . وكان رسول الله . . . صلى الله عليه وسلم - سأل زينب بنت جحش عن أمرى فقال يا زينب ما علمت ؟ ما رأيت ؟ فقالت يا رسول الله أحمى سمعى وبصرى . والله ما علمت عليها الا خيرا . . . قالت وهى التى كانت تسامينى . . . فعصمها الله بالورع » .

وفى هذه القصة عظات وعبر لا تخفى على ذهن اللبيب الأريب . . . منها أن الشدائد كانت تلاحقه صلى الله عليه وسلم فى كل خطوات دعوته الى الله سبحانه وتعالى فى نفسه وفى أهله كذلك ، وفى سبيل اعلان هذه الدعوة وإبلاغها الى الناس ، ومع ذلك كله فانها لم تستطع أن تثنى عزمه ، أو تصرف جهده ، أو تعوق خطوه ، أو تشيع اليأس فى نفسه ، أو تنال من ثقته فى ربه ، أو ايمانه به ، أو تقف فى وجهه ليتحول عن السنين الذى هو ماض فيه ومنها - كذلك - ان مع العسر يسرا - كما يقول الله سبحانه وتعالى . فان عائشة رضى الله عنها لما شهدت لها السماء ، وبرأها الوحي . ونوهت بها الآيات ، صار الايمان بطهرها عقيدة يؤمن بها المسلم ، ورميها بالزنا كفرا - والعياذ بالله - « ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بهتان عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين » .

ومنها أن المولى جل وعلا لا يتخلى عن أوليائه فى أخرج الأوقات ، وأحلك الظروف ، مهما كانت قوى العدوان تلاحقهم ، وعناصر الشر تحاربهم ، والخصوم يكيدون لهم . . . وقد كان مسطح الذى روج لهذه

الفتنة ، وعبد الله بن أبي الذي تولى كبره ، ومن أخذوا عنهما هذا البيهتان يظنون أنهم أصابوا من محمد صلى الله عليه وسلم مقتلا ، أو كشفوا فيه ناحية ضعف ، ولكن الله الذي يحيطه بعنايته ، ويرعاه بعين رعايته ، كان بجانبه يدافع عنه ، ورد الله الذين كفروا بغيتهم لم ينالوا خيرا « ان الذين جاؤا بالافك عصبية منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم » ولو علم هؤلاء الذين رموا عائشة رضى الله عنها أنها ستحصل على هذه الشهادة من رب الأرباب ، بنزاهة عرضها • وطهارة ساحتها ، وشرف قدرها ، وعلو منزلتها ، لما كان منهم الا الخرس • ولكنه الحمق الذي جعلهم كالساعي لحثفه بظلفه ، فقد باؤا بالخزي الأبدى •

ومنها - وهى أهم من ذلك كله وأعظم - أن الذى يهتم بكشف الأستار ، واقتضاح الأعراض ، يتخبط فى منطقته ، ويلتوى فى سيره ، ولا يبالي أن تمشى به رجله الى حتفه ، وتنتهى به الى خاتمة لا يرضاها • وغاية لا يحمدها ، أم انها ستصل به الى شاطئ الأمان ، وموطن السلامة والعافية ، فان هذا الرجل الذى اهتم به مروجو هذه القالة • وجعلوا منه بطلا لتلك الأسطورة ، ظهر من مجريات الحوادث والأمر - فيما بعد - أن اسناد دور البطولة اليه فى هذه الخرافة الملفقة ، أو الفرية المصنوعة ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترب به الصواب والسداد ، لأنه رجل عزهاة ، كما تقول كتب المعاجم لا يرغب فى النساء ، ولا يتوق اليهن ، لأنه يفقد الفحولة ، ولا يمكن أن يحن الى المرأة أو يطلبها • • ولذلك فان عبد الله ابن أبي وهو المقصود بقوله تعالى « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » لم يؤمن بأنه شفى غيظ نفسه من محمد وأصحابه بهذا الافك حتى راح يؤلب النفوس ، ويشير القلوب ، ويقدم للفتنة وقودا آخر وآخر مصورا ذلك كله فيما سجله القرآن الكريم من حزازات ساخنة ، واحن حامية • وحقد لا يمكن أن يفارقه ، ولكنه يمل عليه ألوانا من الكيد ، وأنواعا من الايلام ، يظن أنها تشفى صدره ، أو تسكن لوعته ، فلما أفرغ جعبته لم يجد ما تبقى له الا ما يحكيه عنه سبحانه « هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا والله خزانة السموات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون » وهكذا عاش هذا الرجل حربا على نفسه التى كان يأكلها الحقد ، ومع ذلك كان يرجو أن يضعوا له التساج فوق مفارقة ، وغاب عنه أن الحقوق لا يسود الا فى غفلة الزمن وفى وسط الغوغاء •

غزوة الخندق أو الأحزاب

مع تلك المجاهبات الكثيرة التي كانت بين المشركين والمسلمين ،
والذعر الذي بدأ يدب في قلوب خصوم محمد صلى الله عليه وسلم من
مواقف البطولة التي كانوا يرونها غير مرة من أصحابه رضوان الله
عليهم . فان العداوة التي كانت بادية في سلوكهم معه ، ونواياهم نحوه ،
لم تكن لتنقطع بوادرها ، أو تخفى ظواهرها ، أو تنتهي نتائجها المتكررة
في كل يوم ، وفي كل مناسبة . . وكانت غزوة الخندق أو الأحزاب هذه
هي أبرز تلك المسرحيات التي تجلى فيها بشكل واضح تيقظ مؤامراتهم
بالتبى صلى الله عليه وسلم ، ووضح وضعهم الشاذ بالنسبة له ، حين
تيقظت خصومتهم المتمثلة في تحركاتهم المريبة هنا وهناك لحشد الجيوش ،
واتخاذ العدة ، واشعال نيران الحرب ، وعلان النفي العام ، على هذا الذي
جعل الآلهة لها واحدا ، ويقول المرحوم الشيخ محمد الحضري « لم يقر
لعظماء بني النضير قرار بعد جلائهم عن ديارهم ، وارث المسلمين لها ،
بل كان في نفوسهم دائما أبدا أن يأخذوا ثأرهم ، ويستردوا بلادهم ،
فذهب جمع منهم الى مكة . وقابلوا رؤساء قريش . وحرصوهم على حرب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنوهم بالمساعدة ، فوجدوا منهم قبولا
لما طلبوه ، ثم جاؤا الى قبيلة غطفان وحرصوا رجالها كذلك ، وأخبروهم
بمبايعة قريش لهم على الحرب ، فوجدوا منهم ارتياحا ، فتجهزت قريش
وأتباعها يرأسهم أبو سفيان ويحمل لوازمهم عثمان بن طلحة بن أبي طلحة
العبدري ، وعددهم أربعة آلاف ، وتجهزت غطفان يرأسهم عيينة بن حصن
الذي جازى احسان الرسول اليه كفرا ، فانه أقطع أرضا يرعى فيها
سوائمه ، حتى اذا سمن خفه وحافره قام يقود الجيوش لحرب من أنعم

عليه ، وكان معه ألف فارس ٠٠ وتجهزت بنو مرة يرأسهم الحارث بن عوف المري ، وهم أربعماية ٠٠ وتجهزت بنو أشجع يرأسهم أبو مسعود بن رخیلة ٠٠ وتجهزت بنو سليم يرأسهم سفيان بن عبد شمس وهم سبعماية ٠٠ وتجهزت بنو أسد يرأسهم طليحة بن خويلد الأسدي وعدة الجميع عشرة آلاف محارب قائدهم العام أبو سفيان ٠٠ ولما بلغه صلى الله عليه وسلم أخبار تلك التجهيزات استشار أصحابه فيما يصنع ، أيملك في المدينة ، أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار خارجها ٠٠ وقد أشار عليه سلمان الفارسي بعمل الخندق ، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه ، فأمر صلى الله عليه وسلم المسلمين بعمله وشرعوا في حفره شمال المدينة من الحرة الشرقية الى الحرة الغربية ، وهذه هي الجهة التي كانت عورة يمكن أن توثى المدينة من قبلها ، أما بقية حدودها فمشتبكة بالبيوت والنخيل لا يتمكن العدو منها ، ولا يمكن أن يحارب من جهتها ، وقد قاسى المسلمون صعوبات جسيمة في حفر الخندق لأنهم لم يكونوا في سعة من العيش حتى يتيسر لهم العمل ، وعمل معهم عليه الصلاة والسلام ويقول الأستاذ أحمد الشريف في الاعداد الذي سبق غزوة الأحزاب هذه « اختمرت فكرة تأليب العرب على المسلمين في يشرب في نفوس اليهود من بنى النضير الذين لجأوا الى خيبر بعد اجلائهم عن المدينة وأرادوا لها أن تكون محاولة نهائية ، ومعركة حاسمة يخوضونها ضد محمد ٠ وفي سبيل ذلك لم يدخروا جهدا من حيلة أو مكر أو مال ٠٠ وتنفيذا لهذه الفكرة خرج نفر منهم من بينهم حيي بن أخطب ، وسلام بن أبي الحقيق وأخوه كنانة ، ومعهم جماعة من يهود خيبر حتى قدموا على قريش مكة ، وقد بدأوا بقريش لأنها التي تحمل لواء المعارضة ، ولأنها القوة المعادية للمدينة ، وهي التي بينتها وبين المسلمين حرب معلنة لم تنته ٠٠ لكن قريشا كانت قد بدأت تمل الحرب ، وبدأت جبهتها الداخلية تتضعضع ، وأخذ الحصار الاقتصادي يؤثر فيها تأثيرا كبيرا ، جعلها تفكر في إعادة النظر في موقفها تجاه هذه الدولة الجديدة التي نشأت في يشرب وأخذت عليها طرق تجارتها ، وأثبتت حتى الآن أنها قادرة على الثبات والتمو ، لذلك بدت مترددة غير واثقة ، فليس بينها وبين محمد خلاف الا على الدعوة التي يدعو بها ، وليس بعيدا أن يكون على حق ما دامت كلمته تزداد كل يوم رفعة وسنوا ٠٠ وأرادت قريش أن تستوثق من خطة اليهود فسالت حبيبا عن قومه من بنى النضير فقال تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم الى محمد وأصحابه ، وسألوه عن بنى قريضة فقال أقاموا بالمدينة مكررا بمحمد حتى تأتوهم فيميلوا معكم عليه ٠٠ ومازال بقريش يسهل لهم الأمر ويرغبهم حتى أخذ معهم موعدا بعد

أشهر يكون قد جمع لهم فيها الأحزاب من كل قبائل العرب . . . بلغت
 أنباء هذه المسيرة محمداً والمسلمين معه في المدينة ففرعوا وقد رمتهم العرب
 كلها عن قوس واحدة ، وإذا كانت قريش قد انتصرت في أحد ولم تكن
 في أكثر من ثلاثة آلاف فماذا يصنع المسلمون لمقابلة هذه القوة التي تبلغ
 أكثر من ثلاثة أمثال قوة قريش حينئذ ، لم يكن من سبيل سوى التحصن
 بالمدينة ، ولكن هل يكفي التحصن أمام هذه القوة الساحقة . ثم إن النبي
 صلى الله عليه وسلم لا يريد المغامرة ، وليست البطولة هي التي يحرص
 عليها ، فالحرب عنده وسيلة لا غاية ، وهو وإن كان سريع النهضة لضرب
 العدو ، دقيق التنظيم ، ماهراً في القيادة ، فإنه ليس على مثال قواد
 الحرب وأربابها يسعى وراء تحقيق مجد حربي ، وإنما هو نبي يريد
 سيادة مبدأ ، وتحقيق رسالة ، ويحرص على السلم مادام له عن القتال
 مندوحة . . . وقد أقبلت قريش وأحزابها وهي ترجو يوماً كيوم أحد ،
 ولكنها لم تجد جيش المسلمين ينتظرها في ساحة مكشوفة مثل يوم أحد ،
 وإنما ووجهت بتنظيم جديد ، وفاجأها الخندق ، فأخذها العجب ،
 إذ لم تكن تتوقع مثل هذا النوع من الدفاع المجهول . وكان الوقت
 شتاء ، والجو بارداً ، والرياح شديدة ، وأدركت قريش وأحزابها أنهم
 مقيمون أمام الخندق طويلاً ، يتعرضون لهذا الجو القاسي الذي تعجز
 خيانتهم عن حمايتهم منه . ومحمد وأصحابه مجتمعون بخندقهم ، ولديهم
 الميرة ، ومساكنهم وراءهم . فهم يستطيعون الصبر طويلاً . . . أفليس
 الخير للأحزاب أن يعودوا أدراجهم . . . لكن جمع هؤلاء العرب لحرب محمد
 مرة أخرى ليس بالأمر الهين ، قدر اليهود هذا كله ، وخاف حبي بن
 أخطب مغبته ، فقال لزعماء الأحزاب إنه سيقنع بني قريظة بنقض عهدهم
 مع محمد والانضمام إليهم ، ومتى منعت معاونتها عن محمد انقطعت عنه
 الميرة ، وفتح الطريق أمام جيش الأحزاب ، وسرت قريش بما تعهد به
 حبي ، وسارع هو إلى تنفيذ خطته . فأقنع زعيم بني قريظة كعب بن أسد
 بذلك ، وما زال به حتى ثارت يهوديته ، وأعلن نقضه للعهد ، وعاد حبي
 يبشر الأحزاب لتستعد للهجوم . وعلم الرسول صلى الله عليه وسلم
 بذلك فبعث سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عباد سيد الخزرج
 وعبد الله بن رواحة وخواثا بن جبير ليوقفوا على جلية الأمر . ولينحاولوا
 رد اليهود إن كانوا قد فكروا في الخيانة . . . وهناك طلب زعيمهم
 كعب بن أسد أن يردوا إخوانهم من بني النضير إلى ديارهم أن كانوا يريدون
 منهم أن يلزموا موقفهم الأول ، وأراد سعد بن معاذ أن يقنعهم بالعدول
 عن هذا الموقف مخافة أن يحل بهم ما حل ببني النضير ، لكنهم لم يقنعوا ،
 وقال كعب من رسول الله لا عهد بيننا وبين محمد ، واشتدت المناقشة ،

وكاد الفريقان يتشاثمان ، ورجع رسل محمد اليه ، واشتد البلاء ، وعظم الخوف ، ورأى المسلمون طريق بنى قريظة وقد فتح للأحزاب ، ولما لم يكن من الحكمة مواجهة هذا العدو ، فان الحيلة اذن خير ما يلجأ اليه القائد البصير فى مثل هذا الموقف . . . لذلك بعث النبى صلى الله عليه وسلم الى غطفان يعدها بثلاث ثمار المدينة ان هى ارتحلت ، ولما لم يكن لغطفان هدف الا المال فقد بدأت تميل الى هذا العرض ، ثم انه ارسل نعيم بن مسعود وكان قد أسلم حديثا ولم يعلم الناس باسلامه ، وكان صديقا لقريش ، كما كان صديقا لليهود ، ليصل بالحيلة الى تفتيت وحدة الأحزاب ، وكان داهية ذكيا . فأفهم اليهود أن غطفان وقريش لا تطيقان البقاء ، وربما انسحبا وظلوا هم وحدهم يواجهون محمدا وأصحابه فلا يستطيعون ، ونصح لهم أن يطلبوا من قريش رهنا من رجالهم يكونون بأيديهم ضمانا لهم ألا تتركهم الأحزاب لهذا المصير . . . وقال لقريش ان بنى قريظة ندموا على نقض عهد محمد وسيأخذون رجالا باسم رهائن يقدمونها لمحمد ليضرب أعناقها . . . فلما طلبت قريش ، الأحزاب من بنى قريظة خوض المعركة طلبوا منهم الرهائن ، وعندئذ تأكد لأبى سفيان أنهم سيفقدون ، وعرض أمر الهجوم السريع على غطفان فترددت . فلما كان الليل عصفت ريح شديدة ، وهطل المطر غزيرا ، وقصف الرعد ، واشتدت العاصفة بما لم ير له مثيل من قبل . . . حتى امتلأت نفوس الأحزاب بالرعب ، وخيل اليهم أن محمدا سوف يستغل هذه الفرصة فيهاجمهم ويوقع بهم . فقام طليحة بن خويلد الأسدي وصاح ان محمدا قد بدأكم بشر . فالنجاء النجاء ، وكان أبو سفيان أول من أجاب النداء . ولبى داعى الفرار ، وصاح بقريش انى مرتحل ايها الناس فان تحلوا فقد نقضت قريظة عهدها ، وبدأكم محمد بشر ما تكرهون . وهكذا هزم الله الأحزاب . وكفى المسلمين القتال . . . وفى هذه الغزوة - كما رأينا - لم يكن عدد المسلمين مشجعا على الوقوف فى وجه الأحزاب الذين جاؤا للأجهاز عليهم ، واسكات صوتهم ، وتفريق شملهم ، وتنكيس رايتهن الى الأبد ، حتى لا تزحم طريقهم هذه الدولة الجديدة - فى يثرب - وهناك تمر قوافلهم التجارية . وهم يخشون الخشية كلها من تعرضها لها . وعدوانها عليها ، الا أن المسلمين مع هذه القلة كان فى قلوبهم ايمان ، وبين جوانحهم عقيدة ، نماها لديهم . وأكدها فى نفوسهم ، تلك الثقة التى لا حد لها فى نصر الله لهم ، والتى كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعلنها اليهم ، ويبشرهم بها . ويؤكد لهم أن الله سبحانه وتعالى قد وعده بها ، ولا يخلف الله وعده ، ونحن نستطيع أن ندرك - من غير شك - أن الرسول صلى الله عليه وسلم أثبت بما لا ريب

فيه أنه قائد حربى محنك استطاع بدهائه وذكائه وعقله الكبير أن يعصف بهذا العدد الضخم الذى حشده عدوه ، وواجهه به خصومه ، وتبين ذلك واضحا كل الوضوح فى أمرين اثنين ، كان أولهما استخدام هذا الرجل الحصيف نعيم بن مسعود الذى استطاع أن يجعل الثقة مفقودة بين الأحزاب وبين بنى قريظة الى درجة أن فكرت قريش ممثلة فى القائد العام أبى سفيان أن تعدل عن الحرب ثم تنجو بنفسها مكتفية بهذا النصر الذى أحرزته فى أحد . وقد حصل ذلك بعد حرب الاستنزاف التى صادفتها من البقاء الطويل ، وقيام العواصف التى اقتلعت الخيام وأشاعت الرعب .

وثانى هذين الأمرين تلك المبارزة التى أراد مقتحمو الخندق أن يشيعوا بها الرعب فى نفوس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم إلا أنها لم تحقق غرضها ، وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه صاحب الفضل فى أنها خيبت ظنونهم ، اذ تقدم عمرو بن ود فى صلف للمبارزة وتقدم على فقتله ، وكانت هذه هى الضربة الأولى والفضل فى الحروب دائمة أبدا للضربة الأولى ، وبهذا فهم خصوم محمد أنه صار قوة يحسب حسابها .

قصة زينب

لم تقتصر مؤامرات المشركين • ودسائس المنافقين ، فى الكيد للرسول صلى الله عليه وسلم ، على الحروب الميدانية التى أثاروا عجاجتها ، ورسوموا خطوطها ، وأشعلوا نيرانها ، وأراقوا فيها دماء غزيرة ، ولكن هذا الكيد كان يمتد الى أقصى الغايات والأبعاد ، فيتناول العرض والشرف • والسلوك والعادات ، والطباع والأخلاق ، وأهميات المؤمنين اللائى كن أظهر من ماء السماء ، وأنقى من حبات الندى حين يشرق عليها ضوء الصبح ، وبياض النهار ، ونور الشمس فى يوم من أيام الصبح ، وكأنما هو مخطط اجرامى قد رسمت له حدوده وغاياته ، وأعدت لتنفيذه الأوقات الملائمة ، أو الظروف المناسبة ، فقد كانت تتناول الرسول صلى الله عليه وسلم اذا دعت الضرورة الى ذلك • فيتهم بالسحر والكهانة ، والشعر أو الجنون ، أو أن ما ينزل به جبريل عليه من ربه جل جلاله أساطير الأولين اكتبها فهمى تملى عليه ، حتى اذا ما تبين لهم تفاهة ما يقولون ، وكذب ما يدعون ، وخرافة ما يتوهمون ، حاولوا أن يتخذوا لهم ميدانا آخر للهجوم ، ومناسبة ثانية أو ثالثة للطعن واللمز ، والتشويه والتشنيع • وقد كان زواجه صلى الله عليه وسلم بأكثر من واحدة مادة خصبة للحديث القذر ، والانتهاش المفضوح ، والزراية المكشوفة ، والغمز الساقط ، وفى كل مناسبة من المناسبات التى تأخذ الأحاديث طريقها الى الأفواه والأسماع يكون وراءها منافق أو يهودى ، والمستشرقون فى العصر الحديث توارثوا عن المنافقين واليهود ما كانوا يقومون به من الطعن واللمز ، واختلاق العيوب والمزاعم • وجعلوا من قصة زينب بنت جحش واحدة من هذه المفتريات التى أخذوا على عاتقهم استخدامها فى التجريح للرسول صلى الله عليه وسلم وإبرازه

للناس فى صورة الانسان الأنانى الذى لا يعنيه ، غير نفسه يشبع شهوتها ويلبى رغبتها ، ويستجيب لنزوعها وميولها ، أو الرجل البوهيمى الذى ينسى عقله ورشده ، وتفكيره وخلقه ، ومنطقه وأدبه ، وعرضه ودينه ، لينزل على إرادة الغريزة والطبع ، والهوى والميل ، متناسيا الأعراف والتقاليد ، والدساتير والنظم ، والقصة هكذا - كما يرويها المؤرخ الشيخ الخضرى - « وفى العام السادس الهجرى كانت غزوة الأحزاب وبنى قريظة والمصطلق .. وقد تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش بعد أن طلقها مولاه زيد بن حارثة ، وكان من أمر زواجها لزيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم خطبها له فتأفف أهلها لذلك لمكانتها من الشرف - الذى لم يتناول اليه زيد - فان العرب كانوا يكرهون تزويج بناتهم من الموالى ، ويعتقدون ألا كفء من سواهم لبناتهم ، وزيد وإن كان الرسول تبناه ولكن هذا لا يلحقه بالأشراف . فلما نزل قول تعالى « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا » لم يروا بدا من القبول ، فلما دخل عليها زيد أرتته من كبريائها وعظمتها ما لم يتحمله ، فاشتكاها لرسول الله صلى الله عليه وسلم . فأمره باحتمالها والصبر عليها الى أن ضاقت نفسه . فأخبره بالعزم على طلاقها وكرر ذلك .. ولما كانت العشرة بين مثل هذين الزوجين ضربا من العيب ، أمر الله نبيه أن يتزوج زينب بعد طلاقها حسما للنزاع من جهة . وحفظا لشرفها أن يضيع بعد زواجها بمولى من جهة أخرى ، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم خشى من لوم اليهود والعرب عليه ذى زواجه بزواج ابنه ، فقال لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله . وأخفى فى نفسه ما أبداه الله ، فببت الله حكمه بإبطال هذه القاعدة وهى تحريم الزواج من زوجة المتبنى « لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعياتهم اذا قضاوا منهن وطرا » ومن هذا الحين صار اسم زيد « زيد بن حارثة » بذل زيد بن محمد .. ويقول جهال المؤرخين وذوو المقاصد السافلة منهم فى هذه القصة أقوالا لا تجوز الا على من ضاع رشده ، ولم يفقده حقيقة ما يقول ، فانهم يذكرون أن الرسول صلى الله عليه وسلم توجه يوما لزيارة زيد فرأى زوجته مصادفة لأن الريح رفعت ثوبها فأظهرت بعض جسمها فوقعت فى قلبه فقال سبحانه الله ، فلما جاء زوجها ذكرت له ذلك فرأى من الواجب عليه فراقها . فتوجه وأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بعزمه على ذلك فنهاه عن ذلك .. ويكذب هذا أن نساء العرب لم تكن تعرف ستر الوجوه ، وزينب بنت عمته ، وقد أسلمت قديما ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة فكيف لم يرها وقد مضى على

اسلامها عشر سنوات وهو الذى زوجها زيدا ، فلو كان له فيها رغبة عن حب أو عشق لتزوجها هو . ولا مانع يمنعه من ذلك ، ومن منا يتصور أن السيد الأكرم يقول لقومه انه مرسل من ربه ، ويتلو عليهم صباح مساء « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا » ثم هو يدخل بعد ذلك بيتا لرجل من متبعيه وينظر الى زوجته ثم يشتفى زوجها ، ولو حدث أمر مثله من أقل الناس لعيب عليه ، فكيف بمن أجمعت كلمة المؤرخين على أنه أحسن الناس خلقا وأبعدهم عن الدنيا . . . أما الدكتور هيكل فانه يقول « يكفى لهدم هذه القصة من أساسها أن زينب بنت جحش هذه هى ابنة أميمة بنت عبد المطلب - عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم - وأنها رببت بعينه وعنايته ، وأنها كانت لذلك منه بمقام البنت أو الأخت الصغرى ، وأنه كان يعرفها ويعرف أمى ذات مقائن أم لا قبل أن تتزوج زيدا ، وأنه شهدا فى نموها تحبو من الطفولة الى الشباب ، وأنه هو الذى خطبها لزيد مولام . . . إذا عرفت ذلك تداعت أمام نظرك كل تلك الخيالات والأقاصيص من أنه من بيت زيد ولم يكن هو فيه ، ورأى زينب فبهره حسننها وقال سبحانه الله مقلب القلوب ، أو أنه لما فتح باب زيد عبث الهواء بالستار الذى على غرفة زينب فألفاها فى قميصها ممتدة فانقلب قلبه فجأة . . . ولو أن شيئا من جها علق بقلبه لخطبها لنفسه لا لزيد ، وينتبت التاريخ أيضا أن محمدا خطب ابنة عمته لمولاه زيد فأبى أخوها عبد الله بن جحش أن تكون قرشية هاشمية ، وهى مع ذلك ابنة عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأن تكون تحت عبد رقيق اشترته خديجة ثم أعتقه محمد ، ورأى فى ذلك على زينب عارا كبيرا ، وكان ذلك عارا كبيرا عند العرب فلم تكن بنات الأشراف ليتزوجن من موال وان أعتقوا . . . لكن محمدا يريد أن تزول مثل هذه الاعتبارات القائمة فى النفوس على العصبية وحدها . وأن يدرك الناس جميعا أنه لا فضل لعربى على عجمى الا بالتقوى ، فلتكن زينب بنت جحش بنت عمته هى التى تحتل هذا الخروج على تقاليد العرب ، وهذا الهدم لعاداتها ، مضحية فى ذلك بما يقول الناس عنهما ، مما تخشى سماعه ، وليكن زيد مولاه والذى أصبح بحكم عادات العرب وتقاليدها صاحب حق فى أن يرثه كسائر أبنائه هو الذى يتزوجها . . . فيكون مستعدا للتضحية التى أعدها الشارع الحكيم للأدعياء الذين اتخذوا أبناء فلما سارت زينب الى زوجها لم يسلس قيادها ولا لان أبائها ، واشتكى زيد الى النبى ذلك وطلب طلاقها . وقال له النبى أمسك عليك زوجك ، الا أن زيدا لم يطق فطلقها . . . وكان الشارع الحكيم قد أراد أن يبطل ماكانت تدنين به العرب من التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابهم ، ومن

اعطاء الدعوى جميع حقوق الابن . . . ولكن كيف السبيل الى تنفيذ هذا .
ومن من العرب يستطيعه ، وينقض به تقاليد الأجيال السابقة ، ان محمدا
نفسه على قوة عزيمته ، وعميق ادراكه لحكمة الله فى أمره قد وجد على
نفسه من الغضاضة فى تنفيذ هذا الحكم ، بأن يتزوج زينب بعد تطبيق
زيد آياها ، ودار بخاطره ما يمكن أن يقول الناس فى خرقه هذه العادة
القديمة المتأصلة فى النفوس ، لكن محمدا كان قدوة فى كل ما أمر الله به ،
وما طلب منه أن يبلغ رسالته ، فليخش ما يقوله الناس . فذلك لاشئ الى
جانب خشية الله بتنفيذ أمره ، وليتزوج من زينب ليكون قدوة فيما أبطل
الشارع الحكيم من الحقوق المقررة للتبني والادعاء . هذه رواية التاريخ
وفى كتب المستشرقين اسفاف كثير من هذه الناحية لا نحب أن ننقله
ولا أن نسترسل معه ولكننا نود أن نقول انه كلام يتجافى كل المجافاة
مع الحقائق المقررة عن عفته صلى الله عليه وسلم وزهده وطهارته وعصمته
وماضيه الناصع وسيرته العطرة التى تسامت عن المستوى الترابى الحقيق
الذى ينزل الناس اليه حينما تتدلى بهم الحيوانية الطائشة . والبهيمية
النازلة ، فلا يعتيهم شئ وراء شهوة البطن والفرج . . . ونحن نعلم أنه
صلى الله عليه وسلم مرت به فترة الشباب وهو أكمل ما يكون قوة ،
وأضيق ما يكون حيوية ، وأقصى ما يكون جنسا ، وأعظم ما يكون فراغا ،
ثم لم يعرف عنه هذا الميل الذى يجعله أسير شهوته يجرى وراءها ،
ويبحث عنها ، وينسى فى سبيلها كرامته وخلقه ، شأن أولئك الذين كانت
المرأة تقودهم . وتتحكم فيهم ، وتطفى على سلوكهم ، وتملك عليهم كل
شعورهم . . . ولقد طلبته خديجة وهو فى الخامسة والعشرين من عمره
وهى فى الأربعين ، وسعت اليه دون أن يسعى اليها . . . وفى الوقت الذى
جرت فيه حوادث قصة زينب لم يكن فى فراغ جنسى حتى يتصور العقل
أن يكون عنده هذا الشبق الأهوج ، أو الميل الأحق فقد كانت تحتها
حفصة الشابة الجميلة فى الثمان عشرة من عمرها ، وعائشة الصغيرة
الغريرة التى كانت تملأ جوانب قلبه كلها ، فأى شئ كانت تزیده زينب
التى كانت ميسورة له منذ الطفولة حتى هذه اللحظة المزعومة ، وهى مع
ذلك كله ابنة عمته . . . لم يبق بعد ذلك كله الا أن تكون المسألة منهجا
سماويا خاصا أراد به صاحبه أن ينفذ على شكل لا يحمل على التردد ،
ولا يكون شاقا على الناس . ولا يمثل قصته على خشبة المسرح الا أشخاص
لا يدخل فى روع المجتمع أنهم من السوق أو ممن لا يصح أن تكون لهم
قيادة الجماعة الانسانية التى يعيشون معها ، ولو أن أصحاب هذا الدور
التشريعى الذى أريد به أن يكون انتقالا بالمجتمع من سلوك الى سلوك
كانوا غير الرسول صلى الله عليه وسلم وزيد بن حارثة مولاه وصنيفيه

وموضع سره وثقتة وزينب ابنة عمته لكان لهذه الثورة على هذا الوضع
 البغيض شأن آخر في ارتياح الناس لها ، وقبولهم اياها ، وتركهم لها ،
 وإقلاعهم عنها ، ولكن القضاء عليها بهذه الصورة كان حزما في الأسلوب ،
 وحكمة في التشريع ، وصوابا لا يعدله صواب ، ولهذا فانه لم يثبت أن
 أحدا قد غضب من أجل أن تنجل منه هذه البثوة المزورة ، أو هذا النسب
 اللصيق ، أو هذه الوشيعة المكذوبة ، وإنما قابلوا هذا الصنيع بالارتياح
 كل الارتياح « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم
 النبيين » الا أن الخصومة حين تخرج عن طور العقل ، وأسلوب المنطق ،
 وسنن الصواب . تتجاوز معايير السداد والحكمة ، والذوق والأدب والحق
 والواجب ، والعدل والانصاف ، وتجعل صاحبها عرضة لزيارة الناس له ،
 وعتبهم عليه ، ورميهم له بكل نقيصة . ولهذا كان على العاقل أن يحاسب
 نفسه قبل أن يحاسب غيره .

الحديبية والرضوان

الى هنا كانت سنوات ست قد مضت على المناوشات الحادة بين قريش ومعها حلفاؤها من العرب والمنافقين واليهود ، وبين النبي صلى الله عليه وسلم والمسلمون معه ، وكانت قريش الى هذه اللحظة قد أنهكتها الحروب ، وقلمت أظافيرها الهزائم التي لحقت بها ، فلم يعد لديها من سلاح تواجه به محمدا الا الحقد الذي تغلّى به مآرجلها . وتتأجج به جوانحها ، ونوايا الشر التي تخفيها في ضمائرها ، حتى لقد جلس أبو سفيان يوما ما من الأيام في نادى قومه والغيط يكاد يفيض منه ، فقال الا رجل يأخذ محمدا على غرة في مسيره الى السوق ، أو الى دار بعض أصحابه ، أو الى المسجد ، فيضربه ضربة تقضى عليه ، ليريدنا منه ، ومن خطره علينا ، بعد تلك الدماء التي أريقنا من قومنا وأهلينا وذوي المكانة فينا ، فتقدم اليه رجل وقال له أنا ذلك الذي تشده وهناك أعطاه أبو سفيان من المال والزاد والراحلة ما يعينه على أن يحقق له هذه المهمة . وفي صباح اليوم السادس من هذه الرحلة كان ينحني على النبي صلى الله عليه وسلم ليضربه بخنجره الذي سقط من يده المرتعشة ، فلم يستطع أن ينال من الرسول مكروها ، ولما وجد أن قدرته قد ذهبت ، وأن خنجره قد هوى ، وأن قلبه قد امتلأ بالفزع والرعب ، وأن رجله لا تحمله ، وأن الأرض موشكة أن تبتلعه . وأن أسيد بن الحضير يجذبه جذبة تنخلع لها نفسه ، أعلن ندمه لما بدر منه ، وأسفه لما أقدم عليه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم أصدقني حديثك ، وخبرني خبرك ، فلم يخف الرجل عنه شيئا ، وأنباء أنه موفد من قبل أبي سفيان الذي أمده بالمال والزاد والراحلة ليقتله ، وأنه يعترف له صلى الله عليه وسلم

أن أبا سفيان وقومه على الباطل ، وأن الرسول على الحق ، وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم رجلين من أصحابه ليقتلا معا أبا سفيان هما عمرو بن أمية الضمري وكان من فتاك العرب في الجاهلية ، وسلم بن أسلم ، وقد عرف أبو سفيان عمرا وهو يطوف بالبيت فاستعدى عليه أهل مكة فهرب هو وصاحبه ، وقتل في طريقه وهو فار رجلا من تيم ، ورجلا من بني الديل ، ولقى آخرين بعثتهما قريش يتجسسان على محمد وأصحابه فقتل أحدهما وعاد بالآخر أسيرا إلى المدينة ، وكان الله سبحانه وتعالى قد أراد أن يبقى أبو سفيان على قيد الحياة حتى يسلم بيديه مفتاح الكعبة لمحمد صلى الله عليه وسلم فيما بعد لتذهب كبرياؤه وتذوب غطرسته .

ولم تكن هذه السنوات الست بالأمر الهين اليسير على نفوس المسلمين الذين فارقوا البيت الحرام ومكة التي تضم أهلهم وذوي قرابتهم وأخوانهم ، بل لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم أكثر منهم جلدا ، وأقوى احتمالا ، أو أقل شوقا إلى أن يجد نفسه وقد مكثه الله من الأرض العزيزة عليه ، ومن البيت الحبيب إليه ، حتى لقد بلغ من حنينه وشوقه ، وشدة تعلقه بهذا المكان الذي بزغت شمسُه قبل أن تطلع الشمس . وتنشر ضياءها على هذه الدنيا ، أن رأى في منامه صلى الله عليه وسلم أنه دخل مكة ، ولم يكذ يذيع في أصحابه ذلك النبأ . ويبشرهم أنه سبحانه سوف يحقق لهم هذا الحلم « لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين » حتى وثبت أفتنتهم من بين الضلوع تطوف بالبيت ، وتتملى بنوره ، وتملأ خياشيمها من رائحته ، ثم ظلوا يتحينون الفرصة ، ويترقبون الوقت ، ويرجون أن يحقق الله لهم تلك الأمنية الحبيبة ، إلا أنهم كانوا على يقين أن قريشا لا تفتح لهم أبواب مكة يطوفون بالبيت الحرام عن رضا نفس ، وطيب خاطر ، وسوف تصدهم صدا ، إذا علمت أنهم سيدخلونها عليهم بحكم السيف ، وسلطان الحرب ، وقد كانت قريش لا تفكر في حرب محمد صلى الله عليه وسلم لأنها لا تزال تعاني من حروبها الماضية ، وتقاسى مما جرته عليها من وبال في العتاد والرجال ، وكذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم لا يرغب في حربها ، ولا يميل لمناوشتها ، ولا يهيئ نفسه لمواجهتها ، إلا أنه كان مع ذلك كله ينتظر أن يحقق الله له وعده الذي وعده به ، والذي لا يشك في أنه منجزه إياه ، وكان يرجو أن يصل إلى غرضه باللين والرفق ، والسياسة والحكمة ، والكياسة والحزم . ويقول الدكتور هيكمل « انهم لجتمعون بالمسجد ذات صباح إذا أنبأهم النبي بما ألهم في رؤياه

الصداقة ، ذلك أنهم سيدخلون المسجد الحرام ان شاء الله آمين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون فما كاد القوم يستمعون الى رؤيا رسول الله حتى علا بحمد الله صوتهم ، وحتى انتقل نبا هذه الرؤيا الى سائر أنحاء المدينة فى سرعة البرق الخاطف ، ولكن كيف يدخلون المسجد الحرام ، أيحاربون فى سبيله ، أيجلون قريشا عنوة عنه ، أم تفتح قريش طريقه صاغرة مدعنة .

اذن محمد فى الناس بالحج ، وطلب الى القبائل من غير المسلمين الخروج معه ، فأبطأ عليه كثير من الأعراب ، وخرج فى أول ذى القعدة أحد الأشهر الحرم بمن معه من المهاجرين والأنصار ومن لحق به من العرب يتقدمهم على ناقته القصواء ، وكان عدد الذين خرجوا ألفا ونصفا ، وساق معه الهدى وسبعين بدنة ، وأحرم بالعمرة ليعلم الناس أنه لا يريد قتالا ، فلما بلغ ذا الحليفة عقص الناس الرؤوس ، ولبوا بالحج ، وعزلوا الهدى ، ومن بينها بعير أبى جهل الذى أخذوه فى بدر . ولم يحمل أحد سلاحا الا ما يحمله المسافر من سيف ومغمد ، وبلغ قريشا أمر محمد فامتلاأت بالمخاوف ، وجعلوا يقلبون هذا الأمر على وجوهه حتى لقد حسبوه حيلة أراد بها محمد أن يحتال لدخوله مكة ، ولم يشنهم ما علموا من احرام خصومهم بالعمرة ، واداعتهم فى أنحاء الجزيرة أنهم لا تحركم الا العاطفة الدينية عن أن يقرروا الحيلولة دون محمد ودخول مكة بالغيا ما بلغ ذلك الثمن الذى يدفعونه . . . لذلك عقدوا لخالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل على جيش يبلغ عدد فرسانه مائتين وعسكر بنى طوى ليحول بين محمد وأم القرى . . . أما محمد فانه تابع مسيرته حتى اذا كان بعسفان لقيه رجل فسأله عن قريش ، فقال له لقد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلد النمر يعاهدون الله تعالى لا تدخلها عليهم أبدا ، فقال صلى الله عليه وسلم يا ويح قريش لقد أهلكتهم الحرب . ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين ، وان لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله ، أو تنفرد هذه السالفة ، ثم وقف يفكر ماذا عساه يصنع ، انه لم يخرج من المدينة غازيا ، وانما خرج محرما يريد بيت الله ، يؤدى عنده فرض الله ، وهو لم يتخذ للحرب عدتها ، فلعله ان حارب فلم ينتصر جعلت قريش من ذلك موضع فخارها ، بل لعلها أوفدت ابن الوليد وعكرمة قصدا ادراك هذه البغية حين علمت أنه لم يخرج مقاتلا . . . وفيما كان محمد يفكر كانت فرسان مكة تبدو على مرمى النظر ، يدل مرآها على انه لا سبيل للمسلمين الى درك غايتهم الا أن يقتحموا هذه الصفوف

اقتحاما ، وإن تدور معركة تقف فيها قريش مدافعة عن كرامتها وعن شرفها وعن وطنها ، معركة لم يردّها محمد وإنما حملته قريش عليها حملا ، والزمته خوض غمارها الزاما ، ان المسلمين ممن معه لا تنقصهم الحمية لكنه لا يريد الحرب لذلك سلك طريقا لا يلتقى منه بقريش لكن قريشا حين رأوا ما صنع محمد ركضوا راجعين ليقتفوا مدافعين عن مكة إذ ادهمها المسلمون ، ولما بلغ المسلمون الحديبية بركت ناقة النبي صلى الله عليه وسلم فقال قائل خلأت القصواء فقال النبي ما خلأت وإنما حبسها حابس الفيل والله لا تدعونى قريش الى خطبة يسألوننى فيها صلة الرحم الا أعطيتهم اياها . ثم دعا الناس الى النزول فقالوا يارسول الله ما بالوادي ماء ننزل عليه فأخرج سهما من كنانته وأعطاه رجلا فنزل به الى بئر من الآبار المنشورة فى تلك الأنحاء فغرزّه فى الرمال فى قاع البئر فجاش الماء فاطمأن الناس ونزلوا . . . ولكن قريشا كانت لهم بالمرصاد فعمل يعدون لها عدة النزال والحرب . وقف المعسكران يفكران فى الخطبة التى تتبع ، أما محمد فانه لا يزال على خطته فى السلم والجنوح اليه الى أن تهاجمه قريش أو تغدر به ، وهنالك لا يبقى مفر من تحكيم السيف ، وأما قريش فانها ترددت ثم فكرت فى أن توفد اليه من رجالها من يتعرف قوته ويصده عن دخول مكة ، وجاءه بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة يسألونه ما الذى جاء به ، فلما اقتنعوا بأنه لم يأت محاربا رجعوا الى قومهم ليبلغوهم ذلك لكنهم لم يصدقوا ، وبعثوا رجلا من بنى عامر فعاد بمثل ما عاد به بديل فلم يصدقوه كذلك . فبعثوا سيده الاحابيش الحليس بن علقمة ، فلما رآه النبي مقبلا أمر بالهدى أن تطلق أمامه لتكون تحت نظره دليلا على أن هؤلاء الذين تريد قريش حربهم انما جاؤا معتمرين معظمين للبيت الحرام . فأيقن الحليس أن قريشا ظالمة وعاد اليها ليقول لها سبحانه الله ما ينبغي لهؤلاء أن يصدوا ، أتخرج لخم وخذام وحمير ، ويمنع عن البيت ابن عبد المطلب ، هلكت قريش ورب الكعبة . فاسترضوه وطلبوا اليه أن ينظرهم ، وأرسلو عروة بن مسعود الثقفى فاعتذر لهم بما رأى من تعنيفهم وسوء معاملتهم لمن سبقه من رسلهم فأكدوا له أنه عندهم غير متهم . . . وقد خرج الى محمد وذكر له أن مكة بيضته . وأنه ان نالها هؤلاء الأوشاب ، كان ذلك العار الخالد ، وكان عروة أثناء الحديث يتناول لحية الرسول ، وكان المفيرة بن شعبة يضرب يده ، ورجع عروة الى قريش فقال لهم ما رأيتم ملكا علا فى قومه قط مثل محمد وأصحابه ، وانهم لم يسلموه لشيء أبدا ، فروا رأيكم . . . وطالت المحادثات على هذا النحو فرأى النبي صلى الله عليه وسلم أن يرسل من جانبه رسولا يبلغهم رأيه ، لكنهم عقروا جمل هذا الرسول وأرادوا قتله لولا أن منعتهم

الأحابيش وهددوا بالوقوف في وجههم وهناك خلوا سبيله وعاد إلى معسكر المسلمين ، ثم خرج جماعة من سفهاء مكة - أربعون أو خمسون - يريدون العبث بالمسلمين فأخذوا أخذاً وجيء بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأطلق وثاقهم وعفا عنهم . . . وقد أراد النبي صلى الله عليه وسلم أن يمتحن صبر قريش مرة أخرى فدعا عمر بن الخطاب ليذهب إليهم فاعتذر بأنه ليس له هناك من ينصره ويحميه من عدوانهم إذا أرادوا الاعتداء إليه ، وقال للنبي أن عثمان أعز بها مني ، فخرج عثمان ولقيه أبان بن سعيد فأجاره ، وأبلغهم رسالته ، فلم يأبهوا به ، ولكنهم أذنوا له في دخول البيت والطواف به فأبى إلا أن يكون مع محمد ، وأجاب قريش بأنها أقسمت لن يدخل محمد مكة هذا العام عنوة ، وطال احتباس عثمان هناك وتراعى إلى المسلمين أنهم قتلوه غدرا ، ودخل في روح النبي أن قريشا قتلت عثمان ، فقال لا نبرح حتى نناجز القوم ودعا أصحابه ووقف تحت شجرة في هذا الوادي فبايعوه جميعا على ألا يفروا حتى الموت ، وكلهم حماسة للانتقام ممن غدر وقتل عثمان ، وهيبيعة الرضوان التي نزل فيها قوله تعالى في سورة الفتح « لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا » وبهذه البيعة اهتزت السيوف في أعماقها ، وتبدى للمسلمين أن الحرب آتية لا ريب فيها ، وجعل كل ينتظر يوم الظفر أو يوم الاستشهاد . . . ولم يطل بهم الوقت حتى جاء عثمان ليخبرهم بما قالت قريش واتصل الحديث وعادت المفاوضات مرة أخرى وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له ، أنت محمد وصالحه على أن يرجع ليعود في العام المقبل . . . وإلى هنا ينتهي جانب من قصة هذا الصراع الذي تسميه كتب التاريخ والسيرة بغزوة الحديبية ، والجانب الآخر منها يتمثل في الموقف الذي وقفه سهيل بن عمرو المفوض الرسمي من قبل قريش في إبرام المعاهدة بينها وبين محمد ، وقد كان فيها من الطرافة الكثير ، إذ يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم كاتبه على بن أبي طالب أن يفتح بالبسملة فيأبى سهيل إلا أن يقول باسمك اللهم التي تعودها الناس قبل الإسلام ، ويملي عليه هذا ما عاهد عليه محمد رسول الله فلا يرضى بذلك سهيل ويقول لو آمنا بك رسولا ما كان بيننا وبينك خلاف ، وإنما أنت محمد بن عبد الله ، ويستجيب الرسول لذلك ويأمر عليا أن يكتب كما يمل سهيل ، وتنتهي المعاهدة بعد لأي وأخذ ورد إلى تلك النصوص الأربعة .

الأول : أن يرجع محمد وأصحابه عن دخول مكة هذا العام على أن يعود في العام المقبل ليطوف بالبيت ويبقى بمكة ثلاثة أيام .

الثاني : أن تعقد بينهما هدنة عدم اعتداء الى مدى عشر سنوات أو أربع في بعض الروايات يأمن فيها كل من الطرفين صاحبه .

الثالث : أنه من أراد أن يدخل في حلف جانب من الجانبين دخل ، ويجرى على الحليف ما يجرى على حليفه من صون حرمانه وعدم الاعتداء عليه . .

الرابع : أن من جاء الى محمد من أهل مكة رده ولو كان مسلما ومن جاء اليهم لا يردونه .

وكان هذا الشرط الأخير هو مشكلة المشاكل لأن كثيرا من المسلمين الذين كانوا يعذبون بمكة جاؤا الى النبي هربا من ذلك العجيم الذي كانوا يعيشون فيه هنالك فردهم بحكم الوفاء بالعهد . ولم يجف مداد هذه المعاهدة ، وسهيل لا يزال في مجلس النبي صلى الله عليه وسلم حتى جاء يرسف في قيده أبو جندل بن سهيل بن عمرو هذا فضربه أبوه سهيل وجعل يرده ليرجع معه ، وجعل أبو جندل يصرخ وهو يقول يا معشر المسلمين أأرد الى المشركين وأفتن في ديني . والنبي يقول له صبرا يا أبا جندل واحتسب فانا لا نغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين مخرجا . . ووفد كذلك من مكة الى المدينة أبو بصير فأرسل اليه سيده رجلين لياخذه من النبي فلما سلمه اليهما قال له يا رسول الله أتردني الى المشركين فقال له نحن لا نغدر . . وفي الطريق قتل أبو بصير أحد الرجلين وفر منه الآخر ، وذهب أبو بصير حتى نزل العيص على ساحل البحر وهو طريق قريش التجاري ، وكان عهد محمد وقريش أن يظل هذا الطريق آمنا . فلما ذهب أبو بصير الى هنالك وسمع اخوانه بمكة هربوا اليه وجعلوا واياء يقطعون الطريق على قريش ، ويظفرون بكل ما يمر بهم من قوافل . وبذلك أحست قريش بالخطر الذي يتهدها من جراء وجود هذا الشرط في معاهدة الصلح التي أبرمها محمد معهم ، فذهبوا الى محمد يرجونه أن يعتبر هذا الشرط لاغيا ، وأن يقبل كل من يفر اليه من أهل مكة حتى لا يزداد خطر أبي بصير وعصابته على قوافل تجارتهم التي تمر الى الشام أو تجيء منه ، وهكذا أثبتت الايام بعد نظر النبي صلى الله عليه وسلم . وأنه لم يكن يأخذ بهذا الشرط الأخير الذي كان مثار اعتراض وسخط عن ضعف منه ، أو عدم بصر بالأمور ، وإدراك لعواقبها ، وإنما كانت سياسة رشيدة ، ونظرا بعيدا ، وكياسة حازمة ، مهدت له أن يوجه سياسته من مركز القوة ، وأن يبعث برسالاته الى الملوك والرؤساء وهو مطمئن الى أنه لا يواجه تكتل خصوم ، ولا احتشاد

أعداء ، ولا كيد جماعات لها نفوذ أو سلطان وقد كانت هذه الفترة بالذات فترة تمكن الدولة الإسلامية ، وصلابة عودها ، وارتفاع رايثها ، لأن المعاهدات انما تكون بين قوتين متعادلتين ، وهذا يعنى أن قريشاً قد أصبحت - من جديد - تحسب حساب محمد كأنه نذ لها تخاف بأسه ، وتتقى غضبه ، وبهذا يكون محمد صلى الله عليه وسلم قد اطمأن الى وضعه اطمئنانا يساعده على ألا يتهيب قوة ، أو يخشى جبروتاً ، أو يرهب طغياناً ، ولذلك فان الخطوة التى تحرك بها بعد صلح الحديبية فى القضاء على فلول اليهود التى كانت فى خيبر وقدك وتيماء ووادى القرى دلت على أنه ما كان ليقدّم على هذا الصنيع الذى صنعه لو لم تكن الأرض من تحت قدميه مطمئنة ثابتة ، وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يؤيده ربه بالوحي ، ويلهمه بالسداد ، ويوجهه الى الحق ويؤيده بالتوفيق ، ولا يتخلى عنه فى صحو ولا نوم ، ولا حركة أو سكون ، وانما كان معه دائماً أبداً يأخذ بيده الى التى هى أقوم . .

بعد الحديبية

كان صلح الحديبية بمثابة أعلام النصر في الطريق أمام محمد صلى الله عليه وسلم لأنه بهذا الصلح قد صار يمان من المؤامرات والخيانات والغدر والتحرش من هنا وهناك ، لأن عداوته كانت متمثلة في معسكرين قويين يخشى بأسهما . ويخاف مما يعدانه له من كيد وخصومة ، هذان المعسكران هما قريش واليهود . أما قريش فانهما أصبحت قرية العين مطمئنة كل الاطمئنان بهذه المعاهدة التي حققت دماءها ، وأبقت على شبابها ، وكبار القادة منها ، وجعلتها آمنة على تجارتها التي هي شريان حياتها ، ومورد زرقها ، ومصدر ثروتها . وأما اليهود فأننا نعلم كيف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أخذهم بالشدة ، وعاملهم بالعنف ، وأشاع في نفوسهم الدعر والخوف ، وأشعرهم بالذلة التي تليق بهم ، وتمتزج بدمائهم ، وتكون الجزء المهم في حقيقتهم ، ولم تكن لهم قوة يعتمدون عليها بعد ذلك كله إلا في خيبر والفلول الآخر التي فرت إليها ، واختارت البقاء إلى جوارها ، وقد مر بنا الحديث عنهم تحت عنوان « اليهود في الطريق » . ولسنا بحاجة إلى تكرار ذلك مرة أخرى ، إلا أن لكل شيء إذا ما تم نقصانا - كما يقول الشيعاء الأندلسي - فإن المناققين لا يزالون على المسرح يمثلون دورهم الحقير في خذلان الدعوة ، وإشاعة عوامل الهزيمة . ويقول الشيخ عبد المتعال الصعيدي « فلما عقد ذلك الصلح بين المسلمين وقريش هدا المنافقون لأن قريشا انصرفت عن الحرب إلى السلم ، وأخذت تشتغل بأمور تجارتها التي عطلتها الحرب ، لتستعيد ما فقدته من أموال ، وتخرج من الضائقة المالية الشديدة التي وقعت فيها باستمرارها في الحرب تلك السفين الخمس . وانقطاع تجارتها فيها إلى الشام ، وهي أهم مواردها المالية ،

فانقطعت بهذا صلتها بالمنافقين ، ولم تعد محتاجة الى تجسّسهم لها ، ولا الى ما يدبرونه لها من فتن ومؤامرات ، فسكتوا عما كانوا يدبرونه من قبل . لانهم كانوا آلات في يد قريش . لا يتحركون الا اذا حركتهم ، ولا يمكن أن يقدموا على شيء من أنفسهم . . . ويقول الأستاذ أحمد ابراهيم الشريف « لقد كان يعادى محمدا قوتان كبيرتان تلتف حولهما كل القوى في شبه جزيرة العرب . . . فأما القوة الأولى فهي قوة قريش في مكة . بسا لها من نفوذ أدبي ومادى . . . وأما القوة الثانية فهي قوة اليهود بما لهم من علم وذكاء ، وقدره على الدس والوقعة ، وقد اتحدت مصالح القوتين على حربه والقضاء عليه ، وقد استطاع محمد أن يشبث أمام القوتين ، وأن يخرج من حربه معهما مجتمعين قويا . حتى لقد أصبح زمام المبادرة في يده ، وقد استطاع ببعده نظره ، وحسن سياسته ، وما أظهره من مرونة وكياسة أن يعقد مع قريش عهد الحديبية فأمن به قريشا وأمن الجنوب كله ، لكنه لم يأمن ناحية الشمال ، حيث تجمعت فلول اليهود في خيبر ، وأخذت تسعى لتأليف كتلة يهودية منهم ومن يهود وادي القرى وتيماء لغزو يثرب ، وإذا كانوا قد استطاعوا تأليف الأحزاب حتى ساقوا لحرب المدينة عشرة آلاف مقاتل في غزوة الخندق ، فليس ببعيد عليهم ولا ممتنع أن يستعينوا بقبائل الشمال ، أو أن يستعينوا بقوى خارجية فارسية أو رومية لضرب المسلمين ضربة ساحقة نهائية ، واليهود أشد من قريش عداوة لمحمد ، لأنهم أحرص على دينهم من قريش . ولأن فيهم علما ومكرا أكبر مما في قريش ، وليس من اليسير أن يوادعهم بصلح كصلح الحديبية ، ولا أن يطمئن اليهم . وقد سبقت بينهم وبينه خصومات لم ينتصروا في أحداها . فما أجدرهم أن يثأروا لأنفسهم اذا وجدوا فرصة مناسبة ، أو استطاعوا أن يجدوا لهم مددا من قوى خارجية ، واذن فلا بد من القضاء على قوة هؤلاء اليهود قضاء أخيرا . حتى لا تقوم لهم من بعد ببلاد العرب قائمة أبدا ، وكذلك فعل فانه لم يقم بالمدينة بعد عودته من الحديبية الا خمس عشرة ليلة حتى أمر الناس بالتجهيز لغزوة خيبر ، على ألا يغزو معه الا من شهد الحديبية . وقد حرص محمد على ذلك حتى لا يكون معه أحد غير مطمئن الى قوة نفسه ، وسمو روحه ، وبعد تفكير عن الكسب المادى ، ومحمد لا يريد أن يضم الى صفوفه مثل هؤلاء الناس من طلاب الغنائم ، وكانت جموع اليهود في خيبر من أقوى الطوائف الاسرائيلية بأسسا ، وأوفرها مالا ، وأكثرها سلاحا ، وأعظمها دربة على القتال ، لذلك وقفت شبه جزيرة العرب كلها متطلعة الى هذه الغزوة ، حتى لقد كان من قريش من يتراهنون على نتائجها ، ولم يتم له الغلب فيها . وكان كثيرون يتوقعون أن تدور

الدائرة على المسلمين ، لما عرف من قوة حصون خيبر ، وقيامها فوق
الصخور والجبال ، ولطول ممارسة أهلها للحرب والقتال . وكان المسلمون
يدركون تمام الإدراك ، ويقدرّون نتائج حق التقدير ، لذلك ذهبوا
مستقبلين لا يعرف التردد سبيلا إلى نفوسهم وكان النبي يدرك كذلك
قيمة هذا الموقف ، ويقدر أنه لو فشل أمام خيبر . فسيستغير ميزان القوى
إلى غير صالحه ، وربما حدثت نكسة أعادت إلى أعدائه قوتهم وحماستهم
لقتاله والهجوم عليه . ثم انه كان يدرك أنه ما بقيت لليهود شموكة في
شبه جزيرة العرب فستظل المنافسة بين دين موسى والدين الجديد حائلا
دون تمام الغلب له وحائلا دون تمام الوحدة التي يعمل لها ، والتي
يسعى لقرارها حتى يتم تكوين الأمة التي يريد لها نواة لمجتمع انساني
فاضل تحت لواء الاسلام ، وبانتهاء سلطان اليهود خفت حدة البغضاء
التي كانت في صدور خصوم المسلمين لهم . وتغير الموقف نهائيا في
جزيرة العرب لصالح المسلمين . وهكذا كان صلح الحديبية فتحا مبينا
أتاح للنبي صلى الله عليه وسلم فرصة احكام خطته ، وبدا بوضوح
لأصحابه أنه الرجل العبقرى الفذ الذي اكتملت له بصيرة القلب إلى
جانب تأييد السماء . . . ولهذا كان سلوكه حزما ، ونهجه حكمة ،
وتصرفه صوابا ، وعمله سدادا ، ورأيه توفيقا ، يؤيده الوحي ،
وتأزره عناية الله ، وهذه هي عقيدة المسلم التي لا يتحول عنها ،
ولا يرتاب فيها ، ولقد كان وقوفه صلى الله عليه وسلم لهذه القوى
الجبارة . أو العصابات الفاجرة ، دليلا على أنه لا يقف وحده ، وانما كانت
معه ارادة الله التي هي السلاح الذي لا يفشل ، والجيش الذي لا يغلب ،
ولولا ثقته بهذا الجانب المتين الذي كان ظهره اليه ، واعتماده عليه .
لخائنته الأسباب ، وتغلبت عنه الصواب ، وكان له تاريخ آخر غير هذا
التاريخ وقد كان لأصحابه في تلك الأدوار البطولية مواقف رائعة ، وجهد
مشكور ، حتى في غير ميدان الكر والفر ، وهو ما نسميه نحن الآن
بالحرب النفسية ، كما فعل نعيم بن مسعود في السفارة بين قريش
وبين بني قريظة في غزوة الأحزاب ، وهي السفارة التي كانت سببا في
فقدان الثقة بينهما فقدانا كان له أثره البارز في هزيمة الأحزاب
وانصرافها بالخزي والخيبة ، أو بعبارة أدق في فشل التجمع الذي أرادت
الأحزاب من ورائه الدخول إلى المدينة ، والقضاء على محمد وأصحابه حتى
لا تقوم له قائمة إلى الأبد ، وما كانوا يظنون أنه على الباغي تدور الدوائر ،
وليس أكثر من هذا الرعب الذي ملأ قلوبهم . والفزع الذي تحطمت به
نفوسهم ، إلى درجة أنهم وصل بهم الحال أن يتصوروا الخوف في كل
شيء . . . وقد حدث أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهى العام الذي

تضمنته المعاهدة ، وخرج مع أصحابه يريد دخول مكة ليقضى العمرة التي ساق لها الهدى في عامه السابق ، وعلمت قريش بقدمه أخذها الهلع وظننت أنه صلى الله عليه وسلم سيغدر بها ، ويفزوها في عقر دارها . . . وربما كان سوء الظن الذي يملأ نفوسهم سببا في أن يأمر الرسول صلى الله عليه وسلم أصحابه في طوافهم بالبيت أن يظهروا من النشاط والحركة ما يعلن عن القوة ، ويوحى بسلامة الأبدان ، ووفرة الصحة والعافية ، لتمتلىء نفوسهم بالرعب والخوف ، فقد روى أنه لما دخل المسجد اضطجع بردائه ، وأخرج عضده اليمنى وقال « رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة » وكان عدد المسلمين في هذه العمرة ألفين كانوا في نشاطهم وطوافهم وقوة تحركهم يمثلون الهول الطارق الذي زلزلت معه أفئدة قريش . . . وقد علا بلال ظهر الكعبة وأذن للصلاة ، وكان هذا المنظر الرائع الذي يملأ قلوب المسلمين بالثقة والاعتزاز مغريا لعبد الله بن رواحة أن يقذف في وجه قريش بصيحة الحرب لولا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال له مهلا يابن رواحة ، وقل لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وخذل الأحزاب وحده ، فنادى بهنا ابن رواحة رافعا صوته ، ورددها المسلمون بعده ، فتجاوبت بأصداؤها جوانب مكة ، وارتفعت رهبتها الى قلوب الذين كانوا بالجبال هربا من هذا المشهد الذي كان يثير في نفوسهم الحقد والكراهية ، وكانت أم الفضل زوجة العباس ابن عبد المطلب قد قدمت أختها ميمونة التي أحبت الاسلام وآمنت به ، ورغبت الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوج بها ، كما رغب عمه العباس كذلك ، وأثنى عليها بما يميل قلبه صلى الله عليه وسلم نحوها . فلما تقدم اليه صلى الله عليه وسلم سهيل بن عمرو صاحب المعاهدة أن يغادر مكة بعد الأيام الثلاثة قال له ماذا عليكم لو أعرسنا بينكم وأولمنا وأشركناكم معنا في طعام ، فقال له لا حاجة لنا بطعامكم . . . الا أن هذه الأيام الثلاثة التي أقامها صلى الله عليه وسلم هو وأصحابه بمكة كانت نموذجا طيبا للسلوك القويم ، والخلق الكريم ، والأدب الرفيع ، والمعاشرة الحسنة ، حملت كثيرا من العقلاء أن يعلنوا دخولهم في دين محمد ، حتى لقد وقف خالد بن الوليد فارس قريش ، وأحد أبطالها المغاوير ينادى في بطن مكة قائلا « لقد استبان لكل ذي عقل أن محمدا ليس بشاعر ولا ساحر وأن كلامه من كلام رب العالمين فحق على كل ذي لب أن يتبعه ، وأسلم باسلام خالد عمرو بن العاص وعثمان بن طلحة وكثيرون غيرهم وكان لاسلام هؤلاء جميعا الأثر البارز في أن مكة أصبحت قاب قوسين أو أدنى من الفتح الأكبر الذي نذك فيه معالم الشرك ، وحصون الكفر ، وتتهاوى فيه الأصنام على وجوهها .

ويصبح من المؤلف الى حد بعيد أن تكون هنالك عقيدة عنوانها « لا اله الا الله محمد رسول الله » ولهذا كان المسلمون مطمئنين كل الاطمئنان الى أن الزمن في صالحهم ، وأن ساعة النصر مقبلة لا محالة ، وأن المعاهدة القائمة بينهم وبين قريش اذا كانت تجعل الهدنة طويلة المدى تحتم على الطرفين أن يتجمعا موقفيهما فلا يدخل محمد مكة ولا تحدثه نفسه بها . فان الأذهان قد تفتحت لدعوته ، والقلوب قد تهيأت للاصغاء اليه ، واستجابة الناس له أصبحت من أيسر الأمور ، ورجحان كفته صار مما لا شك فيه ، ولا يكون له في الأيام المقبلة الا ما يرضى خاطره ، ويطمئن فؤاده .

حديث أبى سفيان

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر السنة السادسة كان همه صلى الله عليه وسلم أن ينتقل بدعوته الى خارج نطاق الجزيرة العربية في الروم وفارس ومصر وغيرها من البلاد النائية عنه ، وكان من هؤلاء الكثيرين الذى كتب اليهم يدعوهم بدعاية الاسلام ملك الروم ، وكان نص الخطاب الذى أرسله اليه « بسم الله الرحمن الرحيم من محمد بن عبد الله الى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فانى أدعوك بدعاية الاسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فان توليت فانما عليك اثم الأريسيين - الفلاحين - ويا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » . . . ونا وصل الكتاب الى قيصر ملك الررم هذا أراد أن يتقصى الحقيقة وأن يتأكد من المصير الذى يمكن أن يصير اليه حتى اذا ما استجاب للداعى ، ودخل فى هذا الدين ، واختط لنفسه طريقا جديدا ، كان قويا سليما لا غبار عليه ، ولا التواء فيه ، وهذا هو الشأن فى الرجل الذى تنفتح نفسه للحق ، وقلبه للنور ، وروحه للهداية ، حينما يتجه للصواب ، ويرحب بالخير ، وينظر الى معالم الطريق الذى يسلكه ، ولقد قال هذا الرجل لمن حوله « انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه ، وكان أبو سفيان بن حرب بالشام مع رجال من قريش فى تجارة ، فجاءت رسل قيصر لأبى سفيان ودعوه لمقابلة الملك فأجاب ، ولما قدموا عليه فى القدس ، قال لترجمانه . . . سألهم أيهم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبي . فقال له أبو سفيان أنا ، لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف غيره . . . فقال

قيصر ادن منى ثم أمر بأصحابه فجعلوا خلف ظهره . ثم قال لترجمانه
قل لأصحابه انما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه
نبي ، وقد جعلتكم خلفه ، كيلا تخجلوا من رد كذبه عليه اذا كذب ،
ثم سأله كيف نسب هذا الرجل فيكم . قال هو فينا ذو نسب ، قال
هل تكلم بهذا القول أحد منكم قبله ، قال لا . قال هل كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال ، قال لا ، قال فهل كان من آباءه من ملك
قال لا . قال فأشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، قال بل ضعفاؤهم ،
قال فهل يزيدون أم ينقصون ، قال بل يزيدون ، قال هل يترد أحد منهم
سخطه لدينه ، قال لا ، قال هل يغدر اذا عاهد ، قال لا ، ونحن الآن
منه فى ذمة لاندري ما هو فاعل فيها . قال فهل قاتلتموه ، قال نعم ،
قال فكيف حربكم وحربه ، قال الحرب بيننا وبينه سجال ، مرة لنا ومرة
علينا ، قال فبم يأمركم ، قال يقول اعبدوا الله وحده ، ولا تشركوا به
شيئا . وينهى عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمر بالصلاة والصدق والعفاف
والوفاء بالعهد وأداء الأمانة . فقال انى سألتك عن نسبه فزعمت أنه
فيكم ذو نسب ، وكذلك الرسل تبعث فى نسب من قومها . وسألتك
هل قال أحد منكم هذا القول قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد قال هذا
القول قبله ، لقلت رجل يأتى بقول قيل قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه
بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقلت ما كان ليزن الكذب
على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آباءه من ملك ،
فقلت لا ، فلو كان من آباءه من ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك
أشرف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم ، وهم أتباع
الرسل ، وسألتك هل يزيدون أم ينقصون ، فقلت بل يزيدون ، وكذلك
الايمان حتى يتم ، وسألتك هل يترد أحد سخطه لدينه فقلت لا ، وكذلك
الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ، وسألتك هل قاتلتموه فقلت نعم
وان الحرب بيننا وبينه سجال ، وكذلك الرسل تبلى ثم تكون لهم
العاقبة ، وسألتك بماذا يأمر ، فزعمت أنه يأمر بالصلاة والصدق
والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ،
وكذلك الرسل لا تغدر ، فعلمت أنه نبي ، وقد علمت أنه مبعوث اليكم ،
ولم أظن أنه متهم فيكم ، وان كان ما كلمتنى به حقا فسيملك موضع
قدمي هاتين ، ولو أعلم أنى أخلص إليه لتكلفت ذلك . قال أبو سفيان
فعلت أصوات الذين عنده ، وكثر لغطهم فلا أدري ما قالوه ، وأمر بنا
فأخرجنا . فلما خرج أبو سفيان مع أصحابه قال لقد بلغ أمر ابن أبي
كبيشة أن يخافه ملك بنى الأصفر ، ولما سار قيصر الى حمص أذن لعظماء
الروم فى دسكرة له ، ثم أمر بأبوابها أن تغلق ، ثم قال يا معشر الروم

هل لكم فى الفلاح والزهد وأن يثبت ملككم ، فتبايعوا هذا النبى ، فحاضوا حصة حمر الوحش الى الأبواب فوجدوها مغلقة ، فلما رأى قيصر نفرتهم قال ردوهم على ، فقال لهم انى قلت مقاتلى لأختبر بها شدتكم على دينكم ، فسجدوا له ورضوا عنه ، فغلبه حب ملكه على الاسلام فذهب باثمه واثم رعيته كما قال عليه الصلاة والسلام .. وهذه وثيقة تاريخية لها تقديرها واحترامها فى تاريخ محمد صلى الله عليه وسلم لأنها تنطوى فى حوارها وجدلها على السيرة العطرة التى يعتز بها المسلمون اذا ذكرت النبوات والرسالات ، فقد كانت هذه الأسئلة التى وجهها قيصر فى صميم الدعوة والدعاة الى درجة أنها تصلح لأن تكون دستوراً ، أو بمعنى أصح ميزاناً توزن به أعمال الرجال الذين يتصدون لقيادة الجماهير ، وتوجيه الانسانية ، وانقاذ المتورطين فى سلوكهم ، أو المتخبطين فى سيرهم ، ومن هذا الدستور أو الميزان نعرف ان كان الداعى من هؤلاء الذين ينشدون المجد ، ويطلبون الملك ، ويرجون السيادة على الناس ، أم انه من أولئك الذين يحملون المصابيح ، ويجعلون من أنفسهم زيتاً لها ليضيئوا للبشرية سبيل الخير ، وطريق البر ، ويأخذوا بأيديها الى حيث يكون النجاح والفلاح والفوز والنجاح دون أن يترقبوا على ذلك كله اجرا الا رحمة الله الذى له ما فى السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم .

ونحن ننظر الى هذه الوثيقة من ناحيتين اثنتين ، ناحية أشخاصها الذين أداروا دفة هذا الحوار ، وناحية الحوار نفسه .. أما الحوار فهو - كما رأينا - لم يترك شبهة تمر بالخطر ، ولا سؤالاً يجول بالذهن ، ولا اعتراضاً يمكن أن يطرأ على بال أحد ، الا أشبعه بحثاً ، وناقشه من جميع جوانبه وجعل الجواب عنه مسلماً لبدائة العقول ، لتصبح النتيجة المترتبة عليه ضرورية لا مفر من التزامها ، ولا ريب فى ترتيبها عليها ، كما تترتب النتيجة على المقدمات فى قانون المنطق السليم ، الا أن رجوع قيصر كان لعمى بصيرته التى غلب عليها حب الغانية على الباقية ، والدنيا على الدين ، والشيطان على الرحمان .. وانحرافه عن السنن ، والتواءه عن القصد ، ولا يطعن فى صحة المقدمات ، وسلامة الترتيب والترتب ، لأن الاعتبارات الأخرى كانت حجر عثرة بين الحق والواجب .

وأما الأشخاص الذين أداروا الحوار . ومثلوا هذا المنطق . فهما أبو سفيان وقيصر ، وكلاهما لا يمكن أن يحابى محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا أن يحابى دينه كذلك . ولهذا كان لراى كل منهما ميزانه بين الآراء .. وقد كان أبو سفيان من أساطين الكفر ، وكبار المعارضين للدعوة وصاحبها ، وكان يعنيه الى حد كبير أن يقول كلمة مدخولة ، أو رأياً مغموزاً ، أو حكماً جائراً ، يرسله مثل الصاروخ الموجه لينال به من

محمده أو من أصحابه أو من دينه الذي هز به الدنيا وزلزل به حصون
 الشرك والظغيان . ولكنه أثر الجانب الذي يتناسب مع رجولته الضخمة .
 وعروبته الأصيلة ، وبسالته الفذة ، وعقله الكبير ، وشرفه العظيم ،
 ونسبه النبيل ، ومكانته في قومه والقاضى أو الشاهد اذا ما تنبه لشرفه
 في قومه ، ومركزه في أهله ، ومكانته في البيئته التي يعيش فيها ،
 لم يذكر شيئا في هذا الوقت الا أن يكون صادق القول . عادل الحكم ،
 لا تحيط به ريبة ، ولا يعلق بعرضه دنس ، ولا تحل بساحته تهمة ،
 لأن ذلك يزرى بالمروءة والعرض . والسلوك والأخلاق ، وأبو سفيان
 مهما كانت خصومته لمحمد صلى الله عليه وسلم ، أو اختلافه معه في
 الرأي ، لا ينسى أنه ذلك الرجل الذي كانت له السيادة في قومه ،
 والزعامة في أهله ، وأن مثله في وضعه الذي كان عليه لا يليق به
 الاسفاف ، ولا يجل به النقص ، ولا ينزل الى مستوى السوق
 أو الدهماء ، ولهذا كان جديرا من النبي صلى الله عليه وسلم في يوم فتح
 مكة أن يعطيه الأمان وأن يطوقه بهذا الطوق من الفخار والشرف بهذا
 النداء الكريم « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وكان هذا سببا في
 ذلك الدهش الذي أصاب الناس في هذا اليوم وهم يزعمون أنه لا يزال
 يتزعم جبهة المعارضة ولم يفهموا أن التيار الجارف لا يعترضه الا الذي
 يبلغ به الحمق غايته ، وأبو سفيان ليس هو ذلك الرجل الذي يتجرد من
 عقله وحكمته ، وبصره ورأيه ، وصوابه وسداده ، ليكون كبش الفداء
 لكفار مكة الذين عميت بصائرهم ، وانحدرت أفكارهم ، وضلت أفئدتهم ،
 وقد صار من الحمق كل الحمق أن يتجاهل الحقائق ، أو يعترض قافلة
 الانقاذ ، أو ينكر نور الشمس .

فتح مكة

لا تزال الى هذا التاريخ مسسافة الزمن الذي تضمنته معاهدة الحديبية ، والتي اتفق بمقتضاها على أن تكون الهدنة بين الطرفين قائمة ، لا يعتدى أحدهما على الآخر ، ولا يعين عليه عدوا ، فان اعتدى حليف على حليف كانت غير سارية المفعول ، وكان ذلك فسحا للتعاقد القسائم بينهما ٠٠٠ الا أن غزوة مؤتة التي جاءت في أعقاب الحديبية وخرج فيها مائة ألف أو أكثر من الروم والعرب المواليين لهم في مقابل ثلاثة آلاف فقط من المسلمين كانت نهايتها على خلاف ما يرجو محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ولهذا أغرت هذه النهاية قريشا بالمسلمين من جديد ، وعاد وضعهم - أو كاذ يعود - الى مثل ما كان عليه قبل الأحزاب ، وكان من نصوص معاهدة الحديبية - كما نعلم - أن من أراد الدخول في حلف أحد الطرفين المتعاقدين دخل ، وكان من أثر ذلك أن دخلت بنو بكر في حلف قريش ، ودخلت خزاعة في حلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان بين بكر وخزاعة حزازات قديمة ، وثارات من سالف العهود أثرها وبعث كامن حقدما ما وصل اليه حال معسكر محمد وأصحابه في مؤتة التي لم يكن لجيشهم فيها من فضل الا فضل الانسحاب من غير أذى يلحق بهم ، ولا ضرر يلقونه ، ولقد كان من الضروري أن ينسحب جيش المسلمين لأن عدده - اثلاثة آلاف - لا يستطيع أن يصمد لجيش العدو البالغ عدده مائة ألف ، أو مائتي ألف على ما ترويه بعض الأخبار ٠٠ ولهذا أخذت بنو بكر تتحرش بخزاعة وتغال منها على أن حلفاءها قد انهزموا . ووصل ذلك الى حد الاشتباك ، وكانت قريش تساعد حلفاءها - بنى بكر - بالمال والسلاح متناسية أن ذلك خرق للمعاهدة ، زاعمة أن أحدا لا يعرف

هذا التحرك المستتر الذى تتحركه . . . لكن بعض الأفراد من خزاعة ذهبوا الى النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة وأخبروه نبأ ذلك البنكت ، وهذا الاعتداء ، وناشدوه أن يدرك حلفاءه الذين تعرضوا لعدوان لا قبل لهم برده . . . ويقول الشيخ الخضرى فى كتابه نور اليقين « اذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، وأزال موانعه ، وقد كان عليه الصلاة والسلام يعلم أنه لا تذلل العرب حتى تذلل قريش ، ولا تنقاد البلاد حتى تنقاد مكة ، فكان يتشوق لفتحها ، ولكن كان يمنعه من ذلك العهود التى أعطاها قريشا فى الحديبية - وهو سيد من وفي - ولكن اذا أراد الله أمرا هيا أسبابه ، وقد علمت أن خزاعة دخلت فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبكرا دخلت فى عهد قريش ، وكان بين خزاعة وبكر دماء فى الجاهلية . كمننت نارها بظهور الاسلام ، فلما حصلت الهدنة وقف رجل من بكر يتغنى بهجاء الرسول صلى الله عليه وسلم على مسمع من خزاعى . فقام هذا الخزاعى وضربه ، فحرك ذلك كامن الأحقاد ، وتذكر بنو بكر ثأرهم ، فشدوا العزيمة لحرب خصومهم . واستعانوا بأولياهم من قريش فأعانوهم سرا بالعتاد والرجال ، ثم توجهوا الى خزاعة وهم آمنون ، فقتلوا منهم ما يربو على العشرين . ولما رأى ذلك حلفاء الرسول - خزاعة - أرسلوا وفدا منهم برياسة عمرو بن سالم الخزاعى ليخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فعل بهم بنو بكر وقريش ، فلما حلوا بين يديه وأخبروه قال والله لأمنعنكم مما أمنع منه نفسى » .

أما قريش فانهم لما رأوا أن ما عملوه نقض للعهود التى أخذت عليهم ندموا على ما فعلوا وأرادوا مداواة الجرح فأرسلوا قائدهم أبا سفيان بن حرب الى المدينة ليشد العقد ، ويزيد فى المدة ، فركب راحلته وهو يظن أنه لم يسمعه أحد ، حتى اذا جاء المدينة نزل على ابنته أم المؤمنين أم حبيبة ، وقد أراد أن يجلس على فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم فطوته عنه ، فقال يا بنية أرغبت به عنى ، أم رغبت بى عنه ، فقالت ما كان لك أن تجلس على فراش رسول الله وأنت مشرك نجس ، فقال لها لقد أصابك بعدى شر . ثم خرج من عندها وأتى النبي فى المسجد فعرض عليه ما جاء اليه ، فقال عليه السلام هل كان من حدث قال لا فقال عليه السلام فنحن على مدتنا وصلحنا ولم يزد عن ذلك ، فقام أبو سفيان ومشى الى أكابر المهاجرين من قريش علمهم يساعدون على مقصده فلم يجد منهم معينا ، وكلهم قالوا جوارنا فى جوار رسول الله . . . فرجع الى قومه ولم يصنع شيئا . . . فاتهموه بأنه خانهم واتبع الاسلام ، فتشكك عند الأوثان لينفى عن نفسه تهمة الاسلام . . . أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه تجهز للسفر ، وأمر أصحابه بذلك وأخبر الصديق بالوجهة التى هو متجه اليها ، فقال له يا رسول الله أو ليس

بينك وبين قريش عهد ، قال نعم ولكنهم غدروا ونقضوا ، ثم استنصر عليه السلام الأعراب الذين كانوا حول المدينة ، وقال من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة ، فقدم جمع من قبائل أسلم وعفار ومزينة وأشجع وجهينة ، وطوى عليه السلام الأخبار عن الجيش كيلا يشيع الأمر فتعلم قريش فتستعد للحرب ، والرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد أن يقيم حربا بمكة بل يريد انقياد أهلها مع عدم المساس بخرمتها فدعا مولاة جل ذكره وقال : اللهم خذل العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها فقام حاطب بن أبى بلتعة أحد الذين شهدوا بدرًا وكتب كتابا إلى قريش يخبرهم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرسله مع بجارية لتوصله إلى قريش على عجل . فاعلم الله رسوله بذلك فأرسل في أثرها عليا والزبير والمقداد : وقال انطلقوا حتى تأتوا بوضعة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب فخذوه منها . فانطلقوا حتى أتوا للروضعة فوجدوها بها المرأة فقالوا لها أخرجي الكتاب أو لنلقين عنك الثياب فأخرجته من عقاصها . فأتوا رسول الله ، فقال عليه السلام يا حاطب ما هذا قال يا رسول الله لا تعجل على . انى كنت حليفا لقريش . ولم أكن من أنفسهم ، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهلهم وأموالهم فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدا يحمون بها قرابتي ، ولم أفعله ارتدادا عن ديني ، ولا رضا بالكفر بعد الاسلام ، فقال عليه السلام أما إنه قد صدقكم ، فقال عمر دعنى يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق ، فقال إنه شهيد بدرًا ، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم . . وفى هذا نزل قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم أن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل » ثم سار عليه السلام بهذا الجيش العظيم فى منتصف رمضان بعد أن ولى على المدينة ابن أم مكتوم . وكانت عدة الجيش عشرة آلاف مقاتل ولما وصل الأبواء لقيه اثنان كانا من أشد أعدائه وهما ابن عمه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب شقيق عبيدة ابن الحارث شهيد بدر وصهره عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة شقيق أم المؤمنين أم سلمة وكانا يريدان الاسلام فقبلهما عليه السلام وفرح بهما فرحا شديدا وقال : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين وقد قابل عليه السلام فى الطريق عمه العباس بن عبد المطلب مهاجرا بأهله وعياله فأمره بأن يغود معه إلى مكة ويرسل عياله إلى المدينة ولما وصل عليه السلام من الظهران أمر بإيقاد عشرة آلاف نار وكانت

قريش قد بلغها أن محمدا زاحف بجيش عظيم لا تدرى وجهته فأرسلوا
أبا سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء يلتهمون الخبر
عن رسول الله فأقبلوا يسرون حتى أتوا من الظهران فإذا هم بنيران
كأنها نيران عرفة . فقال أبو سفيان ما هذه النيران لكأنها نيران عرفة ،
فقال بديل بن ورقاء نيران بنى عمرو . فقال أبو سفيان عمرو أقل من
ذلك ، فرأهم ناس من حرس رسول الله فأدركوهم فأخذوهم قاتوا بهم
رسول الله . وكان العباس قد سمع صوت أبي سفيان وحذره ما يضمه
له الرسول إذا لم يدرك نفسه بالاسلام وأخذه الى الرسول فأعلن اسلامه
وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسبقه المنادون بمكة « من دخل
داره وأغلق بابَه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل
دار أبي سفيان فهو آمن » وعند دخول مكة أخذ بيده العباس ووقف معه
ليستقبله كتاب الجيش كتيبة كتيبة وكان أبو سفيان يسأل عنها واحدة
واحدة ويقول مالي ولها حتى إذا مرت كتيبة الأنصار وحامل رايتها سعد
ابن عباد قال سعد يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة فشكى أبو سفيان ذلك
الى النبي فقال له كذب سعد ولكن هذا يوم يعظم الله فيه الكعبة . وكان
يوم الفتح يوم سلام وأمان ، واستقبال خافل توجه النبي صلى الله عليه
وسلم فيه بقوله لهؤلاء الذين كانوا يظنون أنه سيرفع عليهم سياط
الانتقام اذهبوا فانتم الطلقاء » واستثنى من ذلك جماعة عظماء ذنوبهم
وأذوا الاسلام وأهله أعظم ألوان الأذى فأهدر دمهم وان تعلقوا بأستار
الكعبة منهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح الذي أسلم وكتب لرسول
الله الوحي ثم ارتد واقترب على الله الكذب وكان يقول أن محمدا كان
يأمرني أن أكتب عليهم حكيم فأكتب غفور رحيم فيقول كل جيد . . ومنهم
عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية . وكعب بن زهير . . على أنهم
جاءوا بعد ذلك الى النبي صلى الله عليه وسلم وأعلنوا اسلامهم وقبل منهم
وعفا عنهم . . وقد كان لجيش خالد بن الوليد رهبة أشاعت الذعر
والخوف في قلوب أهل مكة حملتهم على أن يقاوموه ويصدوا زحفه عليهم
فقاتلهم وقتل منهم أربعة وعشرون . وقتل من جيشه اثنان فقط . .
وأما جيش رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يصادف صدا ، ولم
يلاق مقاومة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم راكب دابته منحن
على الرحل تواضعا لله وشكرا على هذه النعمة ، وكان من الانحناء تكاد
جبهته تمس الرحل ، وكان أسامة بن زيد رديفه ، وكان ذلك صبح يوم
الجمعة لعشرين خلعت من رمضان حتى وصل الى الحجون موضع رايته ،
وقد نصبت له هناك قبة فيها أم سلمة وميمونة فاستراح قليلا ثم سار
وبجانبه أبو بكر يحادثه وهو يقرأ سورة الفتح حتى أتى البيت وطاف به
سبعما على راحلته ، واستلم الحجر بمحجنه ، وكان حول الكعبة اذ ذاك
ثلاثماية وستون صنما ، فجعل عليه السلام يطعن بها يعود ويقول « جاء

الحق وزهق الباطل » « وما يبدىء الباطل وما يعيد » ثم أمر بالآلهة التي كانت بها فأخرجت من البيت وفيها صورة اسماعيل وإبراهيم في أيديهما الأزام ، فقال عليه السلام . قاتلهم الله لقد علموا ما استقسموا قط وهذا أول يوم ظهرت فيه الكعبة من هذه المعبودات الباطلة . وبطهارة الكعبة المقدسة من هذه الأدناس سقطت عبادة الأوثان من جميع بلاد العرب والى هنا تكون عصاة الشريك في مكة وغيرها قد تهاوت أعلامها . ودالت دولتها ، ولم يعد في إمكانها أن تعامل محمدا بالأسلوب القديم الذي كانت تعامله به ، والذي كان يقوم على العنف والشدّة . والقسوة والغلظة . وعدم المساواة ، وهي الآن تخطب وده ، وتعمل جهدها كله لتكتسب رضا ، وتقيم علاقاتها معه على المعاهدات المتكافئة ، والعهود المرعية ، فإذا شعرت أنها أخلت بشرط من الشروط بعثت كبيرا من ساستها يرجو محمدا صلى الله عليه وسلم أن يتغاضى عن حقوة المص ، وحماقة المعتدى ، ولقد رأينا كيف مادت الأرض من تحت أقدامها ، وتهددتها الأخطار ، وأحاط بها الهلع والفزع ، لأن خيانتها قد تكشفت ، وامدادها لبنى بكر بالسلاح والمال فى اشتباكها مع بنى خزاعة قد عرف ، أو وصل أمره الى النبي صلى الله عليه وسلم . فلم تشأ أن تسكت على ذلك أو تصبر وراحت ترسل قائدها لعناد النبي وحره ليؤكد - من جديد - عهد الحديبية الذي نقضوه وخاسوا به ، فلما لم يجدها ذلك تقيرا ولا قطميرا استسلمت للأمر الواقع ، ودخل محمد عليها مكة دخول الظاهر المنتصر ، فلم تقاوم دخوله ، أو تعترض طريقه ، أو تشهر في وجهه سيفا ، باستثناء تلك المناوشة التى قوبلت بها كتيبة خالد ، ولم يكن دخول جيش محمد وحله فى هذا اليوم هو كل شيء ، ولكن الذى كان هو كل شيء .

أولا : أن يطلب النبي صلى الله عليه وسلم من سادن الكعبة عثمان ابن طلحة مفتاح الكعبة فيعطيه إياه طائعا راضيا دون مقاومة أو تردد .
ثانيا : أن تتحطم على مرأى ومسمع منهم تلك الأصنام التى كانوا يعكفون على عبادتها من دون الله .

ثالثا : أن يعلن اليهم أنه فى موقف القوة الذى يسمح له بالعفو عنهم اذ يقول اذهبوا فأنتم الطلقاء .

رابعا : أن تتوافد عليه وفود الرجال والنساء تبايعه على الإسلام والطاعة ، والبذل والفداء بعد أن أدركوا أن فى ذلك انقاذا لأرواحهم ، وحقنا لدمائهم .

وهذه كلها معان تدل على أنه صلى الله عليه وسلم كان يتحدث من موطن القوة لا من موطن الضعف ، وتلك لحظة من اللحظات التاريخية

النادرة عوضه الله بها عن شدة كان يلاقيها ، وكل هزيمة حلت به ،
وكل إيذاء أصابه . نصرا عزيزا أرضى خاطره ، وأثلج صدره ، وأراح
فؤاده . ورفع رأسه ، وبيض وجهه ، وبوأه مقعد صدق عند مليك
مقتدر . ونسى الرسول صلى الله عليه وسلم احن هؤلاء وعدوانهم ،
ووضع نصب عينيه أنه الرحمة المهداة للناس .

والتقارىء لأنباء هذه الغزوة وأحاديثها يعثر على كثير من الأخبار
الطريفة ، والمفارقات الحلوة ، التي تنبئ عن اخلاص المؤمنين لدينهم ،
ودعوة نبينهم اخلاصا يفوق حلم الوصف . . وربما كان أروع هذه الصور
للاخلاص للدين وللرسول صلى الله عليه وسلم ما صنعتته أم المؤمنين حبيبة
بأبيها أبي سفيان الذي ظن أنه سيجد في جوارها من الحنان والرحمة ،
والاحلال والاحترام ، ما يخفف عنه ما يحمله من هموم . وما لاقاه في
طريقه من عناء ، ولكنه رأى أن أبوته لا قيمة لها . إلى جانب ما تحتفظ
به لرسول الله صلى الله عليه وسلم من قداسة . وما ترتعاه له من
حق ، وأن الواجبات التي يملئها تملئها الدين لها عند الاعتبار الأول ،
وقد قدم لنا أبو سفيان صورة للرجل الكبير الذي يقوم كبريائه على
الزيف ، ويعتمد على الباطل ، وينحاز إلى حزب الشيطان ، ويفتصب
جاهه ، وسلطانه من الأوباش والغوغاء ، حتى إذا ما جده الجدد ، وانتصر
الحق على الباطل تضائل ذلك الحجم ، وتهاوى ذلك الكبرياء ، وبست
الصورة الصحيحة على حقيقتها أقل من لا شيء في العدد . . يمر به
العباس بن عبد المطلب على نيران المسلمين ليدخل في نفسه الرعب ،
ويلقى هو على هذا المنظر المذهل بقوله إنها كئيران عرفة ، وبراء عمر
رضى الله عنه فيقول عدو الله أبو سفيان أمكن الله منه بغير عقد
ولا عهد . ويهم بقتله ويمنعه العباس قائلا له انه في جوارى ، ويدخل
به على النبي صلى الله عليه وسلم ليعلن اسلامه حقنا لدمه ، وابقاء على
نفسه ، ويتندر الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله ، أما أن لك أن
تعلم ألا اله الا الله فيقول له بلى . . فيقول له وأن محمد رسول الله
فيقول له أما هذه ففي النفس منها شيء ، فيقول له العباس قلها قبل أن
تضرب عنقك ، فيشهد ويتجه العباس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
ويقول له ان أبا سفيان يحب الفخر فاجعل له ذكرا ليظفر منه فيما بعد بتلك
الكلمة « من دخل دار أبي سفيان فهو آمن » وإلى هنا تزول دولة الظلم ،
وسلطان الباطل ، ويعود الهاربون من العدالة عكرمة وصفوان ووحشى
وعبد الله بن الزبيرى وكعب بن زهير - صاحب بانة سعاد - وأكلة
الكبود هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان بعد أن ضاقت بهم الأرض بما

رحبت ولم يجدوا سبيلا أقوم من أن يسلموا رقابهم الى رسول الله صلى
الله عليه وسلم ليمن عليهم بالحرية . وتقول هند والله يا رسول الله
ما كان على ظهر الأرض أهل خباء أحب الى أن يذلوا من أهل خيائك ،
ثم ما أصبح اليوم أهل خباء أحب الى أن يعزوا من أهل خيائك .

بعد الفتح

على الرغم من أن المناوشات التي طال مداها بين كفار مكة ومن كان معهم من المشركين وبين النبي صلى الله عليه وسلم • وذلك الخذلان الذي أصابهم الله به في كثير من المواقف • وأنهم لم يشكوا بعد هذه المسيرة الطويلة انه رسول الله حقاً وصدقاً • وان فتح مكة كان من حقه أن يسدل الستار على الفصل الأخير من تلك المأساة التي كانوا يمثلونها • وأنه صلى الله عليه وسلم قد صار بيده زمام المبادرة - كما يقولون وأن يوم الفتح هذا كان صورة لانتصار الحق على الباطل • وعنوانا على أن عقارب الساعة لا ترجع الى الوراء ، وأن هؤلاء الذين دخلوا في دين محمد صلى الله عليه وسلم في هذا اليوم والقوا سلاح الحرب والمعاوضة كانوا يبرهنون بهذا الصنيع على أن من الحق كل الحق أن يظنوا على هذا الباطل المفضوح • أو الطيش الواضح ، الا أن الاحن القديمة • والعداوات السابقة ، والحسد الذي فتت الأكباد في أولئك الذين كانوا يتقمون على الرسول صلى الله عليه وسلم أن يخصه الله بهذا الفضل ، وأن يحتظيه دون غيره بهذا التكريم • ويجعل بيده زمام القيادة والريادة ، والحديث باسمه ، والتبليغ عنه • • وقد بدا ذلك كله في نفوس هذه الجماعات المترامية - بعيدا عن مكة - في الجنوب ، اذ كان تحطيم الأصنام وتطهير البيت الحرام قد أصابهم بالهلع والفرع • وطنوا أن الدائرة ستدور عليهم لا محالة • وأنهم لا بد أن يستميتوا من جديد في اسكات هذا الصوت • أو القضاء على ذلك الخطر الزاحف ، والغزو المحقق ، والسلطان المتمكن والطوفان الذي سوف لا يبقى ولا يذر ، وأن أهل مكة اذا كانوا قد القوا السلاح ، أو كفوا عن الكفاح ، أو سلموا بهذا الدين الواحد ، فلما بينهم وبين الداعى اليه من القرابة والنسب ، أو لأن الدعوة لواحد منهم وذلك تشريفا لهم ، وهذه أمور لا يضعها في اعتبارهم أهل الجهات الأخرى من

الذين لم يجاوروا البيت الحرام ، لذلك هبت هوازن وتقيف بزعامه مالك بن عوف وانضم اليها كثير من البطون والقبائل وساقوا معهم أموالهم ونساءهم وأطفالهم ، ليكون هذا الذي ساقوه من الأموال والنساء والأطفال داعيا إلى الجهد ، وباعثا على الاستبسال ، ومشجعا على الاستشهاد ، وكان مالك هذا في مقتبل شبابه ، يغلى في عروقه دم البطولة ، ويترقرق فيه ماء النشاط والاقدام ، وقد أمر جنوده أن يقفوا على قمم حنين على شكل العصابات ، وأن يتحينوا مرور المسلمين بالوادي لينقضوا عليهم من كل ناحية ليفرقوا جمعهم ويستولوا على ما بأيديهم من مقامات وإسلاط . وكان المسلمون في هذه الآونة لم يمتض على فتحهم مكة . واعتباطهم بهذا الظفر العظيم أكثر من أسبوعين . ولما ترامى اليهم هم والنبي صلى الله عليه وسلم نبأ هذه المؤامرة لم يكن هنالك من بد أن يستجيبوا لهذه المواجهة التي فرضت عليهم ، والتي كان من الضروري أن يخوضوا غمارها ، ونحن نعلم أن الجيش الذي كان معه صلى الله عليه وسلم حين دخل مكة كانت عدته عشرة آلاف مقاتل انضم اليهم ألفان من الذين أسلموا بعد الفتح . وبهذا العدد الضخم الذي لم يتوفر له صلى الله عليه وسلم في وقت من الأوقات واجه المشركين في حنين ، إلا أن المسلمين اندفعوا في ظلمة الليل لهذا الكر والفر حيث لم يتبين لهم الهدف . ولم يستطع الجندي في ميدان المعركة أن يميز بين صديقه وعدوه . وإلى جانب هذا فقد سرى الغرور إلى النفوس وخيل اليهم أن هذه الكثرة التي توفرت لهم ستجعل النصر لهم من غير شك . وهنالك قال قائلهم لن نغلب اليوم لكثرتنا ، ويقول الدكتور هيكل في كتابه « حياة محمد » « وساروا حتى بلغوا حنيناً والمساء يقبل فنزلوا على أبواب واديها ، وأقاموا بها حتى بكره الفجر ، هنالك تحرك الجيش ، وركب محمد بغلته البيضاء في مؤخرته ، على حين سار الخليل ابن الوليد على رأس بني سليم في المقدمة ، وانحدروا من مضيق حنين في واد من أودية تهامة ، وانهم كذلك اذ شئت بامرة مالك بن عوف وأصلوهم عليهم القبائل . »

وابلا من النبال وهم جميعا منهزمين قد أخذ الخوف منهم كل مأخذ حتى أطلق بعضهم ساقيه إلى الريح ، والنبي في المؤخرة نمر عليه القبائل واحدة واحدة مولية الأدبار منهزمة لا تلوى على شيء ، وهو — كما نرى — موقف من أشد المواقف على النبي صلى الله عليه وسلم . لأنه سيعرضه هو وأصحابه للموت وهنالك تذهب أيام كفاحه ، وأصوات دعوته ، وجهوده التي بذلها ، وشهادته التي عانها ، دون أن يكون لها أثر من الخير ، أو نصيب من الإصلاح ، أو معنى من احقاق الحق .

وابطال الباطل ، سوى أن يقول التاريخ والناس ، كان هنالك انسان
يحمل راية ، وينادى بدعوة ، ويأمر ببر ، ويوجه الى سلوك وينقذ من
ترد ، لم يصادفه التوفيق ، ولم يقترن به النصر ، ولم يجد صوته طريقة
الى القلوب والأفئدة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم كان له من قوة ايمانه ،
وصدق يقينه ، وعظيم ثقته فى الله ، ما جعله مع هذه الشدائد على أمل
قوى فى أن الله لا يتخلى عنه ، فجعل ينادى الناس بالثبات على مواقفهم ،
والصبر على مقاومتهم ، وثار به حميته فأراد أن يندفع فى غمار العدو
لكن ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب منعه ، وكان عمه العباس
قوى الصوت فأخذ يقول يا معشر الأنصار يا معشر المهاجرين ان رسول
الله حى فهللوا ، وتجمعوا حوله صلى الله عليه وسلم وكانت المعجزة ،
توصورت لهم نفوسهم ما يكون وراء هذه الهزيمة من خذلان لهذا الدين ،
أو ضياع لهذه الدعوة . وذل لهذه الجماعة ، فعاد اليهم نشاطهم أقوى
مما كان . وكروا على المشركين بالقتل والايادة . وما هى الا لحظات حتى
كانوا يحصدون الجموع ، ويخيفون الصناديد ، ويطاردون الجباهير ،
ويجمعون الغنائم ، ويأخذون الأسلاب ، وإلى هذه الصورة من غرور
المسلمين بكثرتهم ، وفرازهم من المعركة ، واستهتارهم بالنظام . وعدم
اتخاذ الحكمة والحيلة مع العدو ، تشير الآية الكريمة من سورة التوبة
« لقد نصركم الله فى موطن كثيرة ويوم حنين اذ أعجبكم كثرتم فلم تغن
عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل
الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين
كفروا وذلك جزاء الكافرين ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله
غفور رحيم » . وقد كان هذا الموقف من أشد المواقف على رسول الله
صلى الله عليه وسلم ايلاما لنفسه ، ووقعا على قلبه ، واتعابا لخاطره ،
وحزنا لفؤاده . هو والمسلمون معه ، لأنهم دفعوا ثمنه غاليا جدا . وهو
الى جانب ما أصابهم فيه من خذلان ، كان مسببا فى ازهاق أرواح ، وفناء
أنفس ، لا تعدد بالأفراد ولا المئات ، ولكنها أكثر من ذلك كله . وان كان
هذا البأس جاء وراء النصر المبين فيما بعد ؟ اذ أنزل سبحانه جنودا
لم يروها كان لها الفضل كل الفضل فى هذا النصر الذى لا يقل فى
روعته وحسن عاقبته عن النصر فى بدر الذى كان حدا فاصلا بين الكفر
والايمان ، والحق والباطل ، أو العدالة والظلم ، وكأنما أراد الله بهذا
الذى كان يوم حنين أن يلحق المسلمين درسا ثانيا . بعد هذا الذى كان
فى يوم أحد . ليعلموا أن الحيلة والحذر ، واليقظة والانتباه ، وامتنثال
أوامر القائد ، والاعتماد على الله ، والتضحيات التى لابد منها ، من الأمور
الضرورية لأصحاب المبادئ ، وأرباب الرسالات . ومن يحملون راية
الاصلاح ، أو الدعوات النبيلة ، وبحسن السبك قد ينفى الدغل . كما

يقول ابن الوردي - وقد صح أن مالك بن عوف الذي كان يقود هذه
المعركة الشرسة قد التجأ الى الطائف وفيها ثقيف ، وفي الطائف وثقيف
كان للنبي صلى الله عليه وسلم تاريخ قديم قبل الهجرة لا ينساه ، اذ
فر اليهم من ظلم أهل مكة له ، وعنفهم معه ، وقسوتهم عليه ، رجاء أن
يجد في دعوته لهم قبولا ، وفي التجائه اليهم حماية ، فكان كالمستجير
من الرمضاء بالنار ، لأنهم طاردوه ، وأغروا به سفاهم ، ورموه بالحجارة ،
واذا كان الشاعر الحكيم يقول « لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها » فان
هذه الأفعى التي قطع المسلمون ذنبها بهذا النصر الذي أحرزوه يوم حنين
كان لابد أن يكون وراءه استئصال للفتنة « ان كنت شهما فاتبع رأسها
الذئبا » لذلك كان من الضروري الذهاب الى ثقيف بالطائف ، وكانت
حصونها هنالك متينة يصعب اقتحامها أو الوصول اليها ، غير أن ذلك لم
يمنعه صلى الله عليه وسلم أن يذهب اليها ، وأن يحاول النيل منها ،
واذلال أهلها ، والتغلب عليهم ، وكسر شوكتهم ، وقد قال أحد الأعراب
لرسول الله صلى الله عليه وسلم انما ثقيف في حصنها كالثعلب في جحره
لا سبيل الى اخراجه منه الا بطول المكث ، فان تركته لم يلحقك منه ضرر ،
لكنه صلى الله عليه وسلم شق عليه أن يعود أدراجه دون أن يصيب منها
شيئا في طريقه هدم حصنا خاصا بمالك بن عوف ، وأخذ المسلمون بعد
ذلك يحرقون كروم الطائف ونخيلهم ، وأمر مناديا ينادى أن من جاء من
ثقيف مستسلما فقه نجا بأهله وماله ، فجاء اليه قرابة عشرين أخبروه
أن بالحصن من الذخيرة والطعام ما يكفي للبقاء فيه أمدا طويلا ، وهنالكَ
رأى صلى الله عليه وسلم أن طول المكث على هذا الوضع سيجعل الملل
يدب الى نفوس المسلمين ، وكان الذي بأيديهم من مغانم حنين كثير ،
وتوزيعه عليهم سيقوى من روحهم المعنوية ويسرى عنهم ، وأنهم بحاجة
الى الاستجمام بعد تلك المعاناة ، وكان ذو القعدة قد استهل فأعلن اليهم
أنه راجع وأنه سيعود الى اتمام مسيرته الى الطائف اذا انتهت الأشهر
الحرم ، وانصرف هو والمسلمون معه الى مكة ولما وصلوا الجعرانة جلسوا
لاقتسام الغنائم ، وقد جاء اليه وفد من هوازن وفيهم أبو برقان عمه
من الرضاعة ، والشيماء بنت الحارث بن عبد العزى وهى أخته من
الرضاعة كذلك ، وطلبوا منه أن يرد اليهم ما أخذ منهم من الاموال
والأنفس ، وأنهم مسلمون ، فأجابهم الى ذلك فى غبطة وارتياح ، وقد
سألهم عن مالك بن عوف فأجابوه انه لا يزال بالطائف ، فطلب اليهم
أن يبلغوه أنه ان جاء اليه مسلما رد عليه أهله وماله وأعطاه مئة من
الابل ، ولم يلبث مالك أن حضر اليه صلى الله عليه وسلم حين بلغه
ذلك ، وكانت مغانم حنين هذه قاصرة على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم أمثال
أبى سفيان ، وسهيل بن عمرو ، وحويطب بن عبد العزى ، وقد دب الى

نفوس بعض الأنصار شيء من الألم لهذا . وقال بعض منهم لقي رسول الله قومه - يقصد أنه تعصب لهم . وانحاز الى جانبهم (اذ خصهم بالمغانم ولم يكن صلى الله عليه وسلم يقصد الا أن يكون لهم شيء عوضا عما فقدوه من مال وديار وضياع حين هاجروا وتركوا وراءهم كل شيء . وهناك وقف ليخطب فيهم وليقول لهم « ما قاله بلغتنى عنكم ، أوجدتم يا معشر الأنصار في العلالة من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم ، الا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشام والبعير وترجعوا برسول الله الى رحالكم ، فوالذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار » وبهذه اللباقة ، وتلك الحنكة والسياسة قضى على الفتنة ، وأخذ زيران العصبية . حتى قال الأنصار حينئذ نرجع برسول الله ، والى هنا يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد قضى على جاهلية العرب ، وأسكت صوتهم ، ولم يجعل للمعاوضة سبيلا اليه ، ولا سلطانا عليه ، والعرب بطبيعتهم أكثر الناس سلامة فطرة ، ونقاء سريرة ، وحبا للمنطق ، وميلا الى الأخذ بالتى هى أقوم من السبل السلمية ، والطرق المستقيمة . وقد يكون هذا الذى بذله رسول الله صلى الله عليه وسلم كافيا فى اقناعهم واقتناعهم بأنه رسول رب العالمين ، ولم يعلم أحد أنه بعد هذا الذى قام به من الدعوة قد ترك مجالا لهؤلاء الذين كانوا يرددون أو يشكون فى صدقه ، وأن الذى كان يتناوه عليهم وحى من عند الله ، لذلك قد انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ما تتطلبه السياسة الحازمة لحكم هذه الدولة الجديدة . وما يقتضيه تدبير شئونها ، من صيانة الحقوق ، ورد المظالم ، وكفالة الأمن ، وسيادة العدل ، وحرية التصرف ، فأرسل من يجمعون زكاة الأموال ، ومن يفصلون فى القضايا ، ومن يعلمون القرآن ، ولم تكن ناحية من نواحي الجزيرة تجهل أن عليها سلطانا يفرض عليها الأمن والحق والعدل والاستقامة على العبادة ، فلا يتمرد متمرد ، ولا يتناول متناول . ولا يبغي ظالم ، لأن الدعوة فيهم . ولرجل منهم ، وليس فيها ما يجالى العقل أو المنطق ، الا أنه صلى الله عليه وسلم لم يكذب طمئنا الى هذه الغاية المحمودة التى كان قد وصل اليها بتوفيق الله ورضوانه حتى ترامى اليه أن الروم تهيم له جيوشا لغزو الجزيرة من الحدود الشمالية ، فلم يتردد برهة فى القضاء على هذه النزوة ، والاستئصال لهذا الشر ، وذلك هو ما عرف فيما بعد بغزوة تبوك .

غزوة تبوك

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة • واذلاله لطواغيت
الشرك • وقادة الكفر ، تنهات القبائل والبطون على مبايعته على الاسلام
ودخولهم في دين الله أفواجا • وتحطيمه للأصنام التي كانت في الكعبة
وغيرها وقد أصبح له شأن دونه شأن الأباطرة والأكاسرة • والسلوك
والسلطين • وصار زخفه يزداد يوما بعد يوم بحكم نشر الدين ، وإعلان
العقيدة • وعموم الدعوة الى الناس جميعا • وهنالك دب الخوف الى نفوس
الروم والفرس وهما الدولتان الكبيرتان اللتان يتهدهما الغزو الاسلامي
حينئذ • وقد بلغه أن الروم تجمع الجموع للوقوف في وجهه ، والحد من
تحركه • والعمل على ألا يتجاوز نطاق دعوته من البلاد والعباد وراء
ما تجاوزته ، لأن ذلك سيجعلها في خبر كان لا محالة • طال الزمان
أو قصر ، فأعلن صلى الله عليه وسلم النفير العام في المسلمين لأنه علم أن
الروم لا يناجزونه وحدهم وإنما ينضم اليهم من لا يزال على الشرك من
العرب والأعراب الذين كان محمد صلى الله عليه وسلم أرغمهم ماداموا لم
يختاروا الاسلام على أن يدفعوا له الجزية عن يد وهم صاغرون •••
ويقول المؤرخون إن النبي صلى الله عليه وسلم كان مما أخذ به نفسه مع
المسلمين إذا أراد الخروج الى غزوة ألا يصارحهم بالجهة التي سينتهي اليها
مسير الجيش حتى لا يتسرب نأ ذلك الى العدو فيتأهب ، للقائه ، ولكنه
في هذه المرة قد أثر الإعلان والمصارحة ، والسبب في هذه المخالفة
أن السفر شاق ، لأنه الى تبوك في الشام • والجو حينئذ كان حارا ،
والشارع على وشك أن تنضج ، وقد تكون هذه الاعتبارات مجتمعة أو منفردة
مدعاة الى التعلل بها • وتغليب جانب البقاء على جانب الخروج • ولهذا

كان باب الاعتذار مفتوحا على «صراعيه» وبدأ النفاق فى أوضح صورته ، وأجلى معانيه ، على الرغم من التهديد الصريح الذى كان القرآن الكريم يقرع به الآذان فى مثل قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله يهتدى القوم الفاسقين » على أن هنالك من المسلمين من أبدى غاية الاخلاص فى الجهاد ، ونهاية البذل فى سبيل الله • مثل عثمان وأبى بكر وعبد الرحمن بن عوف • وأولئك الذين كانوا لا يجدون الظهر الذى يركبونه فجاءوا الى الرسول صلى الله عليه وسلم ليوفر لهم الظهر الذى يركبونه ، فلما قال لهم لا أجد ما أحملكم عليه تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ما ينفقون • ويظهر من أحداث غزوة تبوك أنها كانت آخر ما طفح به الكيل فى نفوس المنافقين ، اذ ظهرت كراهيتهم لأن ينتصر محمد ، أو يتمكن نفوذه ، ويقوى سلطانه ، بشكل لا التواء فيه ولا خفاء ، فانهم لم يتركوا لونا من ألوان الاعتذار ، ولا أسلوبا يعللون به تخلفهم ، وعدم خروجهم ، الا سلكوه والتجأوا اليه • وفى سورة التوبة تسجيل لهذه الألوان • وتلك الأساليب فى حين أن الله سبحانه وتعالى لم يطوها عن الرسول صلى الله عليه وسلم وانما أطلعه عليها • وبلغه اياها • وكان ذلك افتضاحا لحالهم • وكشفا لأستارهم • وقد حمل ذلك جماعة من المتخلفين أن يصارحوه صلى الله عليه وسلم أن تخلفهم لم يكن لعذر يلتمسونه التماسا ، أو يزورونه كذبا وبهتاناً ، وأنهم لهذا يتركون الأمر له ليقضى فيهم بما يجد أنه يتناسب مع تلك الجريمة ، وقد ربطوا أنفسهم بسارية المسجد • وقاطعهم الناس حتى زوجاتهم ثم نزلت فيهم الآية « وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى اذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا ألا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم ليتوبوا ان الله هو التواب الرحيم » • ويقول الدكتور هيكال « وانطلق الجيش بعد ذلك قاصدا تبوك ، وكانت الروم قد بلغها أمر ذلك الجيش وقوته فأثرت الانسحاب بجيشها الذى كانت وجهته الى حدودها ، ليتحصن داخل بلاد الشام فى حصونها ، فلما انتهى المسلمون الى تبوك ، وعرف محمد أمر انسحاب الروم • ونمى اليه ما أصابهم من خوف ، لم ير محلا لتتبعهم داخل بلادهم ، وأقام عند الحدود ، يتحدى من شاء أن ينازله أو يقاومه • ويعمل لكفالة هذه الحدود ، حتى لا يتخطى اليها بعد ذلك أحد • • وكان يوحنا بن روبة صاحب أيلة أحد الأمراء المقيمين على الحدود قد وجه اليه النبى صلى الله عليه وسلم

رسالة أن يدنن للإسلام أو يغزوه ، فأقبل يوحنا وعلى صدره صليب من ذهب . وقدم الهدايا ، وتقدم بالطاعة . وصالح النبي صلى الله عليه وسلم وأعطاه الجزية . كما صالحه أهل جرياء وأذرح وأعطوه الجزية . وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم كتب أمن . هذا نص أحدها وهو ما كتب به الى يوحنا « بسم الله الرحمن الرحيم هذه أمانة من الله ومحمد النبي رسول الله ليوحنا بن رؤبة وأهل أيلة سفنهم وسيارتهم فى البر والبحر ، لهم ذمة الله . ومحمد النبي ، ومن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن ، وأهل البحر ، فمن أحدث منهم حدثا فإنه لا يحول دون نفسه ، وإنه طيب لمحمد أخذه من الناس ، وأنه لا يحل أن يمنعوا ماء يردونه ، ولا طريقا يردونه من بر أو بحر » . . . وايدانا بالمواثقة على هذا العهد أهدي محمد صلى الله عليه وسلم الى يوحنا رداء من نسيج اليمن ، وأحاطه بكل صنوف الرعاية بعد أن اتفق معه على أن تدفع أيلة جزية قدرها ثلاثماية دينار كل عام .

وبهذا كله لم يبق محمد صلى الله عليه وسلم بحاجة الى القتال بعد انسحاب الروم ، وبعد معاهدة البلاد الواقعة على الحدود . وبعد أمنه عودة الجيوش البيزنطية من هذه الناحية . لولا خيفة انتفاض أكيدر بن عبد الملك الكندى النصراني أمير دومة الجندل ، ومعاونته جيوش الروم اذا جاءت من ناحيته لذلك بعث اليه خالد بن الوليد فى خمسمائة فارس . وانتقل هو بجيشه راجعا الى المدينة ، وأسرع خالد بالانتفاض على دومة الجندل فى غفلة من ملكها الذى خرج فى ليلة مقمرة ومعه أخ له يسمى حسان يطاردان بقر الوحش ، ولم يلق خالد مقاومة تذكر حتى أخذ حسانا وأخذ أكيدر أسيرين وهدد أكيدر بالقتل اذا لم تفتح دومة الجندل أبوابها . وفتحت المدينة فداء لأميرها . . . وساق خارج منها ألفى بعير وثلاثماية شاة ، وأربعماية وسق من بر ، وأربعماية درع ، وذهب بها ومعه أكيدر حتى لحق بالنبي صلى الله عليه وسلم وهناك عرض على أكيدر الاسلام فأسلم وأصبح حليفا . . . ولم يكن عود محمد صلى الله عليه وسلم على رأس هذه الألوف من جيش العسرة من حدود الشام بالامر الهين ، فلم يدرك كثيرون من هؤلاء مغزى الاتفاق الذى عقد مع أمير أيلة والبلاد المجاورة له . ولم يقيموا كبير وزن لما حققه صلى الله عليه وسلم بهذه الاتفاقات من تأمين حدود شبه الجزيرة واقامة هذه البلاد معاقل بينه وبين الروم ، بل كان كل الذى نظروا اليه أنهم قطعوا هذه الشقة الطويلة ، وتحملوا فى قطعها ما تحملوا من الأذى ، وها هم أولاء يعودون لم ينتموا ولم يأسروا ، بل لم يقاتلوا ، وكل الذى فعلوه أن أقاموا بشبوك قرابة عشرين يوما .

وكانهم لهذا قطعوا الصحراء في شدة القيظ في حين كانت ثمار المدينة قد طابت وأن أن يستمتع الناس بها . وجعل جماعة منهم يستهزئون بما فعل محمد . وينقل اليه نبأهم أولئك الذين ملأ الايمان قلوبهم ، فبأخذ المستهزئين بالشدة حيناً ، وباللين حيناً ، والجيش يسير قافلاً الى المدينة ومحمد يحفظ النظام في صفوفه ، حتى اذا انتهى اليها لم يلبث ابن الوليد أن لحق بها ومعه أكيدر وما حمل من دومة الجندل من ابل وشاة وبرود ودروع ، وعلى أكيدر حلة من الديباج ، موشاة بالذهب بهت أهل المدينة لمرآها . . . وهنالك اضطرب الذين تخلفوا عن الخروج معه اضطراباً رد المستهزئين الى صوابهم . وجاء المتخلفون يعتذرون ، وأكثرهم يشوب معاذيره الكذب ، وأعرض محمد صلى الله عليه وسلم عما صنعوا تاركاً لله حسابهم ، لكن ثلاثة صدقوا الله ورسوله فاعترفوا ، وأقروا بذنبهم . هم كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيع ، وهلال بن أمية ، وقد أمر النبي المسلمين أن يعرضوا عنهم . وظلوا على ذلك خمسين يوماً . لا تصل بينهم وبين مسلم تجارة ، ولا بيع أو شراء ، ولا أية معاملة على أى لون من الألوان ، ثم تاب الله على هؤلاء الثلاثة ، ومنذ ذلك اليوم ابتدأ النبي صلى الله عليه وسلم يشتد مع المنافقين شدة لم يالفوها من قبل . وذلك أن عدد المسلمين زاد زيادة تجعل عبث المنافقين بهم خطراً يخشى منه ، ولا بد من تلافيه وعلاجه ، وهم قد ازدادوا من بعد أضعاف زيادتهم اليوم . وذلك ما لم يقد بنفس محمد ريب فيه بعد أن وعده ربه لينصرن دينه ، وليعلن كلمته ، ولقد كان له من قبل حين كان الاسلام محصوراً بين المدينة وما حولها أن يشرف بنفسه على ما يجري بين المسلمين ، أما وقد انتشر الاسلام في أنحاء بلاد العرب جميعاً ، وما هو ذا يشارف الانتقال منها ، فكل تهاون مع المنافقين شر له خطره وضرره وعاقبته الوخيمة . وما أسرع ما يستشرى الخطر اذا لم تجتث جرثومته . . . وقد بنى جماعة من هؤلاء مسجداً بنى أوان - على بعد ساعة من المدينة - والى هذا المسجد كان يأوى جماعة من المنافقين يحاولون أن يحرقوا لكلام الله عن مواضعه . وأن يفرقوا بذلك بين المؤمنين ضرراً وكفراً . وطلبت هذه الجماعة الى النبي صلى الله عليه وسلم أن يفتتح ذلك المسجد بالصلاة فيه وكان طلبهم هذا قبل تبوك فاستمهلهم حتى يعود من تبوك . فلما عاد وعرف من أمر المسجد وحقيقة ما قصده اليه هؤلاء من اقامته أمر باحراقه وضرب بذلك مثلاً ارتفعت له فرائص المنافقين فخافوا وانكمشوا ولم يكن هنالك من يساندتهم ويغريهم بالتمرد والنفاق وحوك المؤامرات الا عبد الله بن أبي الذي مرض بعد تبوك بشهرين مات بعدهما . . . وغزوة تبوك تمت كلمة الله في شبه

الجزيرة كلها ، وأمن محمد صلى الله عليه وسلم عوادي الخارجين ، وحرب
 المناوئين ، وكيد المبطين ، وأقبل الناس من هنا وهناك يقدمون قروض
 الولاء والطاعة ، ويعلنون الاسلام . وكانت خاتمة غزواته صلى الله عليه
 وسلم لتمكين كلمة التوحيد ورفع راية الاسلام ، ولقد كانت سورة التوبة
 السجل الواعى لأخبار هذه الغزوة ، ولقد عرضت لكل لون من ألوان
 النفاق الذى تذرع به أولئك الذين كانوا مرضى القلوب ، حينما كان لهم
 ظاهر وباطن يغاير كلاهما الآخر فى حقيقته المكشوفة . ومعناه المفضوح .
 حتى لقد كانت هذه السورة تسمى عند علماء التفسير بالفاضحة لأنها
 فضحت أعراضهم وهتكت أستارهم ، وكشفت عيوبهم . ولقد كان النبى
 صلى الله عليه وسلم غنيا فى معاملهم كما ثبت ذلك مع الذين اتخذوا مسجدا
 ضارا ، وكما ثبت كذلك مع الثلاثة الذين خلفوا ، الا أن ذلك كله كان
 آخر المطاف حين لم يبق فى قوس الصبر منزع - كما يقولون - والا فان
 الباب كان مفتوحا لهم على مصراعيه لا فى الاستئذان الكثير الذى عاتبه الله
 عليه بقوله « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم
 الكاذبين لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم
 وأنفسهم والله عليم بالمتقين انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم
 الآخر ، وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون » . وعلى الجملة فان هذه
 الغزوة على الرغم من أنها كانت خالية من المواجهة والمجابهة الا أنها كانت
 مجابهة لهؤلاء الذين كانوا مرضى بضمايرهم وأفئدتهم اذ ظهروا للرسول
 صلى الله عليه وسلم - وللمسلمين كذلك - على حقيقتهم من غير زيف
 ولا طلاء . وفى الوقت الذى تكامل للدولة الاسلامية تفوذها الذى لا يمكن
 لاحد أن ينكره كانوا هم قد تكاملت لهم وسائل الانهزام ، وعناصر
 الضعف ، وألوان الاهتزاز والذبذبة . وكذلك تكون نهاية الموتى .

وربما تغاضى صلى الله عليه وسلم عن بعض المنافقين فلم يأخذهم
 بالشدة كما أخذ غيرهم ارضاء لذويهم أو بعض قرابتهم وكان عمله هذا من
 صميم الحزم والكياسة . . . وقد كان هذا واضحا تمام الوضوح فى عبد الله
 ابن أبى راس المنافقين الذى طالما هم بعض المسلمين أن يقتله فلم يرض
 الرسول صلى الله عليه وسلم ولم يشجع عليه . وحين وفاته صلى الله عليه
 صلاة الجنازة ارضاء لابنه الذى كان من خيار الصحابة ، وان كان صلى الله
 عليه وسلم قد نهى بعد ذلك عن مثل هذه الصلاة « ولا تصل على أحد
 منهم مات أبدا ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم
 فاسقون » وقد كان لهذه الصلاة وقع طيب فى نفوس الحزرج الذين كانوا
 يحبون عبد الله ويعترفون له بالفضل . . . ومهما كان الحال بين الدين والشدة

في معاملة المنافقين فان أحدا لا يشك في أنهم أصبحوا منذ تبوك يعاملون بالعنف ، ويؤخذون بالشدة ، ويجعلون مع المشركين في قرن واحد . . . وقد كان المشركون أنفسهم يتنفسون الصعداء الى ما قبل تبوك لكنهم بعدها أخذوا يشعرون بالغربة والذلة والمهانة والضعف ، ويشعرون بأن الأرض تميد من تحتهم وقد أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم أبا بكر في أخريات ذى القعدة من السنة التاسعة ليحج بالناس ولم يشأ أن يخرج هو بنفسه لأنه كان غير راض عن حج المشركين الى بيت الله الحرام مع أن ذلك كان مألوفاً في الجاهلية وقد سبق له صلى الله عليه وسلم أن استنفرهم للحج في غزوة الحديبية ، ولهذا نزلت الآيات في سورة التوبة تنبذ اليهم عهدهم ، وتمنع أن يدخل البيت مشرك « يا أيها الذين آمنوا انما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وان خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ان شاء ان الله عليم حكيم » وذهب علي بن أبي طالب ممثلاً رسمياً للنبي صلى الله عليه وسلم ليعلن ذلك الانذار الرسمي « وأذن من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله فان تبتم فهو خير لكم وان توليتهم فاعلموا أنكم غير معجزي الله وبشر الذين كفروا بعذاب أليم » وبهذه المرحلة من القوة والعزة والنفوذ والسلطان التي وصل اليها الاسلام كان في الوضع الذي يسمح له بأن يصدر أوامره ونواهيته من مركز القوة التي يحسب لها الناس ألف حساب . فلا يستطيع أحد أن يعارضها أو يقف في وجهها الا اذا تجرد من العقل ، أو كان مقامراً بروحه التي بين جنبيه ، وهيهات أن يكون هنالك شيء من ذلك كله الا عند المجانين الذين جردهم الله من العقل والادراك . . .

بعد تبوك

غزوة تبوك لم تكن غزوة بمعنى الكلمة يواجه فيها فريق فريقاً ، أو جيش جيشاً ، لأن الروم قد فروا الى داخل بلادهم ، ولم يرق لهم أن يواجهوا محمداً صلى الله عليه وسلم والمسلمين معه ، الا أن نبأ هذا الانسحاب كان له وقع على البقية الباقية من العرب الذين كانوا لا يزالون على وثنيتههم ورأوا أن الأليق بهم وقد صار لمحمد صلى الله عليه وسلم هذا السواد العظيم من الأتباع والأنصار . وقد انسحبت من وجهه هذه الدولة العظمى التي كان لها نفوذ واسع عليهم وعلى غيرهم أن يبادروا الى الاستجابة لدعوة محمد قبل أن يجدوا أنفسهم أمام الأمر الواقع - كما يقولون - لذلك وفدت عليه الوفود ، وجاءت اليه الجماعات تعلن دخولها في دينه ، وانضمامها الى مفسكره وكانوا أكثر من سبعين وفداً . ومن حسن المصادفات أن ثقيف بالطائف ، وهي صاحبة النار القديم مع النبي صلى الله عليه وسلم التي واجهته أسوأ مواجهة حين التجأ اليها من عسف قومه بمكة ودعاها الى الله . وقد زدته أسوأ رد كانت من الذين بادروا الى الاستجابة وان كانت قد ترددت طويلاً قبل ذلك ، وقد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم منهم عروة بن مسعود وأعلن اسلامه وتفهد للنبي صلى الله عليه وسلم باسلام قومه ، وقد حذر النبي من قتلهم له ، فرد عليه بأنهم يحترمونه كل الاحترام ، ويحبونه ولا يخرجون على طاعته ، لكنه حينما دعاهم رموه بالنبل فمات ، ولما رأوا أن الناس قد أنكروا عليهم ذلك أعلنوا اسلامهم بعد أن بعثوا رجلاً منهم يعرض على النبي الصالح معهم هو « عبد اليل » وظلوا في ضيافة النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة زمناً طويلاً وصاموا رمضان هنالك وكان هو الذي كان يبعث اليهم بالزاد والطعام وهم في المسجد ثم عادوا الى الطائف ، وقد طلبوا ابقاء طينهم اللات ثلاث سنوات فلم يجابوا

الى ذلك ، وطلبوا - كذلك - أن يعفوا من الصلاة فلم يجابوا ، وهكذا
توالى الجماعات والطوائف للدخول في دين الله أفواجا ، ولم يبق من يناوئ
محمدا صلى الله عليه وسلم الا نفر قليل ممن كانوا يظنون دعوته دعوة ملك
وسلطان وقد أخذوا يعرضون عليه أن يشاركوه النفوذ ، ويقاسموه
السلطان ، وهو يرد عليهم بأن ذلك الذي يدعوه به ، صلة بالله ، وعبادة
له ، وفناء في ذاته ، وعقيدة يجب امتلاء القلب بها ، من هؤلاء عامر بن
الطفيل الذي ذهب مع قومه اليه للدخول في دينه ، فلما مثل بين يديه
طلب منه أن يكون ندا له في الرسالة ، ودعوى نزول الوحي عليه ، فلما
أنكر عليه النبي ذلك ، انصرف من عنده وهو يقول له لاملأن عليك الأرض
خيلا ورجالا ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم اللهم اكفني عامر بن الطفيل
فأصابه الطاعون وهو في الطريق فالتجأ الى بيت سلوية فمات به ، وحين
حضرتة الوفاة قال يعجب من أمر نفسه ، غدة كغدة البعير وموت في بيت
سلوية ، وكذلك فعل صاحبه أربد بن قيس الذي أبى وعاد الى بنى عامر
فهبت عليه صاعقة أحرقتة وهو محمول على جمل خرج به الى السوق
ليبيعه ٥٠ وفي هذا العام الذي كثرت فيه الوفود مقبلة على رسول الله تعلن
اسلامها ، وتدخل في طاعته ، أمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج
أبو بكر رضى الله عنه الى البيت الحرام حاجا ومعه المسلمون ولم يشأ أن يخرج
هو صلى الله عليه وسلم لأن كثيرا من عادات الجاهلية الأولى كانت تسيطر
على أعمال الحج ، كطواف الناس عرايا ، ودخول المشركين جنبا الى جنب
مع المسلمين ٥ ولا يمكن لأحد أن يمنعهم للعهود القائمة بينهم وبين المسلمين
حينئذ ، وهناك نزلت سورة التوبة وفيها التحلل من هذه الارتباطات ،
وتلك العهود ، والنهى عند ذلك الطواف ، ومنع المشركين من دخول البيت
لأنهم نجس وبراءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا
في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي الله وأن الله مخزي الكافرين
وأذن من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله يرى من المشركين
ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم وإن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزي الله
وبشر الذين كفروا بعذاب أليم الا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم
ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا اليهم عهدهم الى مدتهم
ان الله يحب المتقين فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث
وجدتموهم وخذوهم واحصوهم واقعدوا لهم كل مرصد فان تابوا واقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم ٥٥ وهكذا الى الآية
الأربعين من السورة « وهى كما ترى فى ألفاظها وقوة ردها ، وعظيم
تخويفها ، كقذائف المدافع ، ليس فيها مهادنة ولا لين ، مما يدل على أن
فترة ارخاء الحبل ، أو ترقيع الفتق ، أو الأخذ بالثى هى أحسن ٥ قد انتهت

الى غير رجعة ، وأن الخطاب مع هؤلاء قد أصبح من مصدر القوة لا مصدر الضعف ، وأن أسلوب المعاملة اليوم غيره بالأمر ، وأن الاسلام الذى كان يعفو أن يصفح صار يأخذ بالصرامة ويعامل بالشدة ويجازى على السيئة بمثله ، وذهب على رضى الله عنه والناس يؤدون مناسكهم بمنى ليعلمها ثم يقول من مصدر القوة أيها الناس انه لا يدخل الجنة كافر . ولا يحج بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عهد عند رسول الله فهو الى مدته ، وبنهاية هذا الموسم من الحج انتهت هذه الأمور كلها وصار البيت الذى جعله الله مثابة للناس وأمناً أتقى من ماء المزن ، وأطهر من قلوب التوابين الأوابين ، لا يدخله الا من تأدب بأدب الاسلام ، وتجرد من أرجاس الدنيا ، وأدناس الشرك ، وعبادة غير الله ، وبهذا الموقف القوى الذى أعلنه « براءة » كان الحد الفاصل بين الدولة الناشئة الصغيرة التى كان يمثلها محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه من حوله فى المدينة ، وبين الدولة القوية التى يمثلها هذا السواد العظيم لا فى المدينة وحدها ولكن فى مكة والطائف واليمن وكل الأطراف هنا وهناك ممن ينطقون الضاد وغيرها ويرون أن سلامة أرواحهم . واستقرار أحوالهم ، واطمئنان نفوسهم ، واستقامة سلوكهم ، وطهارة أعراضهم ، وضمان حقوقهم ، إنما هى فى هذا الدين الذى يعلنه محمد صلى الله عليه وسلم وينادى به ، وقد كان خروجه صلى الله عليه وسلم الى الحج فى العام الذى بعد هذا العام ، ودعوة المسلمين للخروج معه فى هذه الكثرة الكثيرة وخطبته الجامعة المانعة التى رسم فيها الخطوط والمعالم ، بمثابة الشكر لله الذى أسبغ عليه نعمته ، وأتم رسالته وهى فى الوقت نفسه اعلان عن هذه القوة الجارفة التى لا يقف فى وجهها الا الحمقى أو المجانين ، وكذلك يكون النصر للحق لا للباطل « والله العزة ولسوله وللمؤمنين » .

حجة الوداع

بعد هذا الاعلان الصارخ الذى تولى اذاعته على بن أبى طالب رضى الله عنه ، والذى أردفه بأنه لا يدخل البيت مشرك • ولا يطوف به عريان ، كان لابد لهؤلاء جميعا أن ينكمشوا ، وأن يؤمنوا ايمانا لا شك فيه أن الدولة المسلمة لا حياة فيها الا لمن يدين بدينها ، ويدافع عن حوزتها ، ويبذل جهده كله للدفاع عنها ، وأن وجود غير المسلم مهما اتسع صدر الدولة له ، وأحسننت اليه • وضمنت له البقاء الطيب • والعيش الناعم ، والاستقرار الآمن • فانه فى النهاية أشسبه بالواغل المتطفل ، أو الغريب المقحم ، أو الحاقد الموتور ، تحيط به الريبة ، ويكتنفه الشك ، وتترامى حوله الظنون ، ولا يطمئن اليه المسلم ، وربما كانت هذه قضية اتفقت عليها مبادئ علم الاجتماع ، ولهذا أعلن القرآن الكريم هذا المبدأ « ولا تؤمنوا الا لمن تبع دينكم » • وقد رأينا أن الحروب والخلافات التى تثيرها الأفراد والجماعات ويستعصى فيها الوثام والصلح ترجع عن طريق مباشر أو غير مباشر الى هذا السبب الذى ينتهى فى آخر أمره الى الدين ، والصراع الذى كان بين اليهودية والنصرانية غير منكور ولا بعيد • لذلك كله أدركت هذه الفلول المشتركة فى أطراف الجزيرة أو فى داخلها انه لا علاج لتلك العلة المستعصية الا بالدخول فى هذا الدين • وأن وجودها خارج نطاقه حكم عليها بالاذلال ، والهوان الى الأبد • وعندئذ أخذت الوفود من نجران وعبد القيس وبنى حنيفة وكندة وأزد شنوءه وهمدان وعلبة وغسان وبنى أسد وبطون وقبائل كثيرة تتوافد عليه صلى الله عليه وسلم لتعصم دماءها من السفك ونفوسها من الازدراء ، وحياتها من الامتحان ، ومستقبلها من الضياع ، وتتعاهد على الاسلام الذى يرفع أهله من ذات الصدع الى ذات الرجع وهنالكَ كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد اطمأن كل الاطمئنان

الى أنه لا يحجج مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، فاعلن أنه فى هذا العام - العاشر - سيخرج الى بيت الله الحرام ، ودب حنين المصاحبة له ، الى نفوس كثير من المؤمنين الذين أرادوا أن يكون لهم شرف الارتباط به صلى الله عليه وسلم ، وخرج معه تسعون ألف أو مائة ألف . ومشوا تמיד الأرض من تحتهم . وترقص النجوم من فوقهم . ويمتلئ الجو من حولهم بالفرح والسرور . ، يتقدمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ناقته القصواء قائلا ، لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، ان الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك « وهم من ورائه بصوت واحد يرددون قوله ، ويصيخون الى نغمته الحلوة ، ومقاطعه الرتيبة ، وموسيقاه التى تنساب فى النفوس انسياب الحياة المملوءة بالأمل والرجاء ، ولما دخل مكة وشاهد البيت قال « اللهم زده تشريفا وتعظيما ومهابة وبراً ، وطاف به سبعا واستلم الحجر الأسود وصلى ركعتين عند مقام ابراهيم ثم شرب من ماء زمزم وسعى بين الصفا والمروة سبعا - كذا - وكان اذا صعد الصفا والمروة يقول : « لا اله الا الله ، الله أكبر ، لا اله الا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » وفى الثامن من ذى الحجة توجه الى منى فبات بها . وفى التاسع توجه الى عرفات وخطب خطبته المشهورة التى ودع فيها هذه الأمة التى كافح من أجلها ، وحارب فى سبيلها ، وظل ثلاثا وعشرين سنة يرسم لها المستقبل الأفضل ، والسلوك الأمثل ، والحياة الأكمل ، والعيش المغمور بالسعادة ، ونص هذه الخطبة كما جاء فى كتب التاريخ والسيرة « الحمد لله نعمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب اليه ، ونعوذ به من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد ألا اله الا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أوصيكم عباد الله بتقوى الله . وأحثكم على طاعته ، وأسئلكم بالذى هو خير « أما بعد « أيها الناس اسمعوا منى فانى لا أدرى لعل لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا . . . أيها الناس ان دماءكم وأموالكم حرام عليكم الى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا ، ألا هل بلغت اللهم فاشهد . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها ، وان ربا الجاهلية موضوع ، وان أول ربا أبدا به ربا عمى العباس بن عبد المطلب ، وان دماء الجاهلية موضوعة . وأول دم أبدا به دم عامر بن ربيعة بن الحارث ، وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية ، والعمد قود ، وشبه العمد ما قتل بالعصا والحجر وفيه مائة بعير فمن زاد فهو من أهل الجاهلية . . . أيها الناس ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم . . . أيها الناس ان النسيء زيادة فى الكفر يضل به

الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله . وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ، وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا في كتاب الله يوم خلق الله السماوات والأرض منها أربعة حرم ثلاث متواليات : واحد فرد .. ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذي بين جمادى وشعبان الا هل بلغت اللهم اشهد . ٥٠ أيها الناس ان لنساءكم عليكم حقا ولكم عليهن حق . ٥١ الا يؤظنن فرشكم غيركم ، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف ، وانما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيرا الا هل بلغت اللهم اشهد . ٥٢ أيها الناس انما المؤمنون اخوة ولا يحل لامرئ مال أخيه الا عن طيب نفس الا هل بلغت اللهم اشهد ، فلا ترجعن بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ، فاني قد تركت فيكم ما ان أخذتم به لم تضلوا بعدى كتاب الله الا هل بلغت اللهم اشهد . ٥٣ أيها الناس ان ربكم واحد وان أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي فضل على عجمي الا بالتقوى الا هل بلغت اللهم اشهد فليبلغ الشاهد منكم الغائب . ٥٤ أيها الناس ان الله قد قسم لكل وارث نصيبه من الميراث ولا تجوز لوارث وصيته ، ولا تجوز وصية في أكثر من الثلث ، والولد للفراش وللعاهر الحجر ، من ادعى الى غير أبيه أو تولى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وفى هذا اليوم نزل قوله جل شأنه « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الاسلام ديناً » وأدى صلى الله عليه وسلم مناسك الحج من رمى الجمار والنحر والحلق والطواف وبعد أن أقام بمكة عشرة أيام قفل واجعا الى المدينة . ولما بدت له من بعيد معالمها الشامخة كبر كثيرا وقال : « لا اله الا الله وحده لا شريك له : له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير ، آييبون عابدون ساجدون لربنا حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده » . ٥٥٥ والواقع الذي لا شك فيه أن هذه الخطبة كانت وثيقة تاريخية رائعة حدد فيها النبي صلى الله عليه وسلم المعالم الصحيحة للمجتمع المتناسك القوي الذي يسوده التعاون والوفاء والحب والبر والرحمة والتعاطف والخير والسعادة والأمن والطمانينة والاستقرار والتقدم ، وكانت الدعامة الأولى لهذا كله صون الدماء والأموال

« ان ذماءكم وأموالكم عليكم حرام » فان الجماعات والشعوب والأمم لا تسودها الفوضى والانحلال ، ويسيطر عليها القلق والاضطراب ، وتتحول الى أحراش وغابات تسكنها الوحوش الضارية ، والذئاب المفترسة ، الا اذا رخصت فيها الدماء على الناس الى هذا الحد الذى لا يجد فيها القاتل من يضرب على يديه ، ويحول بينه وبين سفك الدم الحرام ، ولهذا كانت الكلمة القرآنية « ولكم فى القصاص حياة تشبه الدستور العادل ، والقانون الصحيح ، والنظام الذى لا بد منه ، لوجود البيئة المترابطة ، التى يجمعها الحق • ويصلها البر ، ويمسكها العدل • حتى يمكن أن تحصل على السعادة التى تنشدها ، والاستقرار الذى تطلبه ، وكذلك كانت للأموال هذه الاعتبارات ، لأن المال عصب الحياة ، فاذا لم يكن لها تلك الحرمة ، كانت الحياة جحيما ، والعيش لونا من ألوان التعاسة ان لم يكن هو التعاسة بذاتها •

وكانت الدعامة الثانية أداء الأمانة فمن كانت عنده أمانة فليؤدها الى من ائتمنه عليها » وأداء الأمانة عنوان من عناوين الثقة المتبادلة بين الأفراد والجماعات ، ووجود هذه الثقة أمر ضرورى للتكتل الأسرى والشعبى الذى لا بد منه لقيام حياة اجتماعية بين الناس • والانسان مدنى بالطبع - كما يقولون - ولا يمكن ل انسان أن يعامل انسانا تنعدم الثقة بينه وبينه ، وبهذا تتفكك الروابط • وتذوب الوشائج ، ولا يقوم بين الناس اجتماع ، وهنالك تعطل المصالح • ويصيبها الشلل والموت • • وهكذا اذا مشينا مع الخطبة خطوة خطوة وجدناها تفيض بالنصح الخالص ، الذى لا يصدر الا من قلب قد امتلأ بالحب والبر ، والشفقة والعطف ، والرغبة الملمحة فى الفلاح والنجاح والسداد والرشاد ، لمن يوجه اليه القول • ويخصه بالتقويم ، ويأخذ بيده الى السواك السوى والصراط المستقيم ، فهى تعلن الحرب الساخنة على الربا وأهله لما فيه من مفساد كيان الأمم والشعوب ، وتضر بالعلاقات القائمة بين الناس ، وتندد بالذى يتهاون فى دينه حتى يارتكاب الصغائر التى يعتاد لها • مستهينا لشأنها ، مستحقا بها ، وهى الخطوة الأولى الى جحود القلب ، وظلام البصيرة ، وقسوة الفؤاد ، والجرأة على الله ، وسوء الأدب معه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ومعظم النار من مستصغر الشرر « ان الشيطان قد يئس أن يعبد فى أرضكم هذه ولكنه قد رضى أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من أعمالكم » لا تهاون فيه ولا تغافل ولا تباطؤ ولا تراخى ولا نقص ولا زيادة كذلك • فان حصل فى دقة الامثال والتطبيقات كان ذلك هو الثغرة التى ينفذ منها الشيطان الى ضمير المؤمن ليقوده الى المعصية ثم الى الغضب عليه من الله ثم الطرد من رحمته جل وعلا •

وفى الخطبة مقدار عظيم من الاهتمام بالمرأة لأنها نصف المجتمع وبخاصة حين تكون زوجة فان وضعها يكون شائكا ، لأن حياتها مع الرجل وهى قائمة على الحب المتبادل ، والوفاء من كليهما للآخر ، والثقة المتوفرة بينهما . تحتاج الى صون حرمانه ، والمحافظة على عرضه « ألا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم ولا يأتين بفاحشة » وهى على كل حال بالنسبة للرجل مخلوق ضعيف « وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا » الا أنها مع هذا الضعف تستطيع أن تكون شيئا ذا أهمية فى ذلك النعيم الواسع الذى ينشده الرجل من البناء بها ، والحياة معها . وهذه السعادة . وذلك النعيم ، لا يمكن وجودهما ، الا اذا لاحظ الرجل من جانبه هذا الوضع التركيبى لهذا المخلوق الضعيف . الوضع الذى يحتم عليه أن يعاشرها بالمعروف « فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ، وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا تأخذونه بهتاناً وإنما مبينا ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم الى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا » . . . وليس أدل على روح الاخلاص ، وحب الخير ، والرغبة الصادقة فى الإصلاح ، من قوله صلى الله عليه وسلم فى أول الخطبة « اسمعوا منى فانى لا أدري لعلى لا ألقاكم بعد عامكم هذا » ورحمه الله صلى الله عليه وسلم فقد كان موقفه بحق موقف وداع تجلى فيه العطف والود ، وهو كما يقول عن نفسه الرحمة المهداة ، أو كما يقول القرآن الكريم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم فى جهاده الشاق ، وفى حياته القاسية ، وفى مقاومته للشرك انما يعمل لتمكين هذا الدين ، وسيادة هذه الشريعة ، وسعادة هذه الأمة ، فاللهم أجزه عنا أحسن الجزاء ، ورطب ألسنتنا بالصلاة والسلام عليه رجاء أن نؤدى له بعض ما يجب ، وأنت وحدك الذى تعين على الخير ، وتوفق للصواب ، وقلوبنا بيدك واعتمادنا عليك ، يا نعم المولى ونعم النصير . .

أصحاب النبي

الذي يتابع أخبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم • وكيف كان أدبهم معه ، واحترامهم له • وشروطهم به ، وأنهم كانوا يهشون للقاءه ، ويعاشرونه بالمعروف ، ويعاملونه بالتي هي أحسن من جميل الخلال ، وعظيم الفعال ، ووقوفهم إلى جانبه دون أن يتقدموا عليه ، أو يرفعوا أصواتهم لديه ، ثم يجعلونه رائد لهم وقائدهم ، وأستاذهم الذي يأخذون عنه • ويستفيدون منه ، ولا غضاظة أو مضاضة في ذلك كله • وإنما هو عن رضا وارتياح • ورغبة واطمئنان • وحب وإيمان ، يدهش الدهش ، البالغ أن تكون في آدمية بنى آدم هذه الطهارة ، وذلك الاخلاص والنقاء والايثار • وتلك الانسانية التي لم يشبها نفاق • أو يدفع إليها غرض وهوى ، أو مغنم من مغنم الدنيا يصيبونها • ويحصلون عليها ، وراء العقيدة السليمة والاخلاص المحض ، والحب الرباني الخالي من الشك والذبدبة ، ولقد كان أبو بكر رضى الله عنه الصورة الواضحة في ذلك كله • فما عرف عنه أنه تجاوز حدوده معه • أو شك في حديثه له ، أو أساء الأدب عليه ، أو مل وجوده إلى جواره • أو زهد في صحبته • وكذلك كان اخوانه من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، يرونه صلى الله عليه وسلم مكمل وجودهم ، ومطهر نفوسهم • ومتمم دينهم ، ومقوم سننهم • ومصحح عقيدتهم • ومنير عقولهم ، وموجه قلوبهم ، ومناط فخارهم • وموئل تطلعاتهم • ولقد صبح أن عمر رضى الله عنه حينما فتح الله قلبه للإسلام • وأخذ سبيله إلى دار الندوة ليلتقى به صلى الله عليه وسلم هنالك ليعلن إليه أنه دخل في دينه • وأنه سيكون من جنوده ، الذين يقفون إلى جانبه ، ويدافعون عنه • خاف المسلمون - وقد رأوه مقبلا - أنه يضمم غلدا للنبي صلى الله عليه

وسلم . وأنه ما جاء الا لذلك ، وحينئذ تسابق كل واحد منهم أن يكون هو ضحية عمره ليفدى رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولم يكن واحد منهم الا وقد أبدى هذه الرغبة وأصر عليها . وفي هذه الآونة قال لهم النبي هونوا على أنفسكم فأنا ضالته المنشودة ، ولا بد من مقابلتى له ، لا تظنوا أنه ينال منى ، أو يصرعنى بقوته ، ولم يكن الا أن التقى به صلى الله عليه وسلم وجها لوجه وهزه هزة انخلعت لها مفاصله ثم قال له أما آن لك أن تسلم يا عمر وتدخل فى دين أهل النهى ، فقال له لهذا أنا جئت يا رسول الله ، فكبر المسلمون فرحا به ، وسرورا لأن الله قد هداه . وصار بعد ذلك للرسول أطوع من بناته ، وألزم لظله . وأقرب الى خاطره . وحين وقفت قريش فى وجهه صلى الله عليه وسلم ليؤجل دخوله الى مكة فى عمرة الحديبية كان رسولها اليه عروة بن مسعود الثقفى . وكان وهو يكلم النبي صلى الله عليه وسلم يعيث بلحيته - على عادة العرب حينئذ - وكان شعبة يضرب على يده انكارا لذلك . وخوفا من أن ينال النبي بسوء ، كأى رجل مشرك لم يؤمن به ، ولما انتهى المغيرة من هذه المهمة وذهب الى قومه قال لهم « يا معشر قريش اني جئت كسرى فى ملكه . وقيصر فى ملكه . والنجاشى فى ملكه ، وانى والله ما رأيت ملكا قط فى قومه ، مثل محمد فى أصحابه . لا يتوضأ الا ابتدروا وضوءه . ولا يسقط من شعره شئ الا أخذه ، وانهم لم يسلموه لشيء أبدا » ومعلوم أنه فى غزوة أحد حين هزم المسلمون وفر الفارون من حوله وقد وقف هو يتلقى رميات أعدائه كانوا يحيطون به احاطة السوار بالمعصم ليكونوا فداء له ، مما عساه أن يجيء اليه من هدوه ، وحين تأمر المتآمرون على قتله صلى الله عليه وسلم فى ليلة الهجرة كان على كرم الله وجهه فى مكانه فى حجرتة التى ينام فيها . وعليه بردته الخضراء ، وهو يعلم أنه مقتول لا محالة ، اذ عرض نفسه لأن يكون فى مكان هذا الذى يريدون قتله ، وهو مغطى ببردته ليؤكد لهم أنه هو تلك الضالة المنشودة ، وهو بذلك يعطى صورة الفدايئة الحققة من غير شك ، ولو أن رجلا غير على من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طلب منه فى هذا الوقت أن يمثل الدور الذى مثله على لما تردد أو توقف . ولقد كان عبد الله بن أبى بن سلول رأس المنافقين يعلن للنبي صلى الله عليه وسلم عليه اسلامه . وهو كما يقول القرآن الكريم فى أمثاله « قد بدت ، البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر . » يضمير الحقد ، ويخفى الكراهية ، ويكون فى نفسه الكيد والغدر . ولا يفتأ عند وجود الفرصة أن يزرع الشوك فى طريق النبي صلى الله عليه وسلم هو والمسلمون معه ، وحدث يوما ما أن تنازع مهاجر مع أخيه الأنصارى واشتد بينهما الخلاف ، وقد جعل هو من ذلك سبيلا الى أن يوقظ الفتنة النائمة .

ليقول للأنصار ، ما يغريهم بالمهاجرين ثم أردف ذلك بقوله • لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » وهو من غير شك يقصد بالأعز نفسه ، أما الأذل فهو النبي وأصحابه • ولكنه لما عرف أن ذلك قد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذهب إليه ثم حلف أنها لم تصدر عنه • وكان الوحي قد نزل على النبي صلى الله عليه وسلم ليقول له في أول سورة المنافقون • « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد أنك لرسول الله والله يعلم أنك لرسوله والله يشهد ان المنافقين لكاذبون » وقد استأذن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتله ، وقال يا رسول الله مرني لأقتل رأس النفاق عبد الله بن أبى بن سلول ، فقال له لا أحب أن يقول الناس محمد يقتل أصحابه ، ولما بلغ ذلك ابنه عبد الله - وكان من خيار المسلمين ، شدة إيمان ، ونقاء سريرة • وحبا للنبي صلى الله عليه وسلم - قال له يا رسول الله بلغنى ما صنع أبى وتسبق الناس إلى قتله • فمرني يا رسول الله أن أقتله ، فأنى أخشى أن قتله غيرى ألا تطيب نفسى بذلك • وأن تدفعنى الحمية لأقتل قائله ، وهنالك أعود إلى حظيرة الكفر ، إذ قتلت مسلما فى كافر • وحينئذ قال له رسول الله صلى الله عليه وسلم • طيب نفسا يا عبد الله فأننا لا نقتل أباك ولا نسيء إليه • وما كان هذا الولد يريد قتل أبيه إلا مرضاة لرسول الله صلى الله عليه وسلم • وكأنه كان فى هذا الوقت يضع نصب عينيه قوله سبحانه « قل ان كان آباؤكم وأبنائكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأئى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين • • ولا يكتفى بهذا القول بقوله الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يقطع الطريق عليه ويرغمه على أن يقول أنا الأذل ورسول الله صلى الله عليه وسلم الأعز ، فى مقابل تلك الكلمة التى أرسلها أبوه والتى نطق بها القرآن الكريم لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين » وهذه أمثلة فقط لهذا الحب ، وهذا التبجيل ، وذلك الاحترام ، وهم الذين كانوا وهم يخاطبونه يقدمون بين يدي خطابهم له كلمة « بأبى أنت وأمى يا رسول الله » ولقد كان لهم أن يعاملوه هذه المعاملة ، ويحيوه ذلك الحب • ويتعلقوا به هذا التعلق ، وهو الذى كان يعتز بهم • ويهش لهم ، ويأسى إلى لقائهم • ويطمئن إليهم ، ويملاهم قلبه وخواطره ، ثم لا يسعه بعد ذلك كله إلا أن يقول « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » ويخلق عليهم هذا الرداء من الفخار والشرف ، والاحلال والتقدير ، ولقد صح أنه كان يتابع أخبارهم ، ويسأل عنهم ، ويشاطرهم فى الآمال والآلام ، وقد تفقد يوما علقمة فلم يجده ، فلما سأل عنه قالوا

له هو يارسول الله فى النزاع الأخير . فبعث اليه من يلقيه الشهادتين فاستعصى عليه النطق بهما . فأخبروه بذلك صلى الله عليه وسلم ، فقال آله من والديه من لا يزال حيا ، فقالوا أمه . فقال أحضروها ، فلما حضرت قال لها ماذا ترين فى علقمة ، فقالت لم أنكر منه يا رسول الله الا أنه كان يقدم زوجته على ، ويصغى اليها دونى ، ويستجيب لندائها ويحسب حسابها وان كان ذلك لا ينقص منى شيئا . وهنالك قال الرسول صلى الله عليه وسلم اجمعوا لنا خطبا لنحرق علقمة جزاء غضب أمه عليه . وهنالك صاحبت الأم قائلة لا تفعل يا رسول الله ، ولا أرضى لابنى وفلذة كبدى أن تأكله النار ، ولا يكون هذا على مرأى منى ومسمع ، فقال لها ان أمر ذلك اليك ، ان رضيت عنه نجا من النار ، وان ظلمت على غضبك كانت له نار الدنيا ونار الآخرة ، فقالت أشهد الله ورسوله والملائكة والانس والجن والأرض والسماء أنى راضية عن ابنى علقمة ، وأطلب له من الله العفو والمغفرة . فى هذه الآونة إستجاب علقمة لمن كن يلقيه الشهادتين نطق بهما من غير تلغثم ولا لجلجة وأخبروا النبى بذلك فدعا له بالجنة . . وهكذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم مع أصحابه من الرعاية لهم . والحدب عليهم ، والتفانى فى توجيههم للخير ، وارشادهم للأفضل ، وكانوا يرونه الأمر الذى لابد منه . ولا استغناء عنه ، وصدق الله العظيم اذ يقول « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطاه فأزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما » وليست فى غير ذلك تكون رجولة الرجال ، وصداقة الأصدقاء وحب المحبين ، وأدب المؤمنين ، رضى الله سبحانه وتعالى عنهم . جزاء ما كانوا عليه من خلال ، وجميل خصال ، وحسن فعال ، وصدق مقال .

كلمة الختام

حينما جاء محمد صلى الله عليه وسلم للناس بهذا الدين الذى حمل
لواءه • وأقام بناءه • اهتزت أرجاء الدنيا ، وأرهفت أذانها لتصغى الى
هذا النداء الذى دعاها الى أن تتخلص من الخرافات ، وتترك الترهات ،
وأن تنفض عنها غبار هذا الجهل الذى كانت ترزح تحت نيره ، وتعيش
أسيرة لسلطانه • وأن تكفر بهذا الذى توارثته عن الآباء • والأجداد من
الضلال الذى كانت عاكفة عليه • متمسكة به • ثم وجدت نفسها واقفة
منه هذا الموقف الذى اقتضاها أن تفكر وتنظر • وتعى وتتأمل • لأن
كتابه الذى جاء به ، ودينه الذى أعلنه • لم يكن يحمل الناس على القسر •
ولا أن يكرههم على أن يستجيبوا لرغبته ، أو ينزلوا على إرادته • بأسلوب
المتسلطين ، أو طريقة الجبارين ، أو نهج المستبدين ، وهو يقول
« أنلزمكموها وأنتم لها كارهون » وإنما كان يفتح المنافذ التى يدخل منها
الهواء النقى ، وهناك تشعر تلك النفوس التى تعيش فى هذا الجو
الخائق • أنها أمام حرية مكفولة ، وأن من حقها أن تأخذ ما تأخذ ، وتدع
ما تدع • وأن هذا الدين يمتاز بالوعى والرأى ، والعقل والفكر والتأمل
والانتباه ، وأنه لا يرضى لأهله بتبليد الاحساس ، وغفوة الشعور • ونوم
الضمير • وإنما هو يدعوهم دائماً أبداً الى أن يكون لهم نظر وفقه •
وصبحو ويقظة ، وفى القرآن الكريم مجال واسع لذلك كله لا ينكره من
كان له الف به اذ يراه ينادى بذلك • ويرغب فيه • ويحث عليه •
ويجمله كالفریضة المحتومة • أو الواجب الذى لابد منه ، وهو ربما حارب
تلك العلل التى تقاومها • أو تعترضها وتقف فى سبيلها ، ولا نبالغ اذا
قلنا ان الانسانية كانت تعاني من عبودية الفكر • وأغلال الجهل ، قبل
أن يرسل الله اليها هذا الذى أنقذها هذا الانقاذ الذى أنصف به الحق
من الباطل ، والعدل من الظلم • والهلى من الضلال • والحرية من

الاسترقاق ، وهى ما كانت الا فى ليل قائم • وعسف دائم ، وحكم غاشم
 « وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » وقد أثبت الدريخ أن
 اليهودية والنصرانية • وقد كان من طغيانهما ما كان تقلص ظلهما •
 وانكسار سلطانهما ، وفترت حدتهما • وسكت صوتهما ، لأن الاسلام
 الذى أشاع الحرية ، وأعلن العدل ، وأيقظ العقل ، ونادى بالانصاف •
 وهتف بالأذان ، وشرع المساواة ، قضى على الجمود ، وحارب الجهل •
 وقلم أظافر الباطل • وأفهم الناس أن العبادة لله • وأن الآدمية ليست
 وقفاً على الرؤساء ، وهناك كان التمرد على الكنيسة • والتكذيب
 للربهان ، والرفض لما يقول به الذين يمنحون صكوك القفران • ويبيعون
 قرارات الجنة ، وارتفعت الأصوات التى كانت تنادى بالحركات
 التجديدية لتبعث العقل من غفوته ، والفكر من رقده ، وبخاصة بعد
 هذه اللقاءات التى كانت مع المسلمين فى الأندلس الذى دام حكمهم له
 ثمانية قرون كانت مدارسهم وجامعاتهم ترسل نورها على الوافدين عليها
 من هؤلاء الذين أخذوا منها • وانتفعوا بها ، وكذلك كان الاحتكاك
 الصليبي الذى دام أكثر من قرنين كاملين ، وقد سجل مؤرخوهم ذلك ،
 ولم ينكروا هذا الأثر الذى كان من جرائه هذا التحرر ، أو تلك اليقظة •
 وهذا التمرد على ما كانوا مستغرقين فيه ، وأن الاسلام وحده هو صاحب
 الفضيل فى أن يتخلصوا من تلك الرجعية ، وأن يعرفوا أن الآدمية
 تقتضيهم من الحقوق والواجبات ما يجعلهم يتخلصون من هذا الرق •
 وتلك العبودية ، ولا يشك أحد فى أن الاسلام الذى كانت له هذه
 الفاعلية فى غير أهله ، كان له مثلها أو أكثر منها فى أهله ، الذين يؤمنون
 به ، ويقدمون له ، ويعملون به على أنه عقيدة تصلهم بالله ، وتشفع لهم
 عنده ، وكان صلى الله عليه وسلم هكذا مع المسلمين يحثهم على انتطاع •
 ويدفعهم اليه ، ويرغبهم فيه ، ويحبب اليهم النظر والاعتبار ، وأن يكون
 اليوم خيراً من الأمس ، ولا يخطر بذهن أحد أن هذا النشاط الذى كان
 يحثهم عليه ، أو يدفعهم اليه ، كان خاصاً بتحصيل الرزق ، أو جمع
 المال ، أو تحصين الحصون ، واستكمال القوى المادية التى يتقدمون بها
 على غيرهم من اليهود والنصارى لتكون لهم الغلبة عليهم • أو السبق
 دونهم وكفى • أما الفقه فى الدين ، والعلم بكتاب الله ، فليست من
 هذا القبيل ، لأن طريقها الوحي الذى أكد ذلك بقوله « اليوم أكملت لكم
 دينكم » وليس من حق عقل أو نظر أن يكون له زيادة أو حذف أو
 تغيير ، أو اجتهد أو رأى ، أو ما يشبه ذلك مما يشعر أن خلافاً كان
 بادياً • لابد من العمل على تلافيه أو تداركه • ونحن نبادر بدفع هذه
 الشبهة بأن هذا الكلام إنما يرد على الذهن اذا كان ما يجيء به الفكر
 أو النظر متعارضاً مع هذا الدين الذى ثبت له التمام والكمال ، فان هذه

الاضافات والحركات التى نسميها جديداً أو تجديدياً من معينه ، وليست غريبة عنه ، أو بعيلة منه ، ولا زيادة فيه ، وانما هى تلتقى به بعنوان أو بآخر ، ووظيفة الفكر أو النظر جعلها ذات نسب يربطها به ، وهو القياس أو غيره من الروافد ، وفى هذا المحيط كان الفكر والنظر ، والاجتهاد والاضافة . والنبي صلى الله عليه وسلم وهو المعلم الأول لهذه الأمة لم يكن يحظر على أصحابه رضوان الله عليهم شيئاً من ذلك ، وانما كان يفتح لهم الآفاق . ويشجعهم على البحث والتأمل ، والنظر والاعتبار ، ويسترشدهم بهم ويشاورهم ، ويغريهم أن يقبلوا الأمور على وجوهها ، وكانوا يعترضون عليه ، وكان هو من ناحيته يتقبل منهم ذلك ، لأنه من غير شك المعلم والمربي الذى يود أن ينشأ تلاميذه وفيهم حرية الرأى فى فهم الأشياء . وعدم أخذها دون الاذعان لها ، والاطمئنان اليها . كما حدث ذلك فى أسارى بدر ، وفى مشروعية الأذان للصلاة ، وفى الصلاة على رأس المنافقين عبد الله بن أبى بن سلول . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يحمل لواء المعارضة ، وكان الوحى كثيراً ما يوافقه . وكان ذلك - كما قلنا - من النبي صلى الله عليه وسلم تدريجاً لأئمة على الانطلاق والتحرر ، وأن يكون لهم مصباح من الرأى يضىء لهم الدرب فى شئون الدين والدنيا على السواء ، « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » وهو بذلك لا يطلب منهم أن يكونوا كاللبغاء التى تحكى ما تسمع من غير وعى وادراك دون أن تفهم له معنى ، أو تفقه له مغزى ، وانما يطلب التدبر ، بعنوان أن الغاية من التكاليف جلب المصلحة ودرا المفسدة ، والمجتهد لا يجهد عن هذا الغرض بحال من الأحوال . وفى القرآن الكريم ما يشبه أن يكون معالم للانطلاق الى هذا التحرر من الجمود ، وذلك مثل قوله سبحانه « لا يكلف الله نفساً الا وسعها » وقوله « ولكم فى القصص حياة » وقوله « وما جعل عليكم فى الدين من حرج » كما جاء فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان هذا الدين يسر لا عسر » وقوله « لا ضرر ولا ضرار » وجاء عن الفقهاء عبارات تناقلها الناس عنهم يمكن أن تكون مبادئ كقولهم « اليقين لا يزول بالشك » أو قولهم « الأمور بمقاصدها » وقولهم « مصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الواحد » وكانت هذه كلها منارات أضاءت الطريق ، وكشفت للعالم ، على أن هذا التجديد لون من ألوان حرية الرأى التى هى مترتبة على حرية النفس التى يحارب المرء من أجلها . ويموت فى سبيلها . ويجب ألا ننسى - مع ذلك - أن هنالك مناطق محرمة ليس من حق الباحث أو المجتهد أن يتناولها بعض التنازل أو كله برأيه ، لأنها مأخوذة على علاقتها ، وذلك مثل وحدانية الله ، وإرسال الرسل ، وفرضية الصلاة ، وعذاب القبر ، والإيمان باليوم الآخر ، أما ماسواها من فروغ المسائل التى لم تثبت بنص قاطع كعمران

الأرض ، واستغلال الطاقة ، وتخطيط المدن ، وإدارة الأعمال ، مما هو خاضع للرأى والفكر . والكياسة والعقل ، فانه لا بأس أبداً لأن تكون مجالا لاختلاف وجهات النظر ، والقبول والرفض ، على ضوء التأمل والاعتبار ، ولا يستطيع انسان أن ينكر أن ذلك كان موجودا بين المسلمين حتى مع وجود النبی صلی الله علیه وسلم ، وهو صاحب فصل الخطاب فيه ، « وما ينطق عن الهوى ان هو الا وحى یوحى علمه » وما كن موقفهم بعد أن اختار الله رسوله صلی الله علیه وسلم الى الرفیق الأعلى وهم ينشدون من یملاً هذا الفراغ لیسوس أمورهم ، ويرأب ما عسى أن یكون هنالك من صدع ، الا لونا من ذلك ، وصورة واضحة له ، وقد سموا هذا الرجل الذى اختاروه خليفة ، وتوالى الأمر بعده لعمر وعثمان وعلى ، فى حين أنه صلی الله علیه وسلم لم یقل بهذا الأسلوب ولا نص علیه ، وانما هو تفكير المسلمين ورأیهم الذى واجهوا به الأحداث ، وقضوا به على الفتن ، وكان لكل واحد من هؤلاء كیاسة وسياسة انفراد بها ، وصارت دستوراً للمسلمین من بعده ، وقد جمع أبو بكر القرآن ، وقاتل المرتدین ، وجاء بعده عمر وكان له رأى ، وصدرت عنه أحكام ، وهكذا كان عثمان وعلى ، والمسلمون كلهم على طول المدى كانوا یصادفون قضايا لم یقفوا أمامها جامدين ، ولم یرضوا بهذه الغفوة التى تصیب المغلوبین على أمرهم ، والذى یلم بعض الامام بهذا التراث الذى تركوه ، یرى أن التدهامی منهم كانوا یسمون بالسلف ، وأن الذین جاؤا بعدهم كانوا یسمون بالخلف ، ویمتاز أولئك الحلف أو المحدثون بأنهم كانوا أصحاب اجتهاد ورأى ، وأنهم لم یكونوا جامدين ، ولم یقفوا أمام النصوص دون أن یقلبوها على وجوهها لیعرفوا ماذا تعنى ، وقد زخرت صحائف التاريخ الاسلامی بالطوائف والفرق ، أو الأحزاب والجماعات التى كانت تتبادل الآراء . وتتصارع على الأفكار . مثل المعتزلة وأهل السنة ، والجبرية وغيرهم . وربما كانت رسائل إخوان الصفا التى بین أيدينا شاهداً من هذه الشواهد ، ومنذ كان العصر العباسی واختلط المسلمون بالفرس ، وأخذوا عنهم الفلسفة والمنطق ، والرحى تدور على الجدل والمناظرة ، والبحث عن حقائق الأشياء . وليس بصحيح ما یقوله اقبال من أن هذه النزعة انما كان الفضل فیها لرجال التصوف الذین أوجدوها بعد أن لم تكن ، ومنه نستطيع أن نسوق الأدلة على أن هذا الرأى غیر صحيح ، وأن الانسان منذ تطلع الى الوجود فكر ونظر ، وبحث وتأمل ، وحاول أن یعرف ، وأن یربط الأسباب بالمسببات . ولم یرض أن یكون متخلفاً فى معنى من المعانی التى تصل به الى جدید فى علمه . وطريف فى رأیه ، وكان یعمل دائماً أبداً على أن یضيف الى ما یكتسبه آخر وآخر ما دامت فیهِ القدرة على التحصيل ، وليس أدل على ذلك من تلك القصة الطريفة التى ذكرها القرآن الکریم على شكل حوار دار بین موسى علیه السلام والخضر رضى الله عنه ،

اذ قال له موسى « هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدا قال انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا قال ستجدني ان شاء الله صابرا ولا أعصى لك أمرا قال فان اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا » ومضيا بعد ذلك في طريقهما على أن موسى ملتزم بعهد الذي أخذه على نفسه ، لا يتجاوز ولا يخيس فيه ، ولا يناقش مسألة أو يطلب عنها ايضاحا أو تعليقا الا بعد الفراغ من المسيرة ، والانتهاء من الرحلة . وحين يجيء دورها بين أخواتها من المسائل ، وكان المفروض في وعد وعد به موسى أن يفي به ، الا أننا رأيناه يتحلل منه ، ويخرج عليه ، وكان ذلك محلا للغربة ، وسببا من أسباب الدهشة ، لأن الشأن في الكلمة أن تملك صاحبها . وأن تكون عهدا مستثلا . ولا سيما حين تكون صادرة عن رجل لا ينزل الى مرتبة السوق ، وهو رسول يأخذ الناس منه ، وينقلون عنه ، الا أن موسى الذي نتصوره على هذا الوجه ، طغت عليه تلك البشرية التي جعلته يخرج على الثقاليه ، ويخالف الأوضاع ، طلبا للعلم ، ونزوعا الى المعرفة ، وحرصا على أن يزيل عن نفسه غشاوة الجهل ، ووصمة هذا التخلف ، الذي لا يليق بحملة المشاعر ، وطفى عليه كذلك نهمة الى الانطلاق ، وحبه للمعرفة ، وشغفه الى المزيد ، فسأل وألح في السؤال مكتفيا وهو يتجاوز الحد لما عاهد عليه صاحبه بهذا الاعتذار « لا تؤاخذني بما نسيت ولا ترهقني من أمري عسرا » ولم يكن هو نسيانا واحدا ، ولا اعتذرا واحدا كذلك ، وانما هو انسياق في هذا المدي ، وتكرار لتجاوز الحد ، وتكرار للاعتذار ، ويكتفي هذا المتجاوز بما يكرره « لا تؤاخذني بما نسيت » حين يقول له صاحبه « انك لن تستطيع معي صبرا وكيف تصبر على ما لم تحط به خبرا » . وقديما كانوا يقولون منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال . . . ولما كان العقل أو الوعي ، والادراك والمعرفة ، والنظر والتأمل ، وما يرادفها من الأمور التي لا تنجى من غير احاطة واستقصاء ، وفقه وفهم ، لها هذه المكانة ، وذلك التقدير ، رأيناه جل وعلا قد جعل غرائز بني آدم توافقة الى هذا التطلع . وذلك البحث أو الكشف . ولا ترضى بالوقوف عند حد . وكان حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم داعيا الى طلب العلم وجعله فريضة على كل مسلم ومسلمة ، وفي الحديث كذلك ما يفيد أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع . وهنالك معنى وراء ذلك كله قلما يقطن اليه كثيرون من الناس وهو تلك السعادة التي يحس بها الطالب وهو يضيف الى رصيده جديدا من الوعي والادراك ، وهو يخلق في هذا الجو الواسع الذي يشبه جو الشعراء وهم يخلقون في ملكوت السماوات والأرض بحثا عن حكمة ضالة ، أو حقيقة ضائعة . وهكذا يعيش في هذا البرج العاجي أرباب الآراء ، وأصحاب الأفكار ،

والباحثون عن الجديد من المعاني ، أو الطريف من الأشياء ، والخير لا يواتي
 الا من يطلبه ، ولا يحتاج الا لمن يسعى اليه ، والأئمة الذين مهدوا الطريق ،
 وعبدوا السبل ، كم تحملوا من ادمان السهر ، واقتراس المدر ، وكثرة
 السفر ، وطول النظر ، ومطاردة الضجر ، وعلى من يجعلون من نفوسهم
 أهدافا لهذه المهمة أن يكونوا هكذا دأبا ونصبا . وكذا وتعبا وما كان المجد
 في وقت من الأوقات نكرة شائعة ، ولا طاقة ضائعة ، وانما هو انسان
 دخل في التاريخ من أوسع أبوابه ، اذ وصل روحه بالحقيقة ، وقلبه
 بالمعرفة ، ونفسه بالطلب ، فاستطاع أن ينشر الضياء ، ويملا مصباحه
 بالزيت ، ولقد كان المرجح الذي فضل الله به آدم على الملائكة وجعل له
 الخلافة من دونهم انما هو العلم . وكان اصحاب رسول الله صلى الله
 عليه وسلم يسألونه . ولا يجد هو غضاضة في اجابتهما لما يعرفه من ذل
 الجهل ، وعدم المعرفة ، وهكذا كان النزوغ الى التجديد ، والميل اليه ،
 أو الحب له ، تسبقه هذه الارهاصات التي تبدو في البحث والكشف
 وطلب المعرفة ، ومن هنا فاننا لا نتردد اذا قلنا انه كان كذلك على طول
 المدى . وبه انتقل العرب من عبادة الكواكب والأصنام الى عبادة اللطيف
 الخبير ، ويقول سبحانه « هل يستوى الذي يعلمون والذين لا يعلمون »
 ونحن لو تصورنا الحياة الأولى للإسلام في بادىء أمرها حيث كان المسلمون
 في قلة من العدد . وضالة من الموارد ، وضيق من رقعة الأرض ، وخلو
 من العلم والمعرفة ، نستطيع أن نقول انها كانت بسيطة لا تعقيد فيها .
 واضحة لا يكتنفها شيء من الغموض . وأن رجلا واحدا هو النبي صلى
 الله عليه وسلم كان يدير شئونها ، ويسوس أمورها في الدين والدنيا
 في آن واحد ، يبصرهم بحدود الله في الحلال والحرام . ويقود الجيوش .
 ويصد العدوان ، ويوطد دعائم الحق والعدل ، فلما زاد عدد المسلمين ،
 وفتحت الأمصار ، وزرع الأعمال بين أصحابه . فهؤلاء يكتبون له الوحي
 وأولئك يعلمون القرآن وآخرون للفتيا والقضاء ، وغيرهم للغزوات
 والفتوح ، وهو مع ذلك كله ربان السفينة من غير خلاف ، لكنه وهو في
 هذه المنزلة من الله ومن المسلمين ، وله هذا الاتصال بالسماء . لم يستبد
 كل الاستبداد بالأمور ، وانما كان أصحابه من حوله جوارحه النابضة ،
 وشعوره الفياض . واحساسه المتيقظ ، يتلقى آراءهم ، ويحترم أفكارهم .
 ويقول « أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وربما حوله بعضهم
 عن رأيه أو اجتهاده واستقبل هو ذلك بالرضا والارتياح ، والذين يقولون
 ان الاسلام قضايا محدودة ، ومسائل معدودة . أو أقوال متوارثة .
 لا يستطيعون أن ينكروا ما جده فيه من فهم ، وما أضيف اليه من علم ،
 وما زاد في رصيده من رأى ، وأنه كان يتجاوب مع الحوادث . ويسابق
 الأيام ، ويسير مع عجلة الزمن ، من غير كساح ولا مرض ، وقد صبح

أنه بعد أن اتسعت الفتوح . وانتقل من انتقل الى تلك البلاد طلبا للرزق
وجريا وراء لقمة العيش ، وظل بمكة والمدينة حفظة أحاديث رسول الله
صلى الله عليه وسلم . وبخاصة هؤلاء المعروفين بالفتوى ، وانقطعت صلة
أهل هذه البلاد المفتوحة بهم أنهم كانوا يقتدحون الأذهان ، ويعملون
الفكر ، ليصلوا الى حكم الله في المشاكل أو المسائل . وحينئذ كان
التشريع الاسلامي له اتجاهان ما كان عنهما مقر ، اتجاه أهل الحديث
الذين لا يجيدون عن النص قيد أنملة ، واتجاه هؤلاء الذين لم يجدوا
مندوحة عن الرأي ينتفعون به ، أو يحتكمون اليه ، وقد ألف الناس ذلك
ولم يرفضوه . وهكذا كان فيما بينهم مدرستان للفتوى في الأحكام .
مدرسة أهل الحديث ، ومدرسة أهل الرأي . على أن أهل الرأي ليسوا
كما يعطى ظاهر اللفظ من الهوى والميل أو الغرض دون ايمان فكر وتأمل ،
ونظر وتعقل . ولكن الرأي عندهم دقة فهم ، وحسن تأمل ، وعميق
دراسة ، وإطالة تفكير ، واجتهاد صحيح في فهم الأمور فهما يربطها كل
الربط بالكتاب والسنة ، على أن تكون الغاية من قبيل ما تعارف عليه
العلماء من كونه جلب مصلحة أو درأ مفسدة ، ولا ينكر أحد على أهل
الرأي أنهم كانوا كذلك ، تجديدا في الفكر ، وإثراء للفقهاء ، وزيادة غير
منكورة في رصيد العقل . . . وإذا صح هذا الحديث الذي يباليخ السيوطي
في نفى تهمة الضعف عنه . وهو أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة
من يجدد للناس أمور دينهم . فإن مسألة التجديد في الدين والرأي تكون
من الأمور المسلمة التي لا يمارى فيها أحد ، لأن مدرسة أهل الرأي هذه
هى تلك الصورة التي تخلف عنها الأئمة الأربعة وغيرهم من أهل
الاجتهاد . والثروة العظمى التي أخذها المسلمون من الكتاب والسنة
لا يمارى فيها انسان ومن أجل ذلك فنحن حينما نقول ان في شريعتنا
من الخصوبة والمرونة ما يطاوعها على الاستجابة كل الاستجابة لمطالب
النهوض والرقى . والتقدم والعمران . ويشهد على أنها على جانب عظيم
من الثراء والغنى ، لم تكن ندعيا دعوى مجردة عن الدليل ، لأن شريعة
محمد صلى الله عليه وسلم لم تكن أبدا تراثا باليا ، ولا مخلفات حروب
فاشلة . وهى صنع الله الذى أتقن كل شئ خلقه ، هذا ولا يفوتنى
وأنا أتحدث هذا الحديث عن التجديد في الفكر الاسلامي أن أنبه الى أن
ذلك لم يكن كالأرباحا يغشاه كل ما هب ودب - كما يقولون - وإنما هو
عمل الخاصة من أهل العلم الذين سماهم القرآن الكريم أهل الذكر ،
وسماهم أرباب المعرفة أهل الحل والعقد . ممن تساعدهم ثقافتهم
العربية ، وممارستهم لقضايا الشريعة الاسلامية أن يخوضوا هذا المضمار
حتى لا يكونوا وبالا علينا وعلى الناس .

د . ابراهيم علي أبو الخشب

فهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
يا رسول الله	١١
محمد	١٧
نفسه الشريف	٢١
الأعداد الالهى	٢٥
يتيم رعا الله	٢٩
عصامته	٣٥
اعتكافه	٣٩
قصة القراءة	٤٣
ما ودعك ربك	٤٧
ثبت يدا أبى لهب	٥١
رجلان	٥٥
والله يا عمى	٥٦
البشارة به فى الكتب السابقة	٦٣
صراعه مع المشركين	٦٧
المعذبون	٧٣
المستهزئون	٧٧
التحدى الباطل	٨٣
الهجرة الى الحبشة	٨٩
الحصار الاقتصادى	٩٣

الصفحة	الموضوع
٩٩	عام الحزن
١٠٣	مع ثقيف بالطائف
١٠٧	الاسراء والمعراج
١١٣	مبايعة العقبة
١١٩	هجرة الرسول
١٢٣	فى الطريق الى المدينة
١٢٧	فى المدينة
١٣١	تكوين الدولة
١٣٥	غليان القدر
١٣٩	شاكى السلاح
١٤٣	شبهات الحرب
١٤٩	اليهود فى الطريق
١٥٧	قبل غزوة بدر
١٦١	غزوة بدر الكبرى
١٦٥	طرف من بدر
١٦٩	غنائم الحرب
١٧٣	حديث أحد
١٧٩	قاتل حمزة
١٨٣	بين أحد والأحزاب
١٨٧	غزوة بنى المصطلق
١٩١	حديث الافك
١٩٧	غزوة الخندق أو الأحزاب
٢٠٣	قصة زينب
٢٠٩	الحديبية والرضوان
٢١٧	بعد الحديبية
٢٢٣	حديث أبى سفيان
٢٢٧	فتح مكة
٢٢٩	غزوة تبوك
٢٤٧	بعد تبوك
٢٥١	حجة الوداع
٢٥٧	أصحاب النبى
٢٦١	كلمة الختام

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٧٦٣/١٩٩٠

ISBN — 977 — 07 — 2611 — X

هذا كتاب جرى فيه القضاء على ان يكون سيره لسيد
الخلق محمد صلى الله عليه وسلم فكان ادبا بكل ما تحتمل
ظلمة الادب من معنى : وهذا عيبه ان صح ان يكون عيبا فليقره
القارئ واضعا في نفسه هذا الاعتبار ومن العناوين الأولى :-
وهذه نبذة من هذه الكتاب :- وهكذا جد من البهجة
والرضا . والسرور والفرح . والغبطة والسعادة . والامل
والارتياح . والحب والود . والاقبال والقبول . لينسى صلى الله
عليه وسلم شدائد التي كانت . وكروبته التي قضت . وهو
ما بين الاحتفال ببتائه . والعناية بامرء . والاهتمام بشخصه .
والوعود التي تضحك في وجهه . والرعاية التي تحيط به من كل
جانب في جنه عرضها تعرض السماوات والارض .
لكنه صلى الله عليه وسلم الى هذه اللحظة . كأنما كان يقف
وحده في الميدان
اليس هذا هو الادب بعينه . او قريبا منه . انا اقول ذلك !!